رواية

سمير الزبن

في غُبار الماضي



في غُبار الماضي

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠٢٠/٩/٣٥٩٥

٨١٣,٠٣
الزبن، سمير
في غبار الماضي / سمير الزبن.- عمّان: العائدون للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠
(٣٣٩) ص.
ر.إ.: ٢٠٢٠/٩/٣٥٩٥.

الواصفات: / الروايات العربية // الأدب العربي // العصر الحديث /
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

* في غبار الماضي
* سمير الزبن
* الطبعة الأولى: ٢٠٢٠
* تصميم الغلاف: الفنان رائد قطناني



عمـر شـبانة
مدير ومحرّر مسؤول
مكتب 24، مجمع يوسف التجاري، شارع الكرمل،
جبل الحسين، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية

www.alaedoun.com
+962 79 2076184
+962 79 5702082
al.aedoun.m@gmail.com
oashabanah@gmail.com
@al.aedoun

تصميم الغلاف والطباعة: مطبعة جوري
Jorry Press
jorrypress@yahoo.com 0796937555

سنة الصدور: ٢٠٢٠

سمير الزبن

في غُبار الماضي



العائدون للنشر
2020

قلت: سأمضي إلى أرض أخرى
أمضي إلى بحر آخر
لأجد مدينة أخرى خيرًا من هذه.
حيث كل ما فعلته كان مدانًا مقدّرًا.
وحيث قلبي مدفون، مثل جسم ميت.
إلامَ أظلّ في هذه العتمة؟
حيث من أي وجه جئت
لا أرى سوى خرائب حياتي السود
حيث قضيت سنين وسنين
أضعتها، وخرّبتها تمامًا.

كافافي

عندما استقرت هالة سعيد على مقعدها في الطائرة الإيطالية التي تقلها إلى روما في طريقها إلى الولايات المتحدة الأميركية، نزعت حجابها عن رأسها، فكّتْ عقدة شعرها، انسدل شعرها الناعم الذي لامس كتفيها من الأعلى، أزاحت غرَّتَها بيدها اليسرى إلى اليمين، أسندت رأسها إلى الكرسي، أغمضت عينيها، زفرت زفرة قوية، وبات الفراغ يحتل تفكيرها.

قبل وقت قصير، كانت خائفة بشدة من فعل ذلك، لكنها قبل أن تُقلع الطائرة من أرض مطار دمشق تخلصت من حجابها ومن خوفها. فكّرت في الموضوع طويلًا: هل ستُقدم على نزع حجابها؟ كان من الصعب أن تقوم بهذه الخطوة في دمشق، بعد أكثر من عشر سنوات على وضعها الحجاب على رأسها. لقد ودَّعت إخوتها وأخواتها في صالة مطار دمشق، قبل أن تصعد إلى الطائرة. نظروا إليها بعيون الشفقة، كانت تعرف هذه النظرات وتكرهها. أرادت أن تقول لهم: «لا تنظروا إليّ هكذا، فأنا أكره هذه النظرة في عيونكم، وفي عيون غيركم». لم تستطع أن تقول ذلك في لحظات الوداع، فقد

جاء الجميع من أجلها، متضامنين مع محنتها ومقدّرين أنها قد لا تعود مرة أخرى إلى دمشق. لم تكن نظرات الشفقة تتعلق بنزع الحجاب، فهم لا يعرفون أي شيء عن قرارها بهذا الشأن. يشفقون عليها لأسباب أخرى، تعرفها وتكره شفقتهم، تلسعها كلماتهم التي تحمل الشفقة. كان تأثير شفقة إخوتها وأخواتها عليها كبيرًا، رغم أنها شغلت نفسها طوال الوقت بحجابها، الذي لم يخطر على بال أهلها أنها يمكن أن تفكر في نزعه، وحتى لم يخطر على بالها، أن يومًا سيأتي وتنزعه. رغم لسع الكلمات، لم يشغل تفكيرها سوى كيف ومتى تنزع الحجاب في طريقها إلى الولايات المتحدة؟ لن تصل إلى هناك والحجاب على رأسها، هكذا قرّرت في اليوم السابق. ودَّعتهم وكان حجابها أكثر ما يقلقها في لحظات الوداع، لم ترَ صور وجوههم كما هي، شاهدتْهم صورًا غائمة لإخوة وأخوات تتذكر ملامحهم أكثر مما تراهم أمامها، هم موجودون وغير موجودين، الدموع بعينيها جعلت صورهم أكثر تشوهًا واضطرابًا. الحجاب يضغط عليها بقوة أكثر من أي شيء آخر، رغم المصائب التي عكّرت حياتها في الفترة الأخيرة. صحيح أنها جدّدت جواز سفرها بصورة لا ترتدي فيها الحجاب، واستغرب موظف الهجرة والجوازات عندما شاهد ذلك من خلال الفرق بين جوازي السفر

القديم والجديد، سألها: «لماذا؟!». لم تجبه بشيء، قلّب شفتيه وأكمل المعاملة وهو ينظر إليها بازدراء، استفزتها نظراته ولكنها لم تقل أي كلمة. عندما انتهى من إجراءاته، حملت جواز سفرها، بادلته نظرة الازدراء، وغادرت مبنى الهجرة والجوازات.

حتى ذلك الحين، اعتبرت أنها غير قادرة على نزع حجابها، وجواز السفر لن يشاهده أحد إذا ما قرَّرت أن تُبقي الحجاب على رأسها. ترددت كثيرًا، سألت نفسها: «لماذا عليّ أن أنزع حجابي بعد كل هذه السنوات؟!». ما إن يكتملَ السؤال حتى تطرح على نفسها السؤال النقيض: «ولماذا عليّ أن أبقيه على رأسي؟!». استغربت أسئلتها لنفسها، تسأل السؤال وتستغرب أنها هي التي تسأله، ذلك لا يجعلها ترميه وراءها، على العكس، استغرابها يجعله أكثر إلحاحًا. تناقشت طويلًا مع أختها فداء، التي قدمت لها طلب لمّ الشمل للولايات المتحدة قبل سنوات، وجاء أخيرًا بالموافقة. كانت ترغب في الذهاب إلى أميركا، وفي الوقت ذاته لا ترغب في مغادرة دمشق. ما جرى معها في الأشهر الأخيرة، جعلها تقرر الذهاب إلى أميركا هروبًا، أكثر منه رغبة في الذهاب إلى هناك. لم تعرف أن أشهرًا قليلة قادرة على تدمير حياتها نهائيًا، وهو ما جعل الهروب خيارها الوحيد. كانت فداء سعيدة بقدوم هالة إلى

الولايات المتحدة، فهي قد ارتبطت بها كأمّ منذ وفاة والدتهما، ولم تكن فداء تشتاق إلى دمشق بقدر ما تشتاق إلى أختها، التي اعتبرتها ابنتها لأنها لم ترزق الأطفال، وزيارتها الوحيدة إلى دمشق كانت من أجل هالة. لم تتطرق فداء إلى الحجاب، سألتها هالة عن رأيها. قالت فداء: «يُفضل أن تكوني بدونه، صحيح أن تفجيرات الحادي عشر من أيلول مضى عليها سبع سنوات، ولكن الأميركيين يخافون من اللواتي يرتدين الحجاب، فكّري وقرّري». عندما قالت فداء لها هذه الكلمات، جدّدت جواز سفرها بصورة فوتوغرافية لا ترتدي فيها الحجاب، لم تخبر أحدًا من أهلها أنها ستتخلص من حجابها، أو أنها تفكر في التخلص منه. أرادت أن تُبقي كل شيء في دمشق على حاله، لذلك قررت أن تنزع الحجاب في البلد الجديد، طالما أن فداء تقول إن هذا أفضل. لكنها تعرف في داخلها أن رغبتها في نزع الحجاب لا علاقة لها بنصيحة فداء، فهي لديها الرغبة في تغيير حياتها نهائيًا، وكانت نصيحة فداء هي الذريعة التي جعلتها تقْدم على نزع حجابها الذي شعرت في الأشهر الأخيرة أنه يثقل عليها وعلى روحها، كما لم يثقل من قبل.

كل شيء يثقل عليها، صحيح أنها في الأشهر الأخيرة، باتت تشعر أن الحجاب أثقل من أي شيء آخر، وانشغالها الدائم به

يحميها من التفكير بما جرى معها، ولو فكّرت في ذلك لأصيبت بالجنون. لقد شعرت أنه يحجب عقلها، أرادت أن تنزعه حتى ترى الأشياء كما يجب أن تراها، أن تنظر إلى حياتها بعيون جديدة وبعقل مختلف.

بدت حياتها لها كشريط سينمائي خارجي يهزّها من الأعماق، يتداعى دون أن تتحكم به، يدير نفسه بنفسه ويذهب إلى صور وذكريات قاسية لا ترغب بتذكرها، هزت رأسها بقوة لتخرج هذه الصور والذكريات من رأسها، دون أن تنجح. ازدحام الصور والذكريات شوّشها، كل شيء متداخل، الأماكن والأشخاص والأحداث، وذكرياتها مختلطة بذكريات الآخرين، فوضى عارمة في رأسها، ضجيج وصخب الحياة التي عاشتها في مدينتي حماة ودمشق، صوت انفجارات مدوية في أنحاء المدينة، صورة حبيب المراهقة البريء في القدوم الأول إلى دمشق، صوت مواء القطط الذي يخيفها في شهر شباط، تحرش شاب بكلام فاحش، صورة أمها الميتة المغطاة بشرشف أبيض، صوت الرعد، اللقاء الذي سحرها على شاطئ بحيرة زرزر، حضن عمها الذي كانت تخاف أن تجلس فيه، لأنه كلما جلست في حضنه، هناك شيء يكبر ويقسو تحتها، فتقف فزعة، لمسات وقبلات صديقتها التي لم تعرف لها تفسيرًا...

أخـذت ذكرياتها تنـتظم بعـد الفوضـى التـي اجتاحـت رأسـها، وأخذت الصور تزداد وضوحًا. عندما عادت من المدرسة في سنتها الدراسية الثانية، لم تفهم لماذا يصدر صوت القرآن من بيتهم، فهذا الشهر ليس شهر رمضان، لقد ذهب رمضـان منـذ وقـت قصير، ولـم يَحـن موعـده الجديـد بعـد، حتـى أن العيـد الكبيـر لـم يـأتِ بعـد. اسـتغربتْ ذلـك الصـوت، واسـتغربتْ أكثـر، الوجـوه المتجهمـة المتواجـدة حـول البيـت وداخلـه. سـارت بـين الجمـوع مذهولـة وخائفة. لـم تكـن تفهـم مـا يجـري، وعنـدما احتضـنتها هـدى أختهـا الكبيرة وهي تبكي، وتقـول: «حبيبتـي، الله يصـبرك»، لـم تفهـم هالـة لماذا كل هذا البكاء من أخواتها ومن النسوة اللـواتي يمـلأن المكـان. نظرت إلى جثة أمّها المسجاة والمغطـاة، لـم تعرفهـا تحـت الغطـاء، ولم تفهم ما يجري. بحثـت عـن أمهـا بـين الجمـوع حتـى تحضـنها، لتخلصها من خوفهـا الـذي ازداد بسـبب عويـل النسـاء، لـم تجـدها، سألت بكل براءة: «أين أمي؟!».. لم تستطع هدى الباكية أن تجيبها. تبرعت إحدى الجارات الباكيات، وقالت لها بفجاجة: «أمك ماتـت يا هالة». لطمت المرأة بكفيها على خـديها ودخلـت في العويـل. لـم تفهم هالة ما قالته المرأة بجانبها. ازداد خوفها، أخذت تبكي وتقـول لهدى: «خـذيني لأمـي».. لـم تكـن كلماتهـا تعنـي أنهـا فهمـت مـوت

أمهـا، ولكـن هـدى اعتقـدت ذلـك. سـارت باتجـاه الجثـة المسـجاة لتُرِيَهـا أمهـا، في طريقهـا، سـألت فـداء أختهـا هـدى: «أيـن تـذهبين بها؟!». قالت هدى: «تريد أن ترى أمي».. ثارث فداء، انتزعت هالـة من بين يديها وصرخت فيهـا: «أنـت مجنونـة». حملتهـا إلـى الغرفـة المجاورة التي لـم يكن فيها أحـد. أجلسـتها علـى سـريرها ومسـحت دموعهـا ودمـوع هالـة بيـدها. أخـذت تنـزع عنهـا لباسـها المدرسـي، قالت لها: «اسمعي حبيبتي، أنت تحبين ماما، وأنا أحب ماما، وماما تحبنـا. أمـك يـا حبيبتـي، راحـت لفـوق عنـد الله». سـألت هالـة بكـل سذاجة: «يعنـي الله أخـذ مامـا، يعنـي مامـا ماتـت؟!». أجابـت فـداء: «نعم، الله أخذ ماما. ماما ماتت، منذ اليوم أنا أمـك». اسـتغربت هالـة الكلام، وقالت: «لماذا الله أخذ أمي وما أخذ جارتنا أم حـازم؟». لـم يكـن لـدى فـداء الجـواب المناسـب علـى هـذا السـؤال. بكـت واحتضنتها بقوة. قالت: «هذه إرادة الله».. قالت هالة: «أقدر أحكـي مـع أمـي؟». قالـت فـداء: «تسـتطيعين أن تحكـي معهـا، لكنهـا لا تستطيع سماعك، ماذا تريدين أن تقولي لها؟». قالت هالة: «أريد أن أقول لها: أنا بحبك». عادت فـداء للبكـاء واحتضـان هالـة وجسـدها يرتجف. قالت هالة: «أستطيع رؤيتها؟ أقدر أبوسها؟». خافت فـداء مـن كلمـات هالـة وتـرددت كثيـرًا. هـل تسـمح لهـا أن تـرى والـدتها

مسجاة وهي طفلة، وهل ستلومها بقوة إذا لـم تسـمح لهـا أن تشـاهد والدتها آخر مرة؟ لم تعـرف مـا هـو التصـرف الصـحيح، احتـارت في الأمر. ولكنها في النهاية اعتبرت أن من حق هالة أن تلقـي علـى أمهـا النظـرة الأخيـرة، وأن خوفهـا علـى أختهـا مشـروع، ولكـن الخـوف وحده لا يصنع الحيـاة، ستواجه مـوت والـدتها، ورؤيتهـا قـد تكـون ضرورية لأجل تجاوزها الأزمة. أمسكت فداء بيد هالة، أنزلتهـا عـن السرير، فتحت الباب، شقت طريقها إلى الجسد المسـجى، وعنـدما وصلت عنده رفعت الغطاء عن وجه أمها، حملتهـا، قربتهـا مـن جثـة والدتها، قبّلت هالة وجه أمها البارد، وهي متعلقة برقبة فداء، وقالـت لوالدتها: «أنا بحبك ماما». شاهدت هالة وجه أمها يبتسم، وسـمعتها تقول لها: «وأنا أحبك أيضًا».. قالت لفداء: «قالت لي وأنا أحبـك». احتضنتها فداء مرة أخرى وأخـذتها بعيـدًا عـن جثـة والـدتها. سـتذكر هالة طوال حياتها وجه والدتها المبتسم، ستبقى تروي كيـف سـمعت أمهـا تقـول لهـا إنهـا تحبُّهـا وهـي ميتـة، تحلـف الأيمـان أن هـذا مـا حصل، وأن كلمات أمها ما زالت تـرنّ بأذنهـا. فسّرَ الـبعض ذلـك أن الأطفـال يسـتطيعون التحـدث مـع الأمـوات، فـبراءتهم تسـمح لهـم بالحديث مع روح الميت التي ما تزال تحوم في المكان، وهذه قـدرة إلهية، حتى الأطفال يستطيعون تحمُّل ثقل الموت، فلا يمكـن الله أن

يخيف الأطفال بالموت وهم في سن البراءة، لذلك يجعلهم يتواصلون مع روح الموتى الذين يحبونهم، طالما أنهم سيكبرون ويفهمون الموت وأنه حق على كل إنسان، ولكن كل ذلك سابق لأوانه بالنسبة للأطفال، لذلك منحهم الله قدرة التواصل مع أرواح أحبتهم ويتعاملون معهم كأنهم ما زالوا أحياء حتى يخفف عليهم غيابهم. حتى أن البعض قال لوالد هالة بعد أسابيع من موت أمّها إنه يستطيع أن يتحدث مع زوجته عندما يزورها في المقبرة، صحيح أنها لن ترد عليه، ولكنها تستطيع أن تسمعه. وهذا ما أكده له عدد من الأشخاص. لم يكن بحاجة إلى هذه النصيحة، كان يكلمها بصرف النظر سواء كانت تسمعه أم لا. كلمها كثيرًا، وشكا لها كل متاعبه. بكى وحيدًا على قبرها، وقال لها: «ماذا سأفعل بستة أطفال صغار». تتوه عيناه في المقبرة، ويعرف أن الموت في هذه البُقعة لا يحكي سوى حكايات الدموع. في البداية كان يذهب لزيارتها كل يوم، تراخت الزيارة بعد ذلك، وبعد ستة أشهر وجد نفسه غارقًا في مشاكله ويتزوج من جديد، لأن حياته لا يمكن أن تستمر بدون ذلك. لقد حَسَّنَ الزواج من أحواله، ولكنه لم يُحسّن من وضع أبنائه خاصة هالة التي كانت أصغرهم. لم تستوعب أن تحل امرأة أخرى مكان أمّها، فكرهت نجية زوجةَ أبيها، التي حاولت أن تتعامل معها

بلطف. أغلق قلب الطفلة نفسه عن هذه الإنسانة التي اعتبرتها هالة دخيلة على حياتهم وحياتها، وباتت أكثر انزواء، تستدعي كل يوم أمها في أحلامها وتحدثها عن خوفها من هذه المرأة، والذي زاد عندما أنجبت ولدًا جديدًا، أصبح لهالة أخ ليس من أمها، استغربتْ أن يكون لها أخ لم تلده أمها. لم تلبث أن ولدت زوجة أبيها أختًا أخرى لها. شعرت هالة أنهم حلّوا مكانها في البيت، باتت أكثر انعزالًا وأكثر خضوعًا حتى لا تستفز زوجة أبيها وتعاملها بالكثير من التمييز. لم تمارس نجية التمييز ضد هالة، وإذا حصل بعض الحوادث فهو بغير قصدها وفي لاوعيها، لكن إحساس التمييز بقي يلازم هالة طوال الوقت. كانت نجية تستغرب هذه الكراهية من الطفلة، وكلما حاولت احتضانها نفرت منها، وهو ما جعلها تتعامل معها بالكثير من الحذر، مما زاد من خوف هالة. لم ينكسر الخوف يومًا، وهالة التي ستسافر إلى الولايات المتحدة، رفضت الذهاب إلى حماة من أجل وداعها، رغم أن كل إخوتها يعتبرون أن زوجة أبيهم لم تُقصر في حقهم، صحيح أنها لم تكن ملاكًا، لكنها لم تكن امرأة سيئة. هذه الصورة لم تقنع هالة، التي أصرّت على أن هذه المرأة هي السبب في دمار حياتها، وتحولها إلى طفلة انعزالية، طبعت الانعزالية حياتها كلها.

المدرسة هي المكان الوحيد الذي أراحها، وفي البيت تقضي بقية يومها تراجع دروسها، تحاول طوال الوقت أن تفعل ما تريده زوجة أبيها حتى لا تتعرض للعقاب، مع أنها لم تعاقبها ولا مرة، وكانت تشتكيها إلى أبيها إذا أرادت أن تحتج على فعل قامت هالة به. كانت تحسب حسابًا لكل شيء يخصها، عندما وجدتها خالتها تضع يديها بين فخذيها وهي في الصف السادس، قالت لها: «لا تضعي يديك هنا، عيب». سحبت هالة يديها من بين فخذيها مذعورة. خافت أن تسأل زوجة أبيها عن معنى كلامها، لكنها لم تعد تقترب من تلك المنطقة، سوى في الحمام وبحذر شديد، تغسلها بسرعة لأنها كلما قرّبت يدها من تلك المنطقة أصابها الخوف، الذي كانت ترغب في الخلاص منه، فتغسل المنطقة بسرعة، وتخاف أن تسمّيها باسمها. عندما صحت من نومها بعد عام من تحذير خالتها والدماء تغطي ملابسها في تلك المنطقة، لم تعرف ماذا تفعل، لقد تحققت نبوءة زوجة أبيها، وهي لم تعد بنتًا، رغم أنها منذ قالت لها نجية: «لا تضعي يديك بين فخذيك». لم تفعل. فكّرت: «ربما وضعت يدي في تلك المنطقة وأنا نائمة، حتى حصل ما حصل». عندما حصل ذلك كانت هدى قد تزوجت من محمد الفايز المحامي قريبهم من بعيد، وغادرت المنزل لتعيش معه

في دمشـق، وفـداء غـادرت للدراسـة في دمشـق أيضًـا. لـم تسـتطع أن تقـول أي شـيء لأخيهـا عـادل الـذي يكبرهـا بـثلاث سـنوات ولا لأخويها الأكبر، ولـم تعرف ما الذي تقوله لأبيها، ولا تعرف ما الذي حصل معها. ذهبت إلـى الحمـام. غيّـرت ملابسـها، حاولـت إخفـاء ملابسها الملوثة بين الملابس الأخرى. بعـد قليـل، عـادت للاتّسـاخ مـن جديـد، عـادت ودخلـت الحمـام وغيرتهـا. انتبهـت نجيـة إلـى الارتباك والخوف والهلع غيـر المسبوق الـذي أصـاب هالـة والـذي وصل لدرجة الارتجاف. ذهبت إلـى الحمـام بعـد أن خرجـت هالـة منه، شاهدتها هالة تدخل إلى الحمام، اشتد خوفها وازداد ارتجافها، ذهبت إلى زاويتها في الغرفة، مثّلت أنها نائمة. فتشت نجيـة الغسـيل، وشاهدت ملابس هالة الملوثة بدم الطمث. حزنت على الفتـاة التـي لا تعـرف مـا يجـري معهـا، والتـي خافـت أن تسـألها عمّـا أصـابها. أحضرت من غرفتها علبه الفوط النسائية خاصتها، ذهبت إلى الغرفة التي تنام فيهـا هالـة. عنـدما انفـتح البـاب خمّنـت أن زوجـة أبيهـا قـد عرفت أنها وسّختْ ملابسها، وهي تنزف لسبب تعرفه وحذّرتها منه. ربتـت نجيـة علـى كتـف هالـة المدعيـة النـوم، بقيـت علـى ذات الوضعية، عادت نجية وربتت على كتفهـا مـن جديـد وقالـت: «هالـة قـومي، أريـدك في موضـوع». عنـدما سـمعت هالـة هـذه الكلمـات

تأكـدت شـكوكُها، دارت ناحيتهـا بتثاقـل والخـوف الـذي يُظهـر علاماته الصفراء على وجهها، يكـاد يقتلهـا. ابتسـمت نجيـة وقالـت: «لا تخافي، كل البنات يحصل معهن الذي حصل معك». لم تطمئن هالـة إلـى كلمـات نجيـة، واعتـبرت أن هـذا الوجـه البشـوش يخفـي مكيدة ما. مدت نجيـة يـدها التـي تحمـل بهـا الفـوط النسـائية باتجاه هالـة، لـم تمـد هالـة يـدها، فوضـعت نجيـة علبـة المحـارم أمامهـا، وقالت لها: «إنها العـادة الشـهرية، سـوف تأتيـك كـل شـهر عـدة أيـام تنغص عليك حياتك». ضحكت نجية وغادرت الغرفـة، لتـترك هالـة تعالج نفسها بنفسها. عنـدما سـمعت هالـة كلمـات نجيـة أدركـت مـا يحصل معهـا، هنـاك عـدد مـن صـديقاتها قـد أتـاهنّ الطمـث، ولكـن لماذا لم تتوقع أن يأتيها هي؟ ولماذا عندما أتاها لم تعرفه؟ كانـت في حيـرة مـن أمرهـا. أخرجـت فوطـة مـن الكـيس الـذي وضـعته نجيـة أمامها وذهبت إلـى الحمـام. أخـذت تفكـر كيـف تستعملها؟ قلّبتهـا علـى وجهيهـا، جربـت عـدة أوضـاع حتـى عرفـت كيـف تُسـتخدم، وضـعتها بـين فخـذيها ولبسـت فوقهـا كيلوتًـا نظيفًـا، عنـدما مشـت شعرت أن الفوطة كبيرة جدًا وتعيقها عـن المشـي، ولكـن لـم يمـضِ اليوم إلا وكانت قد تعودت عليها ونسيتها.

كان الطمث تجربة مرعبة لهالة، لم يكن يوازي رعبها ذلك، سوى صوت الانفجاريات وأصوات إطلاق الرصاص التي كانت تغطي مدينة حماة قبل عامين من طمثها. لم تفهم لماذا تجري الحرب في مدينتها، ولا من هم أطرافها، كانت تعرف أن عليها أن تبقى حذرة، وأن تتجنب النظر إلى السيارات التي يقف مسلحون إلى جانبها بلباس مدني، وعرفت أن هؤلاء من المخابرات. أما أولئك الذين يلبسون الثياب العسكرية المموهة، والذين يحتلون العديد من الأماكن في المدينة فهم من الجيش. عندما اشتدت الحرب في مدينتهم غادروها جميعًا إلى دمشق، التي كانت أكثر أمنًا من حماة، ولم يعودوا إلى تلك المدينة، إلا بعد أن انتهت الاشتباكات، التي لم تعرف من الأحاديث التي تدور حولها، سوى أنها كانت بين الجيش والمخابرات من جهة و«الإخوان المسلمين» من جهة أخرى، وكانت تعتقد أن هؤلاء جيش آخر. ولم تكن تفهم على ماذا تدور هذه الحرب! عرفت من الأحاديث أن جزءًا من المدينة قد دمرته تلك الحرب. عندما عادت لم تنتبه إلى الدمار، ما صعقها أكثر من الدمار، أن المقبرة التي يوجد فيها قبر والدتها لم تعد موجودة، لقد تم تجريفها دون رحمة، لأنه اختبأ فيها بعض مقاتلي «الإخوان المسلمين». كما عرفت في ما بعد، وعرفت أن كل

الأماكن التي تواجد فيها هؤلاء قد تم تدميرها في وسط المدينة القديمة. عندما أحصت خسارتها كانت قد فقدت قبر أمها، لم تعد تستطيع زيارته في الأعياد، حزنت وكأنها فقدت والدتها من جديد. وفقدت حنان صديقتها وجارتها ورفيقتها في المدرسة، التي كان قلبها يتقطع عليها، بعد أن اعتقلوا والدها بتهمة الانتماء للإخوان المسلمين، ولم يعرفوا عنه شيئًا، وبعدها لم تعد حنان تلك الفتاة التي تعرفها. دخلت في مرحلة كآبة شديدة عندما أبلغتهم المخابرات أن والدها قد توفي في السجن، فما كان من العائلة إلا أن احتضنتهم، حيث تزوج عمها من والدتها حفاظًا على الأسرة وأنجب من زوجة أخيه أولادًا آخرين، كان ذلك أهون الشرور. لكن أهون الشرور، تحول إلى كارثة دمرت العائلة كلها، ليس صديقتها وحسب، عندما تبين بعد عشرين عامًا، أن والدها لم يُتوفَّ في السجن، وأطلق سراحه، ليجدوه فجأة يقف أمامهم قادمًا من الموت، ليدمر بوجوده العائلة الصغيرة والكبيرة. تمنى في تلك اللحظات أن يكون قد مات فعلًا، وتمنت العائلة أنْ يكون قد مات، شتموا المخابرات التي أبلغتهم بوفاته الكاذبة، شتموا الدولة التي أذلتهم وأهانتهم، ولكن ما جرى لم يعد من الممكن التراجع عنه، جرح نازف يوميًا في الخاصرة، جنّت حنان من هول الصدمة،

تشتَّتَت العائلة، لم يَلُمْهم أحد، لكنهم لم يستطيعوا تحمل ما جرى، بعضهم غادر البلد نهائيًا، وبعضهم غادر إلى محافظات أخرى، بقيت تلك اللعنة تلاحقهم في كل مكان ذهبوا إليه، رغم أنهم لم يرتكبوا أي ذنب. عندما تفكر هالة في صديقتها وما آلت إليه حياتها من خراب وجنون، يقشعر جسدها، كانت تُخفِّف عن نفسها وتقول: خسرت قبر أمي، أما الآخرون، فقد خسروا أهلًا وأحباء أحياء، لكن عندما فكّرت أن ذلك كان يمكن أن يكون مصيرها، ارتعدت من جديد.

هزت هالة رأسها بعنف لتطرد ذكرى صديقتها، التي كلما تذكرت ما حصل لها تجد نفسها ترتعد، وعندما ترويه لأي شخص كانت تبكي، كأنها تسمع القصة لأول مرة، مع أنها هي التي ترويها. تذكرت صديقتها فاقدة العقل التي لم تعد تتعرف عليها، كلما رأتها في الطريق، ترتعب من عيونها التائهة غير القادرة على التعرف على صديقة عمرها، أدارت وجهها وبكت كأنها تشاهدها في تلك اللحظات، أخذت هالة تبكي من جديد. التفتت إلى الرجل الذي يجلس إلى جوارها في الطائرة التي حلّقت قبل قليل في سماء دمشق، لتعرف هل شاهد دموعها، وجدته غارقًا في النوم، حسدته لأنه قادر على النوم في السفر. خمنتْ أنه لا يعاني مشاكل، طالما يستطيع أن

ينام بهذا العمق وبهذه السرعة. التفتت باتجاه نافذة الطائرة التي تجلس إلى جوارها، حدقت طويلًا في الفراغ الممتد أمامها، عادت لها ذكريات حنان من جديد، هزت رأسها بعنف لتطرد تلك الذكريات. حاولت بإرادتها أن تتذكر ذكريات أخرى، لتخرج من الحالة التي وجدت نفسها عليها. أغمضت عينيها فأطلت عليها حنان من العتمة، فتحت عينيها بأقصى ما تستطيع، وكأنها تحاول إخراج حنان منهما.

عادت هالة لتجول في ذاكرتها، لعلها تجد الذكرى السعيدة التي تبحث عنها، أغمضت عينيها من جديد، بحثت في رأسها، لكنها لم تجد شيئًا. لأن الذكريات الأليمة تجر أخرى أليمة، وجدت نفسها تفكر بحسني فاضل. تذكرت علاقتهما التي تعود إلى عشر سنوات سابقة، تعرّفت عليه عندما التحقت مدرَّبة بمهنة المحاماة، الصدفة جمعتهما بسبب دعوى بين أستاذها وبينه. عندما ألقى عليها السلام أول مرة أصابها الخوف، شاهد خوفها في ارتباكها، فقال لها بكل الود: «يا أستاذة نحن خصمان في الدعوى، ولسنا خصمين في الحياة». لم ترد على كلماته، الخوف عقد لسانها، استغرب خوفها الظاهر، وحتى لا يحرجها أكثر تركها أمام باب المحكمة وسار في طريقه. عندما فكّرت في كلامه وجدته منطقيًا ولامت نفسها على طريقة تصرفها معه. أعادت

النظر في الكلام الذي كان يقوله لها محمد الفايز أستاذها في التمرين وزوج أختها وطريقة تعامله مع المحامين الآخرين، باعتبارهم أعداء، نصابين ومحتالين، وهو المحامي الوحيد الذي على حق في سوريا. اكتشفت لاحقًا أنه لا يقول هذا على اعتبار أنها قناعته فحسب، بل يقوله لأنه يريد أن يبعدها عن الرجال الآخرين سواء كانوا محامين أو غير ذلك. منذ ذلك الوقت لم تعد تأخذ كلام أستاذها وتحذيراته على محمل الجد، بل باتت تسأل وتستشير غيره في قضاياها، ولا تسأله. سريعًا ما تحول حسني من خصم في دعوى إلى صديق، كانت تحتاجه أكثر من أي أحد آخر، وهو يحتاجها صديقة أكثر من أي شخص آخر. لقد وجدته في الزمن الضروري، كان التناقض صارخًا في علاقتهما، هي الفتاة المتدينة المحجبة الملتزمة بالفروض الدينية، وهو اليساري الذي حلم بمجتمع أكثر عدالة، فدفع ثمن حلمه عشر سنوات قاسية ساح فيها في سجون متعددة. لم يخفِ عليها يساريّته، كان يمازحها عندما يقفان معًا ويقول لها: «أنت تخرّبين هويتي الأيديولوجية». لم تفهم الكلمات أول مرة، بل اعتبرتها شتيمة، فتضايقت منها بشدة، وكادت تطيح بالعلاقة الجديدة بينهما، وعندما فهمتها لم يكن ضيقها أقل، بل بقيت تكره هذه الكلمات، وهو سريعًا ما كفّ عن تردادها.

حسـني يكبرهـا بـاثنتي عشـرة سـنة، عشـية اعتقالـه تـزوج مـن صديقته ورفيقة عمره هيام سـالم. تركهـا حـاملًا، احتفظـت بـالجنين وفاء لحبهما، وأسمته «نضـال». كمـا رغـب حسـني بتسـميته، عنـدما اعتقـل لـم يعـرف أنهـا حامـل. بقيـت الزيـارة ممنوعـة عنـه لسـنوات، وحين سمحوا بها بعد ثلاث سنوات من سـجنه، أبلغتـه والدتـه التـي كانت أول شخص زاره في سـجن تـدمر بعـد العديـد مـن الواسـطات ودفع ثروة من المال، بأن ابنه الذي ولد قبـل أكثـر مـن عـامين يشـبهه تمامًا وبأنهم أسموه نضال كما كان يرغب. عندما سمع كلمات أمـه، لم يعرف هل يفرح لذلك أم يحزن. فكّر طـويلًا في سـجنه، بـأن هيـام لـم تكـن مضـطرة للاحتفـاظ بـالجنين، لـو اسـتطاعت أن تسـأله رأيـه وهو في بداية سجنه، لما تردد في أن يقـول لهـا: لا تحتفظـي بـه، لـيس من العدل أن تربطي مصيرك بمصير شخص مجهـول المصـير، كـان محكومًا عليه بحياة مدمرة داخل السجن، ولكن ليس علـى هيـام أن تدمر حياتها، وأن تسجن نفسها معه وهي خارج قضبان السـجن. لـم يفكر بهذه الطريقة لأنه لا يحب هيام، على العكس، لأنه يحبهـا فكّـر هكـذا، فلـم يكـن يعـرف هـل سـيخرج مـن السـجن أم لا، وإذا كـان سيخرج كم من السنوات سيقضي وراء القضبان؟ عندما زارتـه هيـام لأول مرة بعد سنتين من زيارة والدته، لم يسـتطع أن يخفـي دموعـه،

اعتقدتْ أنها دموع الفرح بلقائها، بكت هي فعلًا دموع الفرح على رؤيته من جديد بعد أربع سنوات، كان أكثر هزالًا وشحوبًا من آخر صورة تذكرها له، ولكنه بالنسبة لها كان أكثر جمالًا، بكت فرحًا من كل قلبها، حدثته عن طفل الحب الذي أسمته «نضال».. بكى فرحًا برؤيتها أيضًا، لكنه بكى حزنًا عليها، ازداد جمالها فعلًا لا بفعل الشوق كما تراه هي، فهو لم يرها جميلة كما رآها في تلك اللحظات، شاهد نورًا يحيط بوجهها الذي ازدادت ملامحه دقة وتناسقًا، كانت تحدثه وكان يغيب عنها، وعندما قالت له: «أحبك». سقط قلبه، فكّر بما فعله بها وبما فعلته بنفسها، وأي عمر ذرفته وهو في سجنه، لم يستطع أن يقول لها ما يفكر به، ولم يقل لها هذا الكلام بعد ذلك. شعر بالذنب، شعر بأنه ارتكب جريمة بحق هيام عندما تزوج منها، كان يعرف أنه يمكن أن يعتقل في أي لحظة، وسأل نفسه وهي تتقافز فرحة أمامه، أما كنت أستطيع تجنيب هذا الملاك الذي يتقافز أمامي هذه التجربة القاسية؟! أجاب بينه وبين نفسه «نعم كنت أستطيع». شعر نفسه أنانيًا ومجرمًا بحقها، تمنى أن يحرّرها منه في تلك اللحظات، لكنه جبن. كانت الزيارة كارثة عليه تمنى لو لم تحصل، اكتأب طوال الفترة اللاحقة للزيارة، حاول زملاؤه إخراجه من تلك الحالة، لم ينجحوا، لم يستطع أن يخبر أحدًا بما

يفكر به، سكنت صورة هيام المتقافزة مخيلته. جميلة، بريئة، محبة، سعيدة بجرحها، ذبحته الصورة من الوريد إلى الوريد. في تلك اللحظات اكتشف أن السجن ليس حجزًا للحرية، بقدر ما هو انتهاك للحياة، ولأنه انتهاك يدمر روحه من الداخل ويحطم أعماقه. أما السجن كحجز للحرية، فهو يحبس جسده، ولكنه لا يستطيع الوصول إلى روحه وأحلامه. كانت قسوة الزيارة أكبر مما توقع، وكان إحساسه بالدمار يسحقه. حاول الهروب إلى القراءة، لم يرَ الكلمات أمامه، هربت لتحتل مكانها صورة هيام المتقافزة مكانها.

في المرة الوحيدة التي تحدث فيها لهالة عن تجربته في السجن، شعرت بقشعريرة تخترق ظهرها، وسكنت المرارة حلقها، شعرت بأنها بحاجة إلى احتضانه، قدرت أن الاحتضان يخفف من خوفها، ليس منه، بل مما مرّ به، ومما مرّت به في طفولتها. شعرت أن شيئًا غامضًا يشدها إليه، وأصبحت كلما شاهدته، تشعر برغبة في احتضانه، ولكنها كانت تجبن عن فعل ذلك. كره الحديث عن السجن، قال لها ذلك، فحديث السجن يزعجه، ويجعله يرتعد، ويستغرب كيف تحمّل كل ما مرّ عليه من خوف وقسوة ورعب، قال لها: «لو كنت أعرف التجربة التي سأمرّ بها في السجن، لانتحرت قبل أنْ يعتقلوني». خافت عليه أكثر، فخلال كل السنوات

التي عرفته فيها، لم يحدثها عن السجن، سوى مرة واحدة، قبل أشهر من هذه الرحلة اللعينة إلى نيويورك وبعد خصومة امتدت لأشهر. بعد ذلك الحديث، أصبحت تقضي كل الوقت الممكن معه، وعندما يكون بعيدًا عنها، كان لزامًا عليها أن تتصل به، لم تكن تعرف النوم قبل أن تسمع صوته، أصبح يخترق حياتها في كل تفصيل، وبات يحتل كل مكان في المنزل، وعندما تحتاج أي شيء، كانت تتصل به لا شعوريًا، وعندما تشعر بضيق في نفسها، لا يخرجها من حالتها سواه. عندما انتبهت إلى أي درجة هي متعلقة به، كانت قد غرقت تمامًا في علاقة لم تجد لها أي تفسير. هي تعرف علاقته بزوجته، وتعرف أي معاناة مرّت بها في الانتظار الطويل والثقيل في سنوات سجنه الطويلة، وأي أحلام حلمتها بتحريره من سجنه وعودته إلى المنزل ليحتضنها ويحتضن ابنه الذي يكبر بعيدًا عن والده، كان كل حياتها، وكانت كل حياته، السجن قرَّبهما أكثر من أي وقت قبل سجنه، صحيح أنهما يعيشان في مكانين مختلفين، لكنّهما كانا يفكران ببعضهما البعض أكثر من أي شيء آخر، كانت تحتله في سجنه، وكان يحتل حياتها وهي بعيدة عنه تفصلها عنه جدران السجن. في كثير من لحظات ضعفها بكت هيام، بكت من ظروفها ومن قهرها، لم تندم يومًا على ما فعلت، ولم تفكر يومًا في

التخلـي عـن حسـني في سـجنه. أصـرّت علـى خـوض معركتهـا، وأصرّت على ألّا تخسرها، وبقيت فيها حتى النهاية.

كلمـا شـعرت هالـة أنهـا أكثـر قربًـا مـن حسـني خـلال سـنوات معرفتها له، شعرت بنفسها دخيلة على عالمـه، وتسـأل نفسـها: «مـن أكون بالنسبة له؟». وعندما سألت نفسها: «من يكون بالنسـبة لـي؟». أجابت نفسها جوابًا غامضًا «إنه شخص مهم». وعندما قالت له هذه الجملة، ضحك مـن قلبـه، قالتهـا بشـكل يـوحي بـأن مـا تقولـه شـيءٌ خطير، في الوقت الذي لـم تحمـل لـه هـذه الكلمـات أي معنـى، قـال وهـو يضـحك: «أنـت مخطئـة، أنـا لـم أكـن يومًـا شخصًـا مهمًـا، ولا أرغب في أن أكون». ارتبكت من إجابته، آخر ما كانت تقصده هو مـا فهمه من كلماتها. لم تستطع أن تضيف: «إنك مهم بالنسبة لي». لأن هذه الكلمات تحمل معانيَ مفهومة لا تريدها أن تصل، كانت تعمـل على إخفاء كل التعابير التي يمكن أن تكشف المشاعر الغامضة التي تحملهـا تجاهـه. عنـدما تشـجعت وسـألته: «كيـف تنظـر إلـيّ؟». لـم يفاجئه السؤال، وكان قد فكّر فيه عشـرات المـرات، حـاول أن يفسـر العلاقة بينهمـا، وأن يفهـم مـدى القـوة التـي وصـلت إليهـا، لـم يجـد تفسيرًا ولـم يفهم. لكن عندما سألته وجد نفسـه يجيـب ومـن دون أن يفكـر في الجـواب: «أشـعر بأنـك جـزء مـن روحـي». هزتهـا الإجابـة

واضطرب جسدها، ولم تعد تعرف أين تذهب بعيونها. شعرت بنفسها عارية ومكشوفة تمامًا عندما حدّق بها مباشرة، ازداد ارتباكها، حاولت أن تهرب من عينيه المحدّقتين بها، دون أن تنجح. كان مطعم الشاميات بالقرب من ساحة النجمة في مدينة دمشق الذي يفطران فيه عندما قال لها تلك الكلمات، أضيق من أن يسمح لها بالهروب من نظراته الفاحصة، شيء ما ولد في تلك اللحظات، خافت منه، لكنه ولّد نوعًا من التواطؤ بينهما. لحظتها اكتشفا، أن العلاقة بينهما أعقد وأقوى من أن تُعرَّف، وإذا أرادا أن يُعرّفاها، فستنطبق عليها كلمة واحدة لا يريدان استخدامها، لأن لفظها ذاته سيجعل هذه العلاقة تذهب في طريق المجهول، ولأنهما يريدان استمرارها بأي ثمن، بقي هذا التواطؤ قائمًا لسنوات طويلة. مع الوقت أصبحت العلاقة غير محمولة بالنسبة لها، باتت تعتمد عليه في كل شيء، تسأله عما تأكل، وهو الذي يختار ملابسها، تجد نفسها طوال الوقت برفقته، وعندما يفترقان تشعر بالحزن، ويحرقها الشوق إليه، تجد نفسها لا تتحدث إلا عنه، تغار عليه عندما تجده يتحدث مع إحدى النساء، حتى أنها تغار عليه عندما يتحدث عن زوجته، فتأكل نفسها وتتحول إلى عصبية، وعندما يخطئ ويناديها باسم زوجته هيام، يجنّ جنونها، تسبُّ وتلعن، وتقول بعصبية: «أنا

اسمي هالة، ما عارف أنا مين!؟». يعتذر منها، لكنها لا تصالحه ببساطة، لأنها تعتبره لا يفكّر إلّا بزوجته طوال الوقت، وهي ليست سوى شيء هامشي في حياته، وهو ما يدفعها إلى الجنون. عندما تلمس يده ثديها صدفة تشعر بالإثارة وتبلل نفسها، وعندما تصطدم يده بمؤخرتها تشعر بالدوار، وعندما يركبان المواصلات العامة ويتلاصق جسداهما، ترتفع حرارتها لتصل إلى السماء، وعندما يحتكّ الجسدان تدير وجهها عنه باتجاه زجاج النافذة، تغمض عينيها وتشعر بالنشوة. حلمت به دائمًا، عاريًا في سريرها، يخترقها بقوة، آهاتها تصل السماء، تطوقه بذراعيها، تمسك به بقوة وتشده إلى صدرها، ويدهشها كم يسبب لها الاختراق من الألم واللذة، تحلّق في آفاق مذهلة. وهي تقول له: «كمان، كمان، لا تتركني، كمان... كمان...». عندما تصحو على حلمها تجد نفسها مبللة بطريقة غريبة لم تعرفها من قبل، تعجب من أين تأتي كل هذه السوائل. أزعجتها هذه الأحلام لأنها كانت تفسد عليها صلواتها الصباحية، لم تشعر بالذنب لأن الحلم يأتيها رغمًا عنها، وتعتبره منحة من الله لها، وهو ما يُشعرها بالرضى والاكتفاء طوال يوم تصحو فيه من حلم تمارس فيه الجنس مع حسني، فهو مجرد حلم لذيذ، لم تعرفه في الواقع، فلا شيء يمنعها من التمتع به في أحلامها.

يستمر إحساسها بالمتعة والإثارة، حتى إحساسها بأن قضيبه داخلها وبثقله اللذيذ فوقها يبقى مرافقًا لها طوال النهار. عندما تكرر الحلم في فترات متقاربة، اعتبرت ذلك دليل ضعف لا يجب السماح به، لقد وصلت إلى درجة من التعلق بحسني لم تعد محتملة، وجدت نفسها تغرق في هذه العلاقة ولا تعرف ماذا تفعل، قررت الكثير من القرارات التي تجعلها تبتعد عنه، لم تجد نفسها قادرة على تنفيذها. افتعلت معه المشاكل وتخاصَما، واعتبرت أن ذلك نهاية العلاقة، لم ينجح ذلك، فهي تجد نفسها تسارع بعد أيام لمصالحته. سألت نفسها، ماذا يشدها إلى هذا الرجل، وما الذي يعلقها به إلى هذه الدرجة؟ لم تجد إجابة على سؤالها، عندما تخاصمه تجد نفسها تفكر به أكثر مما تفكر به عندما يكونان متصالحين. حاولت أحيانًا رمي التفكير بالعلاقة معه وراءها، فوجدت نفسها تفكر به أكثر من السابق، في نهاية المطاف، استسلمت. قالت لنفسها: «يبدو أنه ليس هناك من خيار سوى ترك الموضوع للزمن». هكذا أقنعت نفسها، لكنها في حقيقة الأمر كانت مشوشة تجاه هذه العلاقة التي أتعبتها دون أنْ تعرف هل تريد فعلًا الخلاص منها، أم تريد أنْ تحافظ عليها مهما كان الثمن؟ لم تكن تستطيع التفكير به كزوج، لأنها تعرف حجم المعاناة التي عانتها زوجته هيام في انتظاره عشر سنوات وهو

في سجنه، وهو لم يشكُ يومًا منها، كان أسير تضحيتها التي لا يمكنه أن يشيح وجهَه عنها، فوجد نفسه أسير حب هيام وتضحيتها بشبابها من أجله. هذا جعل هالة تقتنع أن هذا الرجل ليس لها في نهاية المطاف، رغم كل التعلق به، ورغم تفكيرها الدائم به، شعرت أنها دخيلة على علاقته بزوجته. عندما تعرّفت عليها، لم تكن قادرة على النظر في عينيها، تحدثت معها وتجنبت النظر إليها، كأنها خائفة من أن تقرأ هيام ما في داخلها من مشاعر تجاهه عبر عينيها. منذ اللحظة التي دخلت فيها بيتهما أدركت أنها ذهبت إلى المكان الخطأ. شعرت أنه لم يكن عليها أن تتهوّر وتُقدم على هكذا خطوة تعرف مخاطرها مسبقًا. كان فضولها أقوى منها، رغبتها الجامحة بالتعرف على هذه المرأة أقوى من حذرها. رسمت لها صورة أسطورية تقارب الخيال وتحلق في السماء، نموذجًا للتضحية وإنكارًا للذات، من خلال ما عرفته عنها من أحاديث حسني. كانت تحتاج أن تُنزلها من السماء إلى الأرض، تحولها من أسطورة إلى امرأة من لحم ودم. تصورت أشكالًا مختلفة لهذه المرأة التي تعجبها وتحترمها، وفي الوقت نفسه تكرهها وتشعر بالغيرة الشديدة منها، حملت كل هذه المشاعر المتناقضة تجاه هذه المرأة، التي تشعر أنها ترتكب جريمة بحقها، رغم ذلك وجدت نفسها مدفوعة لزيارتها.

عندما التقتا ظهر الارتباك واضحًا على هالة، مدت يدها بفتور إلى هيام التي صافحتها بحرارة، انتبهت إلى ارتباكها، حاولت تبديد هذا الارتباك فقالت لها: «البيت بيتك، لا داعي للخجل، حكى لي حسني عنك كثيرًا، حتى أنه لا سيرة له غير سيرتك». عندما سمعت كلماتها شعرت بتيار كهربائي يخترق جسدها، وعندما جلست شعرت أنها تجلس على الجمر. سألت نفسها: «ما الذي حكاه حسني عني لها؟!». أخذتها أفكارها بعيدًا، وجدت نفسها شاردة، هل يمكن أن تكون استنتجت أي شيء من أقوال حسني؟ هل تشك أن هناك أي علاقة بيننا؟ هل تنظر إليّ نظرة سلبية؟ سألت نفسها كل هذه الأسئلة. عندما فكّرت بكلام هيام، لم تجده كلامًا ملغومًا، تعامُل هيام ببساطة، لم يُشعرها بالراحة. قلقت هالة وشعرت أن هيام تعمل على اصطيادها ومعرفة حقيقة علاقتها بحسني. «يبدو أني لم أعجبك». قالت هيام مازحة. انتفضت هالة في مكانها وحاولت الاعتذار أكثر من مرة، ما زاد في ارتباكها الذي أرجعته هيام إلى دخولها بيتهم لأول مرة. تماسكت بمساعدة حسني من خلال فتح أحاديث مشتركة، ضغطت على نفسها من أجل أن تمر الحماقة التي ارتكبتها بهذه الزيارة. لقد صدمتها صورة هيام، توقعتها بكل الأشكال، إلا بالصورة التي وجدتها عليها، امرأة

جميلـة، متوسـطة الطـول، نحيفـة بـوركين عريضـين دون بشـاعة، يعطيهـا الجينـز الضـيق الـذي تلبسـه تناسـقًا محببًـا، وجههـا طفـولي بملامـح دقيقـة، عينـان واسـعتان، تنظـران نظـرة أقـرب إلـى الدهشـة البريئة، عندما تضحك تغمضان كعيني طفل صغير، لباسـها في غايـة البساطة، بنطال من الجينز الأزرق وبلوزة قطنية بيضـاء علـى مقـاس جسدها. تبدو أصغر من عمرها بعدة سنوات، ومقارنة بحسني الذي حفر السجن على وجهه علاماته، يمكن للنـاظر أن يعتقـد أنهـا ابنتـه، أو في أحسن الحالات أخته الصغيرة، لم يكن أحد يستطيع أن يقـدر إذا ما شاهدهما لأول مرة أنهما زوجـان. لقـد صـعقتها صـورة هيـام، وهذا الوجه الطفولي زاد من إحساسها بالذنب تجاه هذه المرأة التي لم تؤذها بأي شيء. وما زاد من إحساسها بالـذنب، ولـداهما اللـذان يفصل بينهمـا أكثـر مـن عشـر سـنوات، هـي سـنوات سـجن حسـني، الولد الذي أصبح شابًا له الكثير من ملامح والـده، والبنـت الصـغيرة نسـخت ملامـح أمهـا وبراءتهـا وهـدوءها. بـدت أسـرة سـعيدة ومتفاهمـة، أسـرة نموذجيـة، في تلـك اللحظـة شـعرت هالـة كـم هـي غريبة، وعندما انتهت الزيارة كانت مدمَّرة تمامًا.

كانـت الزيـارة كارثـة عليهـا، فضـولها دفعهـا لارتكـاب هـذه الحماقـة التـي لـم يكـن لهـا لـزوم. سـألت نفسـها: «مـا الـذي كنـت

تتوقعينه؟». أجابت نفسها: «هل كنت تتوقعين امرأة بشعة وسيئة وأسرة مفككة وأولادًا أسوأ، ما الذي ذهبت للبحث عنه، مدخلًا لتحويل العلاقة إلى مستوى آخر؟، أي خطأ رحت تبحثين عنه حتى تعززي علاقتك بالرجل، لم أكن أعرف من قبل أني بهذا السوء!! كان عليّ أن أقطع علاقتي بهذا الرجل منذ وقت طويل، ما الذي يجعلني أغرق معه في علاقة أعرف سلفًا أنه محكوم عليها بالإعدام؟ عليّ أن أقطع علاقتي به، وهذه آخر مرة أراه فيها». هكذا قرّرت هالة بعد زيارتها الأولى والأخيرة لبيت حسني.

شغلت هالة نفسها بالكثير من القضايا الهامة والسخيفة، حتى أنها ذهبت في زيارة عدة أيام لمدينة حماة، رغم أنها كانت تفتعل الانشغال لنسيان حسني، فكّرت فيه طوال الوقت. زيارة حماة بعد غياب طويل، فرصة للتعرف على المدينة من جديد، ولتعيد التفكير بنفسها وبحياتها، لم تكن سعيدة بما هي عليه، كما لم تكن سعيدة بالحياة التي عاشتها في هذه المدينة التي تكتشف في هذه الزيارة كم هي غريبة عنها، ومهما غابت عنها لن تشتاق لها. استغربت موقفها العدائي من المدينة التي عاشت فيها طفولتها ومراهقتها. كانت تعرف من صديقاتها وزملائها في الجامعة الذين جاءوا من محافظات بعيدة كم يشتاقون إلى أماكن سكناهم التي أتوا منها.

كانت تعتبر أن شوقهم نابع من أن بلداتهم ومدنهم أجمل من دمشق، وعندما زارت بعض الأماكن التي تحدث أصدقاؤها عنها بشوق شديد، اكتشفت أن ذلك لا يعود لجمال المكان، بل يعود إلى حبهم لطفولتهم ومراهقتهم الأولى. هناك بلدات بائسة جماليًا وفقيرة، لكن زملاءها القادمين منها تحدثوا عنها بعشق. في وادي العيون أثناء الرحلة الجامعية، روى أحد زملائها وهو يشير إلى شجرة كبيرة: «سقطت عن هذه الشجرة وكسرت يدي وعمري عشر سنوات، لكني قبل أن انزع الجبس عن يدي عدت للتسلق عليها». وروى آخر عن اللاذقية: «ضيّعتُ أبي في المدينة لقد سحرتني الأضواء، فوجدت نفسي أسيرُ في سحرها، دون أن أنتبه إلى أني لوحدي، سألني الناس عن اسمي وأخذوني إلى مخفر الشرطة، وأنا مذهول، وعندما وجدني أبي بعد ساعات من ضياعي، رأيت القلق والخوف في عينيه، توقعت أن يصفعني، ولكنه احتضنني وبكى، كانت هذه أول مرة وآخر مرة أشاهد فيها أبي يبكي، بقيت اللحظة مطبوعة في ذاكرتي وكأنها حصلت منذ قليل، لقد غيرت تلك اللحظة نظرتي إلى أبي إلى الأبد». روى آخرُ من دير الزور: «كنت أسير في نومي وأنا صغير، ولأن أهلي يعرفون ذلك كانوا يقفلون الباب الخارجي، وهذا لم يمنع أنْ ينسوه في بعض الأحيان. حدث مرة أنْ

مشيت في نومي وكان الباب مفتوحًا، بقيت أمشي لساعات دون أنْ أدري، وعندما وصلت إلى نهر الفرات، خلعت ملابسي، وقفزت في الماء، عند ذلك صحوت ولم أعرف أين أنا، أخذت أبكي. وجدني رجل وسألني عما أفعل في الليل، فقلت له إني ضائع، وحددت له مكان سكني. أخذني إلى بيته، كنت خائفًا جدًا، حاولت زوجته تهدئتي، ولكني بكيت حتى تعبت ونمت، في الصباح أيقظتني المرأة، وصنعت لي فطورًا بسيطًا، بعض الجبن والزيتون. عندما صحوت عدت إلى خوفي، وعندما أوصلني الرجل إلى أهلي، هجم علي أبي ليضربني، نهره الرجل، وقال: الولد في حمايتي. فتراجع أبي، ولكن في أول فرصة ضربني ضربًا مبرحًا، رغم أن السبب لم يكن يستحق ذلك، ولكني عرفت أنها من أجل المرة التي حماني فيها الرجل أكثر منها بسبب الذنب الذي ارتكبته حديثًا». قالت أخرى: «في الطريق إلى المدرسة كان مجنون البلدة ينتظر البنات الذاهبات إلى الثانوية، وكان يقول لجميع الفتيات: «أعطيني بوسة»، كانت البنات ينهرْنه، وكان الأهالي يتسامحون معه لأنه غير مؤذٍ، وعندما قالت له إحدى الفتيات الجريئات، وكانت جادة: «تعال خذ بوسه»، خجل بشدة، ولم يعد يقف للبنات في طريق المدرسة، وأصبح كلما رأى تلك البنت في الطريق، يركض هاربًا منها بفرح

غريب، وبحركات عجيبة وبوجه تكسوه حمرة الخجل، لم يعرف أحد لماذا أقلع عن عادته، ولم يفهم أحد تلك الحركات التي يقوم بها والهروب عندما يراها». سمعت العديد من القصص الأخرى. سألت نفسها: ما القصة التي يمكن أن ترويها عن حماة؟ لم تجد تلك القصة، تركت المجموعة التي تجلس معها وقصصهم وانزوت. لم يكن هناك ما ترويه، لأنها ببساطة لم تحب طفولتها، فلم تجد ما ترويه، وذكرياتها محصورة بين زوجة الأب والأب المريض.

لم يكن ينقص حياتها في حماة سوى مرض أبيها، وإذا كانت زوجة الأب القاسية كما تراها هالة، التي لم تقبل أن يحل أحدٌ مكان والدتها حتى بعد أن كبرت، اعتبرت والدها حاميها من قسوة زوجة الأب. خلال سبع سنوات من زواج أبيها قبل مرضه، أنجب من زوجته ولدًا وبنتًا إضافيين. كانت هالة في الخامسة عشرة من عمرها عندما عادت من المدرسة، وأخبرتها أختها أن والدها سقط في عمله وهو في المشفى. خافت أن يكون ما تقوله أختها تخفيفًا من موت والدها، لأنها عندما ماتت والدتها كانت عائدة من المدرسة أيضًا. يوم موت أمّها لم تكن تدرك معنى الموت، أما اليوم فهي تدرك معناه. شعرت أنها تحتاج والدها كما لم تحتجْه من قبل، ولن

تحتمل فكرة غيابه النهائي. كان قد دخل في غيبوبة. عندما جاءت فداء من دمشق، قالت: إنها مستعدة لنقله إلى دمشق، قال الأطباء لها: ليس هناك من فائدة من نقله، فلن يستطيع أحد أن يفعل له شيئًا وهو في الغيبوبة، كما أن نقله إلى دمشق خطر عليه، لقد أصابته جلطة في الدماغ حسب تشخيص الأطباء. كانت هالة تبكي طوال الوقت، وعندما صحا من غيبوبته، كان قد أصابه شللٌ نصفيٌّ جعله غير قادر على الحركة أو النطق. أصابت الصدمة الجميع، لقد تحوّل إلى شخص عاجز، هذا الرجل الذي لم يشكُ طوال حياته، اليوم لن يشكو لأنه لا يستطيع الشكوى، حتى لو أراد. لقد بكت هالة كما لم تبكِ من قبل، أحبت أباها جدًا دون أنْ تستطيع أنْ تقول له ذلك، تراه كل يوم أمامها عاجزًا عن النطق والحركة. عندما سمعت مرة زوجة أبيها تندب حظها، زادت كراهيتها لها، لأنها اعتبرت ذلك احتجاجًا على مرض أبيها الذي لا يد له فيه. أصبحت معجبة بعيني والدها، فهُما أصبحتا بعد شلله وسيلة تعبيره الوحيدة، إضافة لرعشات جسده. كانت تعرف هل هو حزين أم فرح أم منزعج من عينيه، وتفهم ما تقول عيناه لها. عندما نجحت بالإعدادية بمجموع كبير رغم مرضه الذي شغلها وأبكاها طوال الوقت، كانتا فرحتين، وعندما أخبرته بنتيجتها، شاهدت بريقهما.

شاهدت هزة رأسه وبريق عينيه، فعرفت أنه فرح من أجلها، ولكنها لم تستطع أن تبقى طويلًا أمامه، قبّلت رأسه، ركضت إلى غرفتها وغرقت في البكاء.

مات بعد عشر سنوات من مرضه، حزنتْ عليه وشعرتْ بالراحة من أجله. حزنت لأنها تعلقت به أكثر أثناء مرضه، رغم ما كان يفرضه الوضع الجديد من خدمات تقدمها له عن طيب قلب، كانت تحكي له وتراقب حركات عينيه، عندما ترى الفرح في عينيه، كانت تعتبر نفسها قد أنجزت انجازًا كبيرًا. وعندما لا تستطيع إخراجه من حزنه واكتئابه، تذهب إلى غرفتها وتبكي بعيدًا عنه حتى لا تزيد وضعه سوءًا. شعرت بالراحة لموته، لأنها لم تكن قادرة على الاقتناع بصورة والدها القويّ، الذي تحوّل فجأة إلى رجل مشلول ومقعد. أحبت قوة والدها، وصورة الرجل التي حافظ عليها طوال حياته، مرضه حطمه تمامًا، في الكثير من الأوقات شعرت أن والدها كومة من الحطام، من أجل ذلك شعرت بالراحة لموته. في ذلك الوقت كانت قد غادرت حماة، منذ أكثر من ثلاث سنوات، والدها السبب الوحيد الذي جعلها تعود إلى حماة. فقد قرّرت أنْ تبقى في دمشق بشكل نهائي، فهي لم تعد قادرة على العودة والإقامة في حماة مرة أخرى. شعرت أن مدينة دمشق التي أحبتها، حررتها من مدينة

حماة التي كرهتها. وجدت نفسها في دمشق ليست أكثر حرية فحسب، بل أقل خوفًا أيضًا، سكنها مع أختها فداء التي سبقتهم إلى دمشق بسنوات خفف عنها أعباء كبيرة. لقد أسست فداء حياة مريحة في دمشق، عندما وجدت عملًا لها في المركز الثقافي البريطاني وهي طالبة في الدراسة الجامعية، وهو ما جعلها تتحمل مسؤولية نفسها مبكرًا، لقد سمح لها راتبها المرتفع أنْ تستقل ببيتها وهي طالبة، وقد استقبلت إخوتها الأصغر منها واحدًا وراء الآخر للدراسة في دمشق، كانت هالة آخر إخوتها الأشقاء. تحملت فداء مسؤولية منزل والدها المالية بعد سقوطه صريع المرض، فلم يكن راتبه التقاعدي يكفي أدويته، منذ بداية مرضه قالت فداء: «أنتم عائلتي ولن تحتاجوا أي شيء ولا أي أحد طالما أنا على قيد الحياة». لم تسمح لأي من إخوتها أنْ يترك دراسته. اعتقد الجميع، إخوتها وأخواتها وزوجة أبيها، أن فداء تقول ذلك في لحظة حماسة، وما قالته ستنساه بعد أيام، وتتابع حياتها المريحة هناك في دمشق وتنسى آلام من تركتهم وراءها في حماة، ولكنها التزمت بكل كلمة قالتها.

بعد تخرجها، تحسنت أوضاع فداء كثيرًا، وبعد سنوات من تخرجها ازداد هذا التحسن بعد تركها العمل في المعهد البريطاني،

لتعمل مترجمة فورية. وبحكم العلاقات التي نسجتها في سنوات عملها في المعهد البريطاني، وجدت نفسها تغرق في عملها الجديد وتتنقل من مكان إلى مكان ومن مدينة إلى مدينة. وقد ترافق عملها الجديد مع قدوم هالة للعيش معها في دمشق، فاعتبرت أن هالة فأل حسن عليها. في السنوات السابقة التي كانت فداء تعمل فيها في المعهد البريطاني، عانت من صعوبات مالية في التوفيق بين أجرة بيتها ومصاريفها وبين مصاريف بيت أهلها وإخوتها. لم تكن زوجة أبيها متطلبة، بل على العكس كانت متفهمة ومتعاونة، ما جعل مهمة فداء في السنوات الأولى أيسر مما توقعت، والمساعدات القليلة التي يدفعها الإخوة والأخوات الكبار تخفف من هذا العبء. ولكن عملها الجديد بدأ يدر عليها دخلًا أكبر بكثير من السابق، ما جعلها تخرج من الضيق إلى الوفرة، لم ترفض يومًا طلبًا لأهلها، اعتبرت أن استجابتها لكل هذه الطلبات هي التي تزيد دخلها، وكما كانت تقول: «ذلك بفضل رضا أبي ومحبة إخوتي». عندما تحسن وضعها المالي زادت من مصروف بيت أبيها، واعتبرت أن وقوفها إلى جانب أهلها هو الذي جعل وفرها كبيرًا، ما مكّنها بعد سنوات قليلة من شراء بيت في وسط مدينة دمشق، بالقرب من حديقة السبكي. لم يسمع أحد فداء تشتكي من المسؤوليات التي حَمَّلتها لنفسها، دون

أنْ يُحمّلها لها أحد، حتى أنها لم تشتكِ بينها وبين نفسها، حتى عندما استدانت مصروفات البيت لم تتأفف. اعتبرت أن كل ما هو جيد في حياتها، سببه ما فعلته وتفعله لأبيها وإخوتها، لم تُسمع أي واحد من إخوتها أو أخواتها أي تلميح حول ما قدمته لهم، كانوا يحملون جميلها، دون أنْ تقول أي شيء، لذلك كانت كلمتها مسموعة من الجميع.

عندما وصل هالة وفداء خبر موت والدهما، عجزتا عن الكلام، لم تتبادلا خلال الطريق الطويل إلى مدينة حماة سوى الكلمات القليلة اللازمة، هناك شيء ما خيّم عليهما، فداء مثل هالة تشعر بمشاعر متناقضة تجاه وفاة والدها، ولكن ما يشغلها ليس موت الوالد، ولا إدوارد الذي تركته منذ قليل في دمشق، والذي أتى من أجلها فقط، بل الأوضاع الجديدة بعد هذا الموت، صحيح أن الرجل كان مشلولًا لكن وجوده شكّل الجامع للإخوة. خافت فداء أنْ تتفكك هذه العلاقات، خاصة أن أخاها وأختها من أبيها ما زالا صغيرين، ويحتاجان إلى الرعاية. عندما وصلتا إلى بيت أبيهما في مدينة حماة، جلب صوت القرآن دموعهما، كان بكاؤهما غريبًا، وكلما احتضنهما أناس أكثر زاد البكاء قوة. عندما شاهدت فداء زوجة أبيها توقفت عن البكاء. مسحت عينيها، ونظرت إليها،

شاهدت في عينيها الخوف الذي يغلب حزنها على زوجها، عرفت ما تعاني، من نظرات زوجة أبيها فهمت خوفها، وعرفت أنها محقّة في هذا الخوف، كان سؤالها المخيف، ما مصير ولديّ وما مصيري؟ خيّم السؤال على المكان من دون أنْ تقوله. فهمت فداء ما تعانيه، وعرفت أن موت أبيها المشلول كسر ظهر زوجته، رغم أنه بعد مرضه ظهر وكأنه فائض عن الحاجة، أحسّت بما تشعر به زوجة أبيها من الغربة والخوف. تركت فداء الجميع وذهبت إليها، عانقتها بقوة، وقالت لها: «البقية بحياتك يا أمي». كانت أول مرة تنادي زوجة أبيها بلفظة «أمي». لم يكن ذلك من أجل تهدئتها، بل قصدتها وشعرت بها كما قالتها، لأنها تشعر بالامتنان لهذه المرأة وما قدمته لوالدها والعذاب الذي لاقته بسبب المرض اللعين، حاولت باستخدامها هذه الكلمة أنْ تكسر خوفها وغربتها. لم تكتفِ بذلك، وأضافت فداء: «لن يتغير شيء في هذا البيت، أنت أمُّنا وهؤلاء إخوتنا، وأبونا لن يموت، ولو مات جسده. أعدك أن هذا البيت لن يكون إلا بيتك طالما أنا على قيد الحياة». لم تعلّق نجية على كلام ابنة زوجها، ولكنها غرقت في البكاء وعانقت فداء بقوة.

بعد انتهاء أيام العزاء، جمعت فداء إخوتها، وأخبرتهم بما وعدت به خالتها، وسألت إنْ كان هناك من يعترض على بقاء

الوضع على حاله. لم يعترض أحد رغم أن هناك شفاهًا تقلّبت لاستنكار ما يحدث، من هالة التي لم تحب زوجة أبيها يومًا، ومن الأخ الأكبر عبد الله الذي لم يعجبه أنْ تقوم النساء بدور الرجال، ولكنه لم يبادر إلى أي تصرف. تمنّت فداء أنْ يقول أحد غيرها الكلمات التي قالتها وأن تبقى وحدها متحمّلة للمسؤولية، لكن لم يتقدم أحد لقول ما يجب أنْ يقال، حتى لا يتورط في التزام هو ليس قادرًا عليه، ولا يرغب فيه. فكان عليها أنْ تكمل الدور الذي عاهدت نفسها على إكماله حتى النهاية.

عندما شعرت فداء أن واجبها يفرض عليها التزامًا أكثر من السابق ببيت والدها، كان هناك انقلابٌ غير متوقع يجري في حياتها. كانت قلقة ومحتارة ما الذي تفعله، بهذا الغريب الذي جاء من قارة أخرى، سرق قلبها دون أنْ تنتبه. عندما حصل ما حصل، لم تعتقد أنها تصلح للحب، لم تصدق أن قلبها المعطل لأكثر من ثلاثين عامًا أخذ يعمل فجأة بقوة ودون سابق إنذار. اعتقدت أنها كبرت على الحب، وهناك أشياء أخرى أهم من هذه التفاهة يقوم بها الإنسان في حياته، أما أنْ تسقط هي في ما اعتبرته طوال حياتها تفاهة، فهو ما أدهشها، وبقي يدهشها لسنوات لاحقة. إدوارد الأربعيني الأشقر صاحب الوجه الطويل والنظرة الهادئة القادم من الولايات المتحدة

إلى دمشق لدراسة تتعلق بالنفط، سقط قلبه في دمشق، وتركه عند المترجمة الفورية السمراء القليلة الحجم، التي سحرته بسمرتها وضحكتها وإنكليزيتها العجيبة الغارقة في الشرق الأوسط، بصوتها العذب وبلكنتها التي أحبها والمفهومة منه لأنها تدخل مباشرة إلى قلبه. لم يخطر له يومًا أنه سيخسر قلبه في زيارة عابرة إلى مدينة شرق أوسطية، مكان لم يزره من قبل. ولم يخطر لفداء أن فارس أحلامها سيأتي في طائرة وليس على ظهر حصان ويسرق قلبها ويغادر البلد خلال أيام. ما حصل كان شيئًا من الجنون، لقد تحطمت الحواجز خلال ثلاثة أيام، وإدوارد الذي عليه أنْ يغادر خلال أسبوع، مكث أسبوعين في دمشق، وفداء التي تعتبر ارتباطها بعملها مقدسًا، اعتذرت عن كل شيء وتفرغت له. لم تعرف فداء مثل تلك الأيام القليلة التي قضتها مع إدوارد، أيام أدخلتها الجنة، شعرت بنفسها تملك كل العالم، لم تفكر ماذا بعد، عاشت لحظتها فحسب. لم يكن حال إدوارد مختلفًا، فقد كانت أيامه التي مدّدها بعد انتهاء عمله، من أجمل أيام عمره. لكن على هذه الأيام الجميلة أن تنتهي، ويأتي ذلك اليوم الذي يغادر فيه. عندما غادر مرِضت فداء ولم تعد قادرة على العمل. لم تعانِ من شيء محدد، لكنها لم تحتمل أنْ تفارق إدوارد. لم تفهم هذا التعلق، قالت لنفسها: «إنها أزمة عابرة وتنقضي».. فهي

ليست أول الأزمات ولن تكون آخرها. لم تستطع أن تعود كما كانت، أصبح إدوارد جزءًا منها، ولم تعد قادرة على الخلاص منه حتى وهو بعيد. قالت لنفسها: «لا شك بأني سأتخلص من هذا الشعور، خاصة وأنه لا بد أنْ يكون قد نسيني في زحمة عمله». لم يمضِ أسبوع على مغادرته دمشق، ولم تكن فداء قد خرجت من مرَضها حتى كان ما لم تتوقعه. رنّ جرس الهاتف. ردت هالة. قالت: «فداء، هاتف لك». سألت وهي قادمة باتجاه الهاتف: «مين». قالت هالة: «لم أسأل، رجل يتكلم بالإنكليزية».. عندما رفعت فداء السماعة من جانب الهاتف ووضعتها على أذنها وقالت: «hello». وجاءها الرد من الطرف الآخر، ارتبكت ونسيت انكليزيتها، وأخذت تبكي، وهي تقول: «أهلين... اهلين... yes ...yes». من تعتقد أنه نسيها، كان يفكر فيها طوال الوقت، كما فكّرت به. لم تصدق أذنها عندما سمعت صوته، عرفته ولكنها لم تصدق، شعرت بنفسها وكأنها تحلم، فخافت أن يكون حلمًا، فأخذت بالبكاء، لم تعد تعرف ما الذي تفعله أو تقوله، لأنها لم تصدق ما يجري، ولم تصدق أنه سيتصل من وراء المحيطات لتسمع صوته ويسمع صوتها. قال لها: «لا أبالغ إن قلت لك إن قلبي سقط مني في دمشق، وصعدت إلى الطائرة من غير قلبي الذي تركته معك». كانت محمومة وهي تسمع

كلماته عبر الأسلاك، لم تستطع أن تهدأ طوال المكالمة، مرة تضحك ومرة تبكي، ولكنها في الحالتين فرحة، لقد نسيت العالم كله، نسيت هالة التي تجلس بالقرب منها. كانت هالة أول مرة وآخر مرة تشاهد فيها فداء بهذه الحالة، التي أدهشتها، فهي لم تفهم لماذا تبكي ولم تفهم لماذا تضحك، ولكنها عرفت أن المكالمة أعادت الروح لفداء. شعرت أن شيئًا غريبًا يحدث في حياة أختها خلال الأسابيع الأخيرة، ولكنها لم تعرف ما هو. بعد المكالمة عرفت لماذا تغيرت أختها في الأسابيع الأخيرة، لقد أصبحت امرأة عاشقة، بسبب ذلك الحب صارت أكثر جمالًا، كما اعتقدت هالة. فكّرت فداء أن المسافات البعيدة ستجعل العاطفة تخبو، إذا لم يكن عندها فعند إدوارد على الأقل، رغم تعلقها الذي لم تفهمه وسياق العلاقة الغريب، فإن أفكارها أخذتها لأحلام بعيدة منحتها سعادة لم تعرفها من قبل، ثم أعادتها إلى أرض الواقع لتدرك أنها علاقة مستحيلة فتشعر بالاكتئاب. لم تفهم كيف تشتعل علاقة بهذه القوة بين شخصين لا يكادان يعرفان بعضهما، ويأتيان من عالمين مختلفين. أحيانًا تحاول التفسير لنفسها، وأحيانًا أخرى تلقي بالموضوع خلفها وتقول لنفسها: «فليحصل ما يحصل، لن أجد حبي كل يوم». لكنها تعود بعد أيام إلى تناقضاتها ومحاولة فهم العلاقة بينها وبين إدوارد. خافَت من المسافة، خافت

أنْ تخسر حبها بسبب البعد، أول مرة في حياتها تشعر بالحب. طوال عمرها كانت قادرة على العيش وحدَها، بل تحبّ وِحدتها وعزلتها، حتى عندما كان إخوتها يعيشون معها في المنزل ذاته، كان لها مكانها الخاص الذي تعتزل فيه لراحتها وهروبها من كل شيء، خاصة ضغط عملها المُضني. كان عملها هو كل حياتها، رغم أنه عمل متعب وغير منتظم، عليها أنْ تلبّي الطلبات بصرف النظر عن الأوقات أو العطل، فهي تحبه، وآخر ما توقعته هو أنْ تقع في الحب من خلال عملها. كانت على قناعة، طالما لم تجد حبها في فترة فوَران شبابها عندما كانت تدرس في الجامعة، فإنها لن تجده بعد ذلك. تعايشت مع هذه الفكرة، وساعدها على ذلك، ضغط عملها ومسؤوليتها عن بيت أبيها، كانت مشغولة بإخوتها كأنها أبوهم وليس أمهم. أما أنْ يأتي حبها من قارة بعيدة، يمر لأيام ويقلب حياتها رأسًا على عقب، فهذا لم يخطر على بالها ولا حتى في أحلامها. تمسكت بحبها، لم تعرف ما الذي تفعله، وإلى أين يمكن أنْ يصل هذا الحب. عندما فكّرت في ظروفها وظروف إدوارد، عرفت أن هذا الحب أمامه من العقبات ما يجعله مستحيلًا. عادت لترمي أسئلتها وراءها، وتساءلت: هل ستراه مرة أخرى أم ستبقى العلاقة أسيرة أسلاك الهاتف والمكالمات القليلة التي يجريها معها؟ سألت نفسها السؤال ذاتَه كل يوم، لم تنسَهُ

ولو يومًا، وعندما رنّ الهاتف بعد ثلاثة أشهر وسمعت صوته على الطرف الآخر، كان الشوق قد أنهكها. عندما قال لها إنه في دمشق لم تصدق ما تسمع، وقالت له: «عليك أنْ تكف عن هذه الأكاذيب الصغيرة». وأضافت: «أين أنت؟». قال: «أنا في فندق الشيراتون». لم تعرف ما الذي أصابها، قالت له: «أنا قادمة خلال دقائق». لم تدرِ كيف بدّلت ملابسها، ولم تعرف كم كان الوقت متأخرًا، كانت تدور في المنزل تبحث عن الأشياء التي تريدها وهي أمامها دون أنْ تلحظها. هالة التي تسكن معها في المنزل تنظر إليها باستغراب، لم ترَ فداء طوال حياتها على هذه الدرجة من الاضطراب. سألتها: «ما بك؟!». قالت فداء وهي ما تزال تبحث عن أغراضها: «إدوارد بالشام». سألت هالة: «مين إدوارد؟!».. توقفت فداء عن البحث للحظات، نظرت إلى هالة التي تجلس على الصوفا الموضوعة في صدر الصالون نظرة غريبة، لم تشاهدها هالة من قبل في عيون فداء، عرفت أنها نظرة العاشقة. لم تردّ فداء على سؤال هالة، لكنها أخذت تبحث بصخب أقل. الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلًا، ولم يكن من عادة فداء الخروج في مثل هذا الوقت، وحتى أنّها لم تكن تغيب عن البيت إلى هذا الوقت، إلا إذا كنت مسافرة إلى مدينة أخرى، أو بسبب مناسبة اجتماعية. لم يكن أحد يسألها ماذا تفعل، ولكنها

ألزمت نفسها، منذ كانت طالبة في الجامعة بمجموعة من القواعد، لم تخرج عنها إلا نادرًا، وكانت هذه القواعد من أجل الآخرين أكثر منها كونها من أجلها، أحبّت أنْ تكون قدوة بالنسبة إلى إخوتها الذين ألزمت نفسها بهم. كانت أول مرة تخرق قواعدها أمام هالة التي شعرت أن أختها أصابها مسّ من الجنون، نظرت إليها فعرفت ما بها، لم تعلّق، فرحتْ لأختها ولكنّها خافت عليها، بقيت تراقب تصرفاتها دون أي تعليق. فداء التي تبحث عن أشيائها وانتهت من إبدال ملابسها، لم يخطر لها أنْ تنظر إلى نفسها في المرآة، كادت تخرج وهي تلفّ شعرها وتثبته بقلم رصاص كما كانت تحب أن تفعل. نبهتها هالة، أزالت القلم من شعرها، انحنت إلى الأمام بشدة، نفضت شعرها عدة مرات، استقامت بسرعة تاركة شعرها الناعم ليعود إلى الخلف بقوة. فتحت الباب وخرجت. أغلقت الباب وراءها، عادت إلى صخبها، نزلت على الدرج راكضة، وأخذت تبحث عن مفتاح سيارتها وهي نازلة على الدرج، ورغم أنها تسكن في الطابق الأول كادت تقع عدة مرات بسبب سرعتها، لم تجد المفتاح، حتى وصلت إلى السيارة، وضعت حقيبتها على غطاء المحرك وبحثت عنه بهدوء. ركبت سيارتها، قادت بسرعة في الشوارع الفارغة للوصول إلى الفندق الذي يقع في ساحة الأمويين، ولا يبعد عن بيتها في الروضة

أكثر من عشر دقائق. ركنت سيارتها في كراج الفندق، دخلت راكضة، وشعرت أن الباب الكهربائي يفتح ببطء غير عادي. عندما دخلت صالة الاستقبال، وقفت تضع يدها على صدرها، شعرت بقوة ضربات قلبها على يدها، سمعت دقاته واضحة، للحظة خافت أنْ يكون كل هذا مجرد سراب. إدوارد الذي ينتظرها في صالة الاستقبال، جعلها تتأكد من أن اللقاء ليس سرابًا وأنها لا تحلم. ركضت إليه كطفلة وهو يفتح ذراعيه، القلق في عينيه لا يقل عن القلق في عينيها، رمت نفسها على صدره، طوّقت رقبته بذراعيها، أخذت تبكي بقوة وتقول من بين دموعها: «أنا لا اصدق أنك أمامي». قال: «عدت من أجلك، أردت أنْ تكون مفاجأة، خفت أنْ تكون مفاجأة غير سارة». قالت فداء: «إنها أجمل مفاجأة في حياتي». مسح لها دموعها بيده، أخذ يتأمل وجهها الغارق بالدموع، وهي تنظر إليه غير مصدقة، قال لها: «لا اصدق أنك أمامي من جديد، خفت خلال الأشهر الثلاثة الماضية أنْ أخسرك، وشعرت أنني لا أملك القدرة على خسارتك». كانت تنظر إلى وجهه وتتأمل كيف يتحدث الإنكليزية على الطريقة الأميركية ويأكل أواخر الكلمات. وجدت نفسها تشبك ذراعها بذراعه وتقوده إلى خارج الفندق وهو يستسلم لها ببراءة. في حديقة الفندق نظرت إلى السماء، القمر مكتملٌ واضحٌ،

تحيط به بعض الغيوم البيضاء القليلة الشفافة والمتفرقة، الوقت نهاية آذار، شعرت بالربيع يطل من كل مكان حتى من القمر. قالت: «انظر إلى القمر، كم هو جميل». رفع إدوارد رأسه إلى السماء، هز رأسه موافقًا، أضافت: «تعرف؟ منذ سنوات لم أنظر إلى السماء». قال: «إنه شيء رائع أنْ أجعلك تنظرين إلى السماء من جديد». قادته إلى خارج الفندق، لم تترك يده، طوال ساعتين وهما يمشيان في شوارع دمشق، كانت ترى الأشياء بعيون جديدة، سارت في المدينة، كأنها تسير فيها لأول مرة وتحكي له عن اكتشافاتها الصغيرة في المدينة منذ وصولها لها كطالبة جامعية. كانا مسحورين، لم يعرفا كم من الوقت مضى وهما يمشيان، كانا متّحدين، متدفقَين، شيء ما يربط روحيهما، لقد توقف الزمن بالنسبة لهما عند تلك اللحظة، شعَرا بأن كل شيء يتواطأ معهما، وبأن هذه الأوقات لا يمكن تركُها، لأنها لا تحدث كثيرًا في الحياة. كانا وكأنّ قوى خفيّة تحركهما، غير قادرين على الوقوف في وجهها. لم تكن دمشق ضمن مسار سفر إدوارد، الذي عليه أنْ يذهب إلى دولة الكويت ثم إلى كوريا ويعود من هناك إلى نيويورك. لقد عكس الرحلة من أجل الذهاب إلى دمشق، غيّر مواعيده في كوريا والكويت، ليبدأ بكوريا وينتهي بالكويت ويهرب إلى دمشق من أجل فداء. لم يعرف لماذا يفعل ذلك، ولم يعرف سر

هذا التعلق الذي ظهر عنده فجأة، وهو الشخص الذي لا يتعلق بأي شيء. أيُّ سِحر يدفعه إلى هذا التعلق اللاعقلاني بامرأة لم يقضِ معها سوى أيام معدودة؟ لم يتوقع يومًا أنه يمكن أنْ يتعلق بشخص مثلما تعلق بفداء، وبالسرعة التي تعلق بها. قال لنفسه: «يبدو أنه سحر الشرق».

عندما خطط لتغيير مسار رحلته ليهبط في دمشق، كان محمومًا وخائفًا، محمومًا من ألّا ينجح في تغيير هذه المواعيد وألّا يحظى بالمرور على دمشق، خاف أنْ تكون فداء قد نسيته في الأشهر المنصرمة، وخاف أنْ لا يجد جماليات وزخم العلاقة اللاهبة الذي وجده في اللقاء الأول. كان مخطئًا، ليس في تقدير حجم تعلق فداء به وأي تغيير أحدثه في حياتها فحسب، بل مخطئًا في تقدير حجم التحول الذي جرى له أيضًا، شعر كأنه شخص لا يشبه ذلك الشخص الذي كانَهُ قبل تلك الزيارة الفاصلة إلى دمشق، لم يتوقع وهو في الأربعين من عمره أنْ يعشق مثل المراهقين امرأة تفصله عنها المحيطات وتعيش في عالم آخر وثقافة أخرى. لم يرَ كل ذلك، شعر أن حياته مرتبطة بشكل نهائي بهذه المرأة، وكل شيء يدفعه باتجاهها، لم يجد لذلك أي تفسير، حاول مرارًا، ولكنه في النهاية لم يأبه، وقال لنفسه: «طالما أنا سعيد لماذا عليّ أنْ أسأل نفسي أسئلة

فائضة عن الحاجة؟!». ترك الأسئلة وراءه وذهب إلى دمشق. خاف أن يحدث طارئ يمنعها من المجيء، وخاف أكثر أن يكون هناك شيء قد تغير عند فداء. تعلقت عيناه بباب الفندق، وأخذ يهز قدمه اليمنى بعصبية، ويحرك يده بطريقة دائرية متوترة على مسند الأريكة التي يجلس عليها، قبل أن تظهر فداء بباب الفندق. عندما شاهدها تدخل، انتفض واقفًا، وازدادت دقات قلبه سرعةً، سمع دقاته، كما سمعت فداء دقات قلبها، عندما رمت نفسها على صدره سمعت دوي ضربات قلبه، وأحسّت اضطرابه باتحاد جسديهما. شعر بارتعاشات جسدها وسمع صوت بكائها الذي ذبحه، عرف حالتها وما تعانيه، لم يكن حاله أحسن، وهي شعرت بذلك، في تلك اللحظة شعَرا أن حياتهما ارتبطت إلى الأبد. كانت فداء تحتاج إلى جولة المدينة الليلية مع إدوارد حتى تتعرف إلى المدينة من جديد، وتتعرف على نفسها، عندما كانت تتحدث عن دمشق بشاعرية ومحبة أسقطت مشاعرها وأحاسيسها في تلك اللحظات على المدينة التي لم تكن تعرف هل تحبها أو تكرهها، لأنها لم تسأل نفسها هذا السؤال أصلًا. وجدت نفسها في المدينة عندما جاءت للدراسة في الجامعة. اشتغلت مبكرًا في مكان لا يحتمل الكسل وتضييع الوقت، وجدت نفسها مشغولة دائمًا، زاد من انشغالها

عبء أهلها الذي تحمّلته بعد موت والدها. لم تسأل نفسها هل تحب دمشق أم لا. لأنها ببساطة كانت تعتبر المدينة قدمت لها ما هو أكبر من الحب، كانت كريمة معها جدًا، لدرجة أنها قالت: «دمشق كانت كريمة معي أكثر مما أستحق».. في ذلك اليوم رأت المدينة بعيون مختلفة، أحبتها أكثر من أي وقت مضى، وشعرت أن كرَمها وصل إلى حدود لم تعد معها قادرة على احتمالها، منحتها حبّها فوق كل ما منحتها خلال السنوات الماضية. التفتت فداء إلى إدوارد لتتأكد للمرة الألف أنه إلى جانبها حقًا، ابتسمت له وقالت: «أشعر أني أطير»..

فداء هي ما يعني إدوارد في هذه المدينة، المرأة التي سحرته تسير إلى جواره في شوارع غريبة عنه، استمع إليها وكأنه يستمع إلى موسيقى هادئة تدخل قلبه مباشرة، دون أن تمر عبر أذنيه. لأول مرة شعر أنه يحتاج ليتحدث عن نفسه، تأمل حياته، كما تتأمل حياتها، لم يسأل نفسه سابقًا هل يحب حياته أم لا. كان راضيًا عنها، في تلك اللحظات وفداء إلى جانبه يشعر بحرارة جسدها عرف أنه يحب حياته، وأن حياته قبل فداء كانت باردة مهمومة بإنجاز العمل والصعود الوظيفي، لم ينظر إلى نفسه. عرف ما يريده من أجل نفسه، إنه يريد هذه المرأة فقط، هذه المرأة وليس غيرها. في تلك

اللحظة قرّر أن يعود إلى دمشق في إجازته بعد أشهر، يقضيها في دمشق ويُنهي الأمر، لم يقل لها ذلك، لكنه اتخذ قراره.

عندما عادا إلى الفندق لم يعرفا كم من الوقت قضياه في الشوارع. ارتميا على السرير إلى جوار بعضهما، شعرت بأنفاسه تحرقها، نظر إلى عينيها الذابلتين، دق قلبها بشدة، مسح جبينها بيده وأعاد شعرها إلى الخلف، قرَّب وجهه منها، أغمضت عينيها، قبّل خديها وعينيها المغمضتين، تسارعت أنفاسها عندما احتوى شفتها بشفتيه، احتضنته بيديها وشدته إلى جسدها الذي اشتعل بالرغبة، نزع عنها ملابسها رويدًا رويدًا، كان مسحورًا بنعومة جسدها ولونه ورائحته، قبّل رقبتها فسمع تأوهاتها وأحس ارتعاش جسدها، وعندما احتوى حلمة ثديها بشفتيه ارتفعت وتيرة صوتها، حلّقت في عالم آخر، لحق بها في عالم السحر الذي كانا يسبحان فيه. عندما اقتحمها صرخت من اللذة، لم تشعر بثقله وهو يعلو ويهبط فوقها، شعرت به كعاصفة من المتعة، حلّق في السماء على ألحان تأوهاتها، لم يستطع الصمود طويلًا، التمعت نجوم المتعة في سمائهما، انتفض واسترخى فوقها، أخذا يلهثان معًا، احتضنها وغرقا في النوم اللذيذ.

عندما استيقظت فداء في الصباح وإدوارد ينام جوارها، عرفت أن ما جرى في الليلة السابقة لم يكن حلمًا، كان حقيقة، وإدوارد

النائم دليلها عليها. كان عليها أن تغادر لأنها مرتبطة مسبقًا بمواعيد عمل، كتبت له على دفتر الفندق الصغير: «سأراك ظهرًا». وغادرت.

في اليوم الثالث لعودة إدوارد إلى دمشق وذروة فرحتها، جاء خبر وفاة والدها. مرت على البيت من أجل أخذ بعض الأوراق، عندما فتحت باب شقتها، كانت هالة بانتظارها. شاهدت فداء الدموع في عيني هالة، سألتها: «ما بك؟». لم تُجبْ هالة. وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكي. عرفت فداء أن هناك شيئًا ما قد حدث، قرفصت على الأرض قبالتها، رفعت رأسها، شاهدت وجهها غارقًا في الدموع. شعرت فداء بالخوف. سألتها بحدة: «ماذا حدث؟!». لم تعرف هالة كيف تقول الخبر المؤلم، نظرت من بين دموعها، وقالت بتقطع: «أبي...». وقبل أن تكمل هالة كلماتها فهمت فداء أن والدها توفي. سقطت من قرفصائها على الأرض، نزلت هالة إلى جانبها على الأرض، تعانقتا وغرقتا في البكاء. بقي لزيارة إدوارد يومان فقط، لم يمهلها القدر، ولأول مرة شعرت بأن الحظ يعاكسها. اتصلت بالفندق، سمع إدوارد صوت فداء على الطرف الآخر من الهاتف وقد تهدج، غصة البكاء في صوتها واضحة، تغير صوتها كثيرًا منذ كانا معًا قبل أقل من ساعة، عرف أن هناك حدثًا ما قد وقع معها. غرقت بالبكاء قبل أن

تتمكن من أن تقول له إن والدها قد توفي. قال لها: «سأذهب معك إلى مدينتك، سأكون معك». قالت من بين دموعها: «هذا غير ممكن في مدينتي يا عزيزي». سألها: «لماذا؟». قالت: «هذه قصة طويلة». قال: «لا أفهم لماذا لا أستطيع الذهاب معك والوقوف إلى جانبك». قالت: «لا أستطيع أن أناقش معك هذا الموضوع الآن عليّ الذهاب، أرجو أن تحافظ على نفسك، أنا أخاف عليك». قال: «رغم أني لا أفهم، لكني سأقدّر ما تقولين والوضع الذي أنت عليه، سأعود في الصيف، وسنرى ماذا سنفعل». كان يرغب في البقاء إلى جانبها في هذه اللحظات العصيبة، لقد شعر بحزنها العميق. لم يتوقع أن تنقطع زيارته بهذا الحدث المفاجئ، أراد الذهاب حتى يخفف عنها، ولكن هناك شيء ما لا يفهمه يمنعه من القيام بذلك. رغب بشدة في مشاهدة حزنها، الذي لم يحبه فيها، لكن رغب بشدة أن يرى دموعها التي قتلته عن بعد، رغب في مسحها. تمنى لها أنْ لا تعرف الحزن وألّا تبكي مرة أخرى. سمعت هالة مكالمة فداء مع إدوارد، ومن وسط حزنها عرفت أي ظروف تعاني منها أختها، وأي حب وقعت فيه. عندما أغلقت فداء الهاتف بكت على والدها وعلى فراقها إدوارد، كان حزنها شديدًا، لقد شعرت باليُتم رغم أنّ والدها مشلول وهي المسؤولة عن البيت، أدركت في تلك اللحظة ما كان يعنيه والدها لها، عرفت أنه هو من

يمنحها القوة، شعرت أن ذلك النبع قد جفّ. اجتاحها شعور باليتم، شعور لم تشعر به عندما ماتت أمها. عندما سمعت أحاديث إخوتها عن أبيها، شعرت أنه شيء مختلف بالنسبة لها، شيء تحس به وغير قادرة على شرحه، منحها والدها العاجز معنى القدرة والقوة أكثر ما منحها إياه أشخاص لا يعانون معاناته. كانت تعرف أنها تحبه، لكنها لم تعرف أنها متعلقة به إلى هذه الدرجة، كانت معجبة بأبيها كثيرًا، تعرف أنه ليس كاملًا، ولأنه ليس كذلك أحبّته، ومن أجل ذلك اكتشفت كم هي متعلقة به. في الطريق إلى حماة، سألت فداء هالة: «قولي لي دون مجاملة، هل قصّرت بحق أبي؟». صدم السؤال هالة، نظرت إليها وقد توسعت عيناها وقالت بالكثير من الدهشة: «إذا كنت أنت تقولين ذلك. ماذا أقول أنا؟». قالت فداء: «أشعر أني قصّرت تجاهه، كنت بحاجة إليه أكثر مما هو بحاجة إليّ». وضعت وجهها بين يديها وأخذت بالبكاء. احتضنتها هالة، كانت المرة الأولى التي تشاهد فداء بهذا الضعف. لم تجد كلمات تقولها لها سوى: «أنتِ أكثر واحدة أحبّها بيننا». شعرت هالة أنها أكثر تعلقًا بفداء من أي وقت سابق، وشعرت أنها لم تعد الأمَّ والأخت، فقد باتت الأب منذ تلك اللحظة.

تذكر هالة أن العيون قد تعلقت بهما عندما دخلتا بيت والدهما، لم تفهم تلك النظرات التي تشابهت في عيون الجميع، ولماذا لهما؟

لم تعرف هل هي أم فداء المقصودة بهذه النظرات. انتبهت فداء كما انتبهت هالة إلى هذه النظرات، استغربت النظرات ولم تجد تفسيرًا لها، ولم تعرف معناها، كانتا حائرتين معًا من هذه النظرات. فلحظة دخولهما ساد صمت غريب، وكانت عيون النسوة تنظر إليهما تلك النظرة الموحدة، توقف البكاء، توقف الصراخ، وسادت النظرة الموحدة منهن جميعًا. نظرتا إلى بعضهما، تفقدتا نفسيهما، تفقدت الواحدة الأخرى، دون أن يلفت نظرهما أي شيء يجعل هذه النظرة مبررة، كل ذلك حصل خلال لحظات. لم تترك الأخت الكبيرة هدى الموقف يطول، ركضت باتجاه أختيها وحضنتهما معًا وغرقن جميعًا في البكاء، وعادت أصوات البكاء لتفرض نفسها على المكان. أخذت هدى أختيها إلى الغرفة الكبيرة التي مُدِّد فيها جثمان والدهما. وقفت هالة وفداء متقابلتين إلى جانبي رأس والدهما الممدَّد في وسط الغرفة. رفعت فداء الغطاء الأبيض عن رأسه، وأنزلته إلى صدره. نظرتا إلى وجهه الأبيض، ملامح وجهه راضية، كأنه راضٍ عن موته، هكذا استنتجتا، دون أن تحدِّث أحداهما الأخرى. بدت ملامحه لهما مسترخية، كما لم تكن يومًا كذلك، إغماضة عينيه توحي بأنه نائم، وتعابير وجهه مستريحةٌ كأنه يحلم حلمًا سعيدًا. خافَتا مما ترَيانه أمامهما، وتساءلتا في تلك

اللحظة، وسألتا بعضهما في ما بعد، هل كان سعيدًا بموته؟! لم تتمالكا نفسَيهما، كل واحدة رمت نفسها على صدر الأخرى وعادتا إلى البكاء الحارق. سحبتهما هدى من أمام جثمان والدهما إلى خارج الغرفة. جلستا بين النسوة مصدومات. تناهى إلى مسامعهما بعض التعليقات، تقصّدت صاحبات التعليقات أن تصل تلك العبارات إلى مسامع فداء وهالة، على أن تبدو غيرَ مقصودة. «لا يخفن الله، أبوهنّ مات وتأتيان حاسرات الرأس».... «هذا لباس يأتين به إلى عزاء والدهن!!».... «كأنهنّ آتيات إلى عرس وليس إلى عزاء».... «الله سيحرقهن بنار جهنم على هذا اللباس».... «ما عاد أحد يخاف ربه».... كن مجموعة من النساء اللواتي لم تَرَهُنَّ فداء ولا هالة من قبل، لم تعرفا أيًّا منهنّ، كنّ نسوة متّشحات بالسواد، لم يرفعن عن وجوههن حتى وهُنَّ في حضرة النساء فقط. كانت فداء تسمع الكلمات وتتمزق غيظًا، تكتمه لأنها لا تريد أن تفسد عزاء والدها، حاولت رد التلميحات بنظراتها الغاضبة للنساء اللواتي يَقُلْنَ مثل هذه التعابير، كانت تنجح أحيانًا، وأحيانًا أخرى تزداد المرأة وقاحة، معتبرة أن من حقها قول هذه الكلمات، لأنها تقوله من أجل مصلحتهن. لم تضع فداء الغطاء على رأسها، وتجاهلت كل الأقوال الوقحة التي سمعتها من النساء الموجودات

في العزاء، فهي أقرب شخص لهذا الرجل الذي أحبته، كما لم تحب بنت أباها، له الفضل في أن تكون تلك المرأة الواثقة من نفسها، وثِق بها من بين كل إخوتها الإناث والذكور. عندما أرادت أن تغادر للدراسة في دمشق، عارض إخوتُها ذلك، وقف في وجههم وقال لهم: «لها الحق أن تختار مستقبلها». عندما غادرت، أعطاها بعض النقود، وقال لها كلمتين: «لا تخذليني». عاهدته بأن لا تخذله، وحفرت هذا الوعد داخل روحها، كانت كلماته تتردد في أذنها طوال الطريق إلى دمشق، كلما تذكرت كلماته تقول بينها وبين نفسها: «لن أخذلك ما حييت». اليوم، وجثمان الرجل الذي تحبه مسجى داخل الغرفة المجاورة، لا تستطيع أن تقول للنساء الموجودات اللواتي يُسمعنها الكلام اللاذع، إن الحزن ليس بالشكليات، قلبها مدمى بسبب وفاة الرجل الذي عاش سنواته الأخيرة مشلولًا، كانت مستعدة أن تتحمل وضعه إلى الأبد على أن تفقده، كيف تقول ذلك، شعرت بأنها إن قالت ما تشعر به، سيفقد معناه، صمتت ولم تعد تصغي لما يقلنه.

خافت هالة من التعليقات، لم تكن قادرة على رفع عينيها للنساء اللواتي يتفوهن بتلك الكلمات، خفضت رأسها وتخيلت صور العذاب الذي ستواجهه، زاد خوفها كلما توغلن في التعليقات.

عندما جلست امرأة إلى جانبها وقالت لها: «يا ابنتي، إذا كنت لا تخافين الله، ألا تخافين على نفسك، ألا تعرفين الله؟». شعرت هالة بالقشعريرة من سؤال المرأة، وقالت بسرعة: «أعوذ بالله، أستغفر الله...». وقبل أن تكمل قالت المرأة: «حافظي على نفسك حتى لا تُحرَقي بنار جهنم، هذا أبوك ماذا أخذ معه؟!». نظرت هالة تجاه الغرفة التي فيها جثمان والدها، شعرت أن جسدها يحترق بنار حامية، أصيبت بالدوار وهي جالسة، زرعت فيها كلمات المرأة إلى جوارها الرعب من حساب الآخرة. أخافتها ألوان العذاب التي تحدثت عنها تلك المرأة، من عذاب القبر إلى جهنم التي سيصليها فيها الله عذابات لن تخطر على بالها، كان وقع كلماتها على هالة مدمرًا، وجدت نفسها تستغفر ربها على الذنوب التي ارتكبتها، وأخذت تقرأ بعض الآيات التي تحفظها عن ظهر قلب. ذهبت إلى أختها هدى وطلبت منها غطاء للرأس، فأحضرته لها، وضعته على رأسها، وباتت منذ تلك اللحظة محجبة، ولا تترك صلاة من دون أن تؤديها، إلا أيام الدورة الشهرية. لم تعلق فداء على حجاب هالة ولا على صلاتها، لا سلبًا ولا إيجابًا، ولم تتغير علاقتها معها، بقيت تقيم معها في بيتها، اعتبرت أن ذلك مسألة شخصية تخص هالة وحدها.

عندما انتهت فترة العزاء وعادتا من حماة، كانت هالة ما تزال خائفة، شعرت أن موتها بات قريبًا، أخذت تقضي وقتها في الليل تقرأ القرآن وتصلي، خائفة من يومها القريب، تلوم نفسها على كل شيء، على أشياء فعلتها، وعلى أشياء لا علاقة لها بها. انتبهت فداء لسلوك هالة، قالت لنفسها فترة حزن وتمرّ، بعد شهر كانت هالة ما تزال على تلك الحالة يوميًا. تركت دراستها، ولم تعد تذهب إلى الجامعة، ولم يعد لها سوى القرآن والصلاة وخوفها من كل شيء. خافت فداء على أختها واعتبرت أن السكوت لم يعد ممكنًا. دخلت غرفتها، انتظرتها حتى انتهت من صلاتها، أمسكتها من يدها، أجلستها على السرير وجلست إلى جوارها، قالت: «هالة حبيبتي. أبوك مات، هذا قضاء الله وقدره، أنا أعرف أنك تحبينه، وأنا أيضًا أحبه كثيرًا، لكن الموت إرادة الله، وأنت مؤمنة، هذا الذي تفعلينه حرام، لا يُرضي الله. صلي كما تشائين لكن بالمعقول، أما أنْ تحبسي نفسك وتتركي دراستك، فهذا لا يرضي الله، ينبغي أنْ تخرجي من الحالة، أنت تقتلين نفسك».. سمعت هالة كلمات فداء بكل استكانة، قالت بصوت هادئ: «أنا أعرف أن الموت إرادة الله، ولكني خائفة». استغربت فداء كلمات هالة وقالت: «ممَّ أنت خائفة؟!». قالت هالة: «خائفة من الموت، أشعر أنَّ موتي قريب».

قالت فداء: «ما هذا الكلام الفارغ، لا أحد يعرف ساعة موته. حتى لو كان إحساسك صحيحًا، حبسك لنفسك، لن يغير شيئًا. في جميع الحالات الموت آت اليوم أو غدًا أو بعد مئة سنة». قالت هالة: «أنا خائفة من ذنوبي». وجدت فداء نفسها تضحك، كتمت ضحكتها، ضمت هالة إلى صدرها وقالت: «انتظري لما ترتكبيها أول». أبعدتها عن صدرها، وقالت: «غيري ملابسك سنذهب لنتمشى». قالت هالة: «ما عندي رغبة». قالت فداء: «أنا عندي رغبة، وأحب أن أكون أنا وأنت». أذعنت هالة لرغبة أختها. خرجتا لتتمشيا في الأسواق القريبة من بيتها، وعادتا لتجلسا في حديقة السبكي القريبة، تنظران إلى الآخرين، أطفال ونساء وشباب وشيوخ، لم تتبادلا الكثير من الكلام، أرادت فداء كسر رتابة حياة هالة في الأسابيع الأخيرة، نجحت في ذلك. كانت سعيدة لأن أختها خارج غرفتها، وإن لم تكن خارج خوفها بعد. أخذت هالة تستعيد حياتها ببطء، لم تستطع أن تتخلص من خوفها تمامًا، وبقايا هذا الخوف سترافقها طوال حياتها. ولكنَّها بعد وفاة والدها هي غيرها قبل وفاته، كان الخوف ينمو داخلها، وهذا الخوف غيّرها دون أن تنتبه، ومع وفاة والدها تدفق الخوف كله ليحوِّل حياتها. ذهبت إلى دروس الدين، سمعت الكثير من الأحاديث عن عذاب النار وعذاب القبر،

والعذاب الشديد الذي ستتعرض له في الآخرة، وهو ما زاد خوفها وعزلتها.

كانت قصص النساء عن عذابات الدنيا والانتقام الإلهي من مرتكبي الذنوب تخيفها أكثر من قصص عذابات الآخرة. أخذت تسأل نفسها أسئلة لم تخطر على بالها من قبل: هل مرض أبي عقاب إلهي على الذنوب التي ارتكبها، عشرة سنين من العذاب، أي ذنب ارتكبه حتى يستحق هذا العذاب الأرضي كل هذا الوقت؟ وعندما سألت نفسها هذا السؤال تذكرت عينيه الحزينتين، عينيه الفرحتين، عينيه اللائمتين، عينيه المحتجتين، عينيه المحبتين، عينيه البارقتين، عينيه الباهتتين... تذكرت كم أجاد والدها لغة العيون بعد أن فقد القدرة على الكلام، وأصبح أسير كرسيه المتحرك وخدمة الآخرين له، ولكنها عادت لسؤالها، هل ما أصابه من مرض هو عقاب إلهي على ذنب كبير ارتكبه، وأي ذنب يستحق هذا العقاب؟!

تدق أصوات النساء رأسها في دروس الدين، كأنها مطارق قوية، كانت أسيرة مطارق العقاب الإلهي السماوي والأرضي. استطاعت النساء اللواتي يقُمن بإعطاء دروس الدين وضعها في أجواء الرهبة والخوف، شعرت بنفسها في عالَم آخر، عالم من الخوف والقسوة،

عالم تحتله نيران العذاب في كل مكان، نيران تحرق كل الأعضاء، الأيدي، الوجه، العينين، الأرجل، الأذنين، وتحرق حتى القلوب التي يشاهدها أصحابها تحترق. لقد استسلمت لهذه الأجواء. أصبحت تقوم بالأشياء بحدها الأدنى، وتقضي ما تبقى من وقتها في محاولة تجنب النيران التي تشعر أنها تحيط بها من كل جانب، حتى أنها في كثير من الحالات تشعر بها داخلها تعذبها على صغائر لم ترتكبها، بل تخاف من أن ترتكبها. كانت قراءة القرآن هي وسيلتها لتجنب هذا العذاب، قراءته تريحها، تشعر أنها نظيفة بيضاء من الداخل، كأنها حمامة بيضاء تحلق في سماء رحبة. والوسيلة الأخرى لتجنبها هذه النار المحرقة، هي العدد الكبير من الأدعية التي أعطتها لها المرأة التي تعطيها دروس الدين. لم تكن قادرة على الخروج من هذه الأجواء، بمرور الوقت زاد تدخل النساء اللواتي تعرّفت عليهن في دروس الدين في حياتها الشخصية، وأصبحت أكثر استجابة لها. سألتها معلمتها في دروس الدين عن كل شيء، وأجابتها على كل شيء دون أن تخفي شيئًا، وهو ما جعلها مسلوبة الإرادة، تسأل في كل صغيرة وكبيرة كيف يكون تصرفها، حتى أصبحت لا تفعل أي شيء دون الرجوع إلى معلمتها. لم يعد التدخل في حياتها يزداد فحسب، بل أصبحت تطلبه هي أيضًا، حتى

يستقيم فعلها وتتجنب النيران التي تراها في كل مكان. ولأن معلمتها تعرف عنها كل شيء بات تدخلها يزداد، ولم يعد يقتصر على حياتها، بل أصبح ينتقل إلى حياة الآخرين. ولأن المعلمة تعرف محبة هالة لأختها فداء ومحبة الأخيرة لها، رغبت في التأثير على فداء من خلال هالة، ولأن هالة باتت مسلوبة الإرادة تجاه معلمتها لم تستطع أن ترفض لها طلبًا. طلبت منها أن تنصح أختها وتدعوها بالحسنى أنْ تتحجب وتلتزم الصلوات الخمس، وتلتزم سلوك النساء الشرعي حسب ما يقوله كتاب الله. ترددت هالة في فتح الموضوع مع فداء، ولكنها في النهاية استجمعت كل قواها، وفي أمسية من أمسيات الصيف التي يقضونها على شرفة المنزل المطل على الحديقة عندما لا يكون هناك عمل مسائي عند فداء، والتي لم تعد هالة تشاركها إياها بعد أن اختارت العزلة في غرفتها. لم تحتجّ فداء على سلوك هالة، كانت تعتبرها تمرّ في أزمة مهما طالت أو قصُرت فهي ستنتهي، يكفي أنها باتت تذهب إلى جامعتها وعادت إلى دروسها. في تلك الأمسية خرجت هالة إلى الشرفة حيث تجلس فداء، تقرأ رواية «السيدة دالاواي» للكاتبة الأميركية فرجينيا وولف. عندما دخلت هالة الشرفة ظهرت السعادة على وجه فداء، فهذه أول مرة تشاركها هالة جلستها على الشرفة منذ أشهر. دعتها إلى

الجلوس وقالت لها: «أصب لك قهوة؟». هزت هالة رأسها موافقة، وقالت: «أنا أصبّها». ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت فنجان قهوة آخر، عادت وجلست على الكرسي المقابل لفداء. وضعت الفنجان، صبت القهوة وأخذت تنظر إلى السائل البني المحروق الذي يرسم تموجات في الفنجان الأبيض، عندما انتهت من صب فنجانها، نظرت بخجل إلى فداء، كانت ترتدي ثياب الصلاة البيضاء، وجهُها شاحب وعيناها تائهة، والارتباك ظاهر عليها. شاهدت فداء كل ذلك أمامها، فكّرت بينها وبين نفسها، كم تغيرت هالة في الأشهر التي تلت وفاة والدنا؟ انفطر قلبها لأنها لم تستطع أن تُخرج هالة من حالتها رغم كل المحاولات التي بذلتها خلال تلك الأشهر، كان يدمي قلبها أنْ تنسحب هذه الفتاة التي لم تبدأ حياتها بعد من الحياة لتحبس نفسها بين أربعة جدران. أسِفت على طريقة هالة في تبذير حياتها، في تلك اللحظة كانت سعيدة أنْ تخرج هالة من غرفتها وتنضمّ إليها في الشرفة. سألتها فداء: «كيف حالك اليوم؟». أجابت هالة: «الحمد لله، نشكر الله على نعَمه». جواب هالة دفع فداء إلى الضحك، وخوفًا من أنْ تجرح أختها، كتمت ضحكتها التي أخرجتها بابتسامة تحمل أكثر من معنى. شعرت هالة بما تحمله ابتسامة أختها من سخرية، لكنها لم تعلق، هي انضمت إلى

فداء في الشرفة لسبب آخر، ولـم تستطع أنْ تنتظر. كانـت الكلمات التي ستقولها حِملًا ثقيلًا عليها، تريـد أن ترميهـا عـن ظهرهـا بأسـرع وقـت. فقالـت دون أن تنظـر في عينـي فـداء: «أنـا أخـاف عليـك مـن الآخـرة، لمـاذا لا تتقـربين مـن الله؟». هـذه المـرة ضـحكت فـداء بسخرية ضحكة مدوية، وقالت بسخرية أيضًـا: «وكيـف أتقـرب مـن الله يـا عينـي؟!». قالـت هالـة بارتبـاك: «بـأن تتحجبـي وتصـلي وتستغفري ربك». صعد الـدم إلـى رأس فـداء، كانـت مستفزة حتـى الانفجار، ضبطت نفسها وعادت إلى سخريتها وقالت: «نزل عليـك الوحي وقال لك أن تدعوني إلى الإسلام، وبعدين الله تبعك مشغول بحجابي وصلاتي، وإذا لم أتحجب وأصلي يهتز العرش، وبعـدين لماذا أفعل ذلك؟». قالت هالـة بصـوت متهـدج: «حتـى تتـوبي». لـم تعـد فـداء قـادرة علـى كظـم غيضـها، انفجـرت صـارخة: «أنـت مـا بتفهمي؟ أتوب عن ماذا؟ ما هي الذنوب العظيمة التي ارتكبتها حتى أتوب عنها، لم أؤذِ شخصًا في حياتي، لـم أقصّـر في مسـاعدة أي أحـد أستطيع مساعدته. أتوب عن ماذا، الذي يسمعك يعتقد أني لـم أتـرك كبيـرة إلا ارتكبتهـا، وكـأنني خارجـة مـن ملهـى ليلـي. أنـا وربـي أصطفل، لستِ أنت من يعلمني كيف أتصـرف. قـومي انقلعـي علـى غرفتـك، ومـا عـاد اسـمع هـذا الحـديث في البيـت نهائيًـا. مفهـوم»..

وضعت هالة يديها على وجهها ولم تعد قادرة على مسك دموعها، شهقت باكية وركضت إلى غرفتها، لتدفن وجهها في الوسادة وتغرق في البكاء. بقيت فداء على الشرفة تنتفض غضبًا من الحوار الذي دار مع هالة، لعنت الزمن والساعة التي جنّت فيها هالة وذهبت إلى أسوأ أنواع التديُّن.

تصرفت هالة كأنها مسحورة، بكت في غرفتها على العقاب الذي ينتظر أختها في الدنيا والآخرة. خافت على فداء أكثر من خوفها على نفسها، كانت كل شيء بالنسبة لها، لا تستطيع أن تخسرها، أي أذى يصيب فداء، يدفعها إلى الجنون، ويشرّدها. عندما طلبت منها أن تتوب، كان ذلك خوفًا عليها، لم تتوقع أن تفهم فداء طلبها خطأ، وأن تغضب كل هذا الغضب. لامت نفسها، ولم تعتبر نفسها أخطأت بما طلبته من أختها، بل اعتبرت أنها قالته بطريقة خاطئة، لو قالته بطريقة مناسبة، على الأقل لم تكن لتغضب منها كما لم تشهدها غاضبة من قبل. عندما التقت معلمتها في درس الدين التالي، أخبرتها كل شيء. فتحت معلمتها يديها ورفعت رأسها إلى الأعلى وقالت: «الله ينتقم منك يا فداء الكافرة». أنزلت يديها ونظرت إلى هالة، ربتت على كتفها، وقالت: «لا تخافي أنت مؤمنة، والله سبحانه وتعالى لن يترك أختك التي أساءت إليه

وكفرت به، سينتقم منها في الدنيا والآخرة». عندما سمعت هالة تلك الكلمات وجدت نفسها تنتفض، شحب لونها، جف ريقها، جمدت الكلمات على لسانها، سالت دموعها، ومن دون أنْ تقول أي كلمة، وجدت نفسها تركض مغادرة المكان. لم تعرف أين تذهب، لم تكن راغبة في الذهاب إلى البيت، ولم ترغب في الذهاب إلى الجامعة، فهي لا ترغب في لقاء أي أحد، سارت دون وعي في شوارع دمشق، لا ترى أمامها ولا تعرف أي شوارع تمرّ بها، عدة مرات قطعت الشوارع وكادت السيارات تصدمها، انتفض جسدها بين وقت وآخر. خوفها على أختها من تلك الكلمات التي سمعتها، أفقدها كل قدرة على التفكير، بدأت تتصور أي مصائب يمكن أنْ تصيب فداء جرّاء دعاء تلك المرأة، قالت لنفسها: هل تصاب بالشلل مثلما أصيب أبي؟ هل يعتدي عليها أحد ويشوهها؟ هل تمرض بمرض عضال لا شفاء منه؟ هل تغرق في إحدى سفراتها في مياه أحد الأنهار؟ هل تصاب بحادث سيارة يجعلها مشوهة، وهل، وهل... خطرت عشرات التصورات على بالها، ما زاد خوفها على أختها، دعت ربها من أجل أختها طوال الوقت، قالت: «يا الله، يا كريم، احمِ أختي فداء ولا تصبها بأي أذى».. قالت كلماتها بكل خشوع، تمنت أنْ يسمع الله كلماتها، وليس كلمات معلمتها في

الدين، فكّرت طويلًا وهي تذرع شوارع دمشق، كيف يمكن لامرأة متدينة ومدرّسة دين كما تدّعي أنْ تنطق بدعاء سوء على امرأة أخرى لا تعرفها، مهما كانت هذه المرأة، فلا يمكن أن يكون لذلك أي علاقة بالدين، ولا يمكن للإسلام أنْ يكون بهذه القسوة. لم يكن خوفها على أختها ما جعلها تطرح هذه الأسئلة على نفسها فحسب، بل لأنها في تلك اللحظات من خوفها على أختها، أخذت تختبر إيمانها، وأي نوع من الإيمان يمكن أن يربي الكراهية، وجدت نفسها غير قادرة على تربية الكراهية داخلها، فقرّرت أنْ لا تذهب إلى هذه الدروس مرة أخرى، وأن علاقتها مع ربها هي وحدها من يقرّرها، لا تحتاج إلى وسطاء يرفعون أيديهم إليه بالدعاء السيء على أحبتها في الحياة. عندما سألت أسئلتها، وأجابت عليها وجدت نفسها أكثر راحة مما هي عليه عندما غادرت معلمتها. كانت تعتقد أنها تحتاج إلى الإيمان حتى يعزز الحب في قلبها وليس لتربّي الكراهية، فهي طوال عمرها كرهت الظلم، فكيف تظلم أحبَّ الناس إليها. رغم ذلك، كانت كل خطوة تخطوها، تزيدها خوفًا على أختها، وعندما لم تعد قادرة على تحمل ذلك، أوقفت تكسي وعادت سريعًا إلى البيت. أدخلت مفتاحها في الباب، أدارته وهي خائفة، خطت الخطوة الأولى داخل البيت بخوف وحذر شديد، لم

تسمع أي صوت. كان وقت الغداء وهي تعرف أن فداء ستكون في البيت، وإذا كانت ستأكل خارجه فهي تخبرها حتى لا تبقى في انتظارها، ولو برسالة مكتوبة وملصقة على البراد.

كانت فداء قد ندمت على سلوكها في اليوم السابق، لامت نفسها، واعتبرت أنه ليس من الصحيح أن تعامل أختها خلال أزمتها بهذه الطريقة، قرّرت أن ترطب الجو بينهما دون أن تعتذر منها، لأنها لم تجد ما يبرر الاعتذار. لذلك أتت مبكرة قليلًا عن وقت الغداء، حتى يتسنى لها الحديث مع هالة وهما تحضِّران الطعام، وعندما لم تجدها في البيت، حضَّرته بنفسها. استلقت على الصوفا في الصالون بانتظار هالة، غفت مكانها، وهي لم تفعل ذلك من قبل، لأنها تأخذ قيلولتها عندما يتسنى لها ذلك في غرفتها. عدم وجود أي صوت في البيت زاد من خوف هالة وقلقها، وبدأت تتساءل عن السبب الذي أَخّر فداء عن الغداء، وأي مصيبة وقعت. وعندما دخلت إلى الصالون وجدتها مستلقية، اعتقدت أن شيئًا ما حدث لفداء. ركضت إليها، وهي تصرخ «فداء.. فداء». وتبكي، نهضت فداء من نومها فزعة ومرعوبة، وغير قادرة على التقاط نفَسها، وتسأل بصعوبة من بين أنفاسها المتقطعة وهي تضع يدها على قلبها: «ماذا هناك؟!». لم تكن صاحية بعد عندما وجدت هالة تحضنها وهي تغرق في

البكاء وتقول: «سامحيني، خفت عليك كثيرًا». لم تكن فداء قد صحت من نومها بعد تمامًا عندما بدأت تدرك ما يدور حولها، سألت «أسامحك على ماذا؟!». لم ترد هالة، بقيت غارقة في بكائها. احتضنتها فداء، وقالت لها: «خلص، لا شيء ذو قيمة، لماذا هذا البكاء كله؟!». كانت رغبة هالة في البكاء أقوى من أي تهدئة، أصابت عدوى البكاء فداء، التي أخذت تبكي مع أختها وتقول لها من بين دموعها بتقطُّع: «الله يخليك، خلص هالة».

عندما انتهت هالة من بكائها أحست الدموع غسلت مخاوفها على أختها، ولكنها بعد هذا الخوف الذي أصابها على فداء، عرفت أنها متعلقة بها أكثر مما تتصور. عندها قرّرت أنها لن تعود إلى تلك الدروس التي تحضرها، لأنها لن تحتمل دعاء إحداهن على أختها بالسوء. قالت هالة معتذرة: «أنا آسفة على ما قلته لك». ربتت فداء على كتف هالة وهي تحتضنها، وقالت: «لا شيء يستحق الأسف، لا عليك». أدركت فداء أن تغيرًا ما جرى لهالة، وسلوكها ذلك اليوم يؤشر على ذلك. لم تعرف فداء ما الذي جرى، ولم تكن ترغب في معرفته، لأنها اعتقدت أن ذلك يمكن أن يزعج هالة، فلم تسألها، في الآونة الأخيرة باتت هالة تعتبر كل أسئلة فداء تدخلًا في حياتها الشخصية، ولذلك تجنبت سؤالها، ولكن أسعدها أن تعود هالة

لحياتها الطبيعية، وأن اعتذارها بداية انفراج الأزمة التي عاشتها بعد وفاة والدهما. عادت هالة للذهاب إلى الجامعة ومتابعة دراستها، وأخذت تستعيد علاقاتها مع زميلاتها في الجامعة. كانت العودة إلى الحياة الطبيعية مشوبة بالكثير من القلق الغامض، قلق من شيء لا تعرفه، شيء مجهول داخلها يصنعه دون أنْ تستطيع إمساكه أو شرحه. كانت روحها معذبة لسبب غامض، هناك شيء داخلها يؤلمها، ولا تعرف كيف تعالجه، شيء يخلق غصة ألم يجعلها غير مرتاحة. عالجت كل ذلك بصلواتها، صالحتها الصلاة مع نفسها، وجعلت الوجع الروحي الذي تشعر به أقل حدة. كانت الصلاة تمسح الضيق من صدرها، ولكنه سرعان ما يعود. عندما تجلس وحدها وتشعر نفسها بين يدي الله أثناء الصلاة، تشعر نفسها تطير، هناك شيء داخلها يتحرك ويمنحها الراحة والسكينة الداخلية. عندما تخرج للتعامل مع الناس تعود لتشعر بالضيق وبثقل يضغط على صدرها. كانت ترتاح وهي وحيدة، وتشعر بالضيق بوجود الآخرين. هذا ما جعلها ترتاب بكل من يقترب منها، وتحافظ على مسافة تبعدها عنه، مسافة أمان تجعلها مغلقة على الآخرين. فداء الشخص الوحيد الذي تستطيع الوثوق به، رغم ذلك لم تعد تحاول فتح المواضيع التي تستفزها، ليس خوفًا منها ولا لحاجتها إليها

كونها تقيم في بيتها، بل حبًا بها، واعترافًا بجميل لم يكن أحدٌ غير فداء قادرًا على تقديمه. للتخفيف من وطأة الإحساس بحاجتها إلى أختها، أخذت تبحث عن عمل جزئي تستطيع من خلاله أن تشعر ببعض الاستقلال وتتخلص من الوقت الذي تقضيه لوحدها بسبب انشغال فداء الدائم. لم ترغب في إخبارها أنها تبحث عن عمل، ولم ترغب أن تعرف، خوفًا من غضبها. كان تقديرها بهذا الشأن خاطئًا، لم تكن فداء لتغضب من عملها، وشرطها الوحيد هو أنْ لا يؤثر على دراستها، في النهاية هي التي وجدت لها العمل في مخبر للتحاليل الطبية صاحبته صديقة لها تعرفت عليها من خلال المؤتمرات الطبية التي شاركت فيها كمترجمة فورية. جاء الحديث عارضًا عندما قالت فداء لصديقتها الطبيبة في استراحة مؤتمر طبي: «أختي الطالبة في كلية الحقوق السنة الثانية تبحث عن عمل، لا أمانع، فأنا عملت طوال سنوات دراستي في الجامعة، أنا فقط أريد أن تجد عملًا لا يؤثر على دراستها». عندما أكملت كلماتها قالت الطبيبة «ما رأيك في أن تعمل عندي في المختبر بدوام مسائي في تسليم التحاليل الطبية لأصحابها، فالصبية التي كانت تعمل عندي تركت العمل لأنها تزوجت». قالت فداء: «أكون ممنونة لك على هذه الخدمة». قالت الطبيبة: «أريد خدمة محرزة». عندما سألت

فداء هالة: «هل ما زلت تريدين العمل؟». انخطف وجه هالة، واعتقدت أن سؤالها يحمل معنى الرفض لعملها، احتارت بماذا تجيب، وسألت نفسها: «معقول فداء لا تريدني أن أعمل وتريد أن أبقى تحت رحمتها؟!». وقبل أنْ تذهب في ظنونها بعيدًا، أعادت فداء السؤال عليها، وقبل أنْ تسمع الجواب قالت لها: «وجدت لك عملًا في مخبر للتحاليل الطبية بدوام مسائي، إن أردت هذا العمل، تستطيعين استلامه منذ اليوم». انقلبت تعابير هالة من جديد إلى الفرح وسألت بدهشة: «صحيح؟!».، شعرت بالسعادة لأنها وجدت عملًا، وشعرت بالخيبة لأنها فكّرت بأن فداء لا تريدها أن تعمل. استهجنت شكوكها بأقرب الناس لها، بأختها التي تحبها أكثر من أي شيء آخر، شعرت بنفسها تتحول إلى شخصية ارتيابية، ترتاب بكل شيء، أخذت تلوم نفسها لأنها فكّرت بفداء بهذه الطريقة. كان العمل هو أكثر ما تحتاجه، لقد جاء في وقته، كانت بحاجه إليه، لتعرف أنها مفيدة في شيء ما، وقادرة على مساعدة نفسها، وليست عالة دائمة على فداء. لقد أعاد العمل لها ثقتها بنفسها، صحيح أن راتبها قليلٌ، لكنها شعرت لأول مرة بوجودها، أول مرة تعمل، عندما قبضت أول راتب كادت تطير من الفرح، دعت أختها فداء إلى عشاء فاخر، ضحكت فداء من سلوك هالة فقد

ذكَّرها بسلوكها عندما قبضت أول راتب، كانت تريد تغيير الدنيا به، ولكنه مهما كان فهو راتب متواضع وانتهى قبل وقته بكثير، وكما انتهى أول راتب مع فداء خلال أيام، كذلك حصل مع هالة، فرحة أول راتب تجعله يتبدد دون أن يعرف صاحبه أين ذهب، ولكن دون أن يندم عليه.

ضحكت هالة على نفسها عندما تذكرت راتبها الأول الذي كان بالنسبة لها بمثابة الاعتراف بفائدتها في الحياة، ضحكت أكثر لأنها لم تبدّد ذلك الراتب فحسب، بل بدّدت حياتها كلّها. جالت بنظرها على ركاب الطائرة التي تعلو البحر المتوسط، كل واحد وواحدة مشغول بنفسه، أو بمن معه، وهناك من ظهرت عليهم علامات الخوف من ركوب الطائرة. نظرت إلى جارها، كان مستغرقًا في نومه، بابتسامة على وجهه، حاولت أن تقدر بماذا يحلم هذا الرجل الستّيني، حسدته على سعادته التي تمنت أن تصيبها عدواها. فكّرت كيف تصيبها هذه العدوى والذين تحبهم يهربون منها، أو تهرب منهم؟ لماذا يعاقبها القدر، وعلى ماذا؟ فهي لم تؤذِ أحدًا حتى تستحق هذا العقاب القاسي. تهرب اليوم من المدينة التي أحبتها، اعتبرت أن دمشق لم تبادلها هذا الحب، ولم تكن منصفة معها، ولأنها كذلك، كان عليها أن تغادر المدينة. لم تكن قادرة على رؤية

الشفقة في عيون الآخرين، ولم تكن قادرة على سماع أي ملاحظة بشأن ما جرى معها وما ارتكبته بحق نفسها من كارثة. قالت لنفسها: «هربت من رجل إلى رجل إلى رجل، لأكتشف أنني هربت كل مرة إلى هاوية أعمق، وأني ما زلت عالقة مع الرجل الأول». عادت إليها ذكرى زيارتها إلى بيت حسني فاضل وعادت صورة زوجته هيام إلى مخيلتها. انتفض جسدها وكأنها قامت بتلك الزيارة المشؤومة قبل ساعات. تذكرت حالة من الاكتئاب التي تسببت بها تلك الزيارة، والرحلة الكئيبة التي أخذتها إلى مدينة حماة، التي لم تحبها يومًا. عندما عادت إلى دمشق قرّرت أنْ لا ترد على مكالمات حسني فاضل، وأن تقطع علاقتها معه، وأن تتجنبه في أحسن الحالات، وأن تبقي علاقتهما في حدها الأدنى، سلام مجاملة ليس إلا.

عادت إلى مكتب أستاذها بعد رحلة حماة، فوجدت مُدرَّبًا جديدًا، استغربت ذلك، فأستاذها محمد وهو زوج أختها، لم يسبق أن حدثها عن مدرب آخر سيأتي إلى المكتب. عندما دخلت المكتب، وجدت أستاذها يُملي على المدرب الجديد الدعاوى التي عليه أن يحضرها في ذلك اليوم. صُدمت بذلك ولكنها لم تعلق، نظرت إلى المُدرَّب الجديد نظرة دهشة ممزوجة بالكراهية. عندما شاهدها أستاذها تدخل المكتب، ظهر السرور على وجهه،

وقف مرحبًا بها وقال: «أهلًا هالة، الحمد لله على السلامة، طوّلت الغيبة». قالت بجفاء: «الله يسلمك، كله أسبوع». قال أستاذها: «أسبوع أو يوم، اشتقنا لك كثيرًا، المكتب من غيرك مظلم». قالت: «المكتب منوّر بأصحابه». قال: «صحيح، هالة أعرّفك على الأستاذ عامر المُدرَّب الجديد، يريد أن ينتقل ليتدرب عندنا، والده صديقي، ويتدرّب عند أستاذ لا يستفيد منه شيئًا». قالت: «تشرفت بمعرفتك». نظر إلى عامر وقال له: «أُعرِّفك، الأستاذة هالة، أستاذة الجميع في هذا المكتب». قال عامر وابتسامته على وجهه: «أنا سعيد بمعرفتك». وعلقت هالة على كلام أستاذها قائلة: «شكرًا على هذه المجاملة، لكنك تبقى أستاذنا». قال الأستاذ لعامر: «تستطيع أن تذهب وتحضر الدعاوى»..

حمل عامر دفتره وأوراقه واستأذن من الأستاذ ومن هالة وخرج أمام ذهول هالة. نظرت إلى أستاذها مندهشة، وسألت: «ماذا سأفعل أنا؟!». قال أستاذها: «ستبقين معي في المكتب». قالت: «أبقى في المكتب، فليكن». أراحها أن تبقى في المكتب، فهذا يجنبها صدفة أن تلتقي بحسني، وهي لم تكن راغبة في العمل، صحيح أنها استغربت من سلوك أستاذها، فعمل المكتب لا يحتمل مدرَّبين، فهو في نهاية المطاف سيكون على حساب أحدهما، وهي تعرف أنه

سيكون على حسابها، لأن حظها سيِّء، لكنها في ذلك الوقت لم ترغب في أن تفكر في الموضوع. استسلمت لرغبة أستاذها وبقيت معه في المكتب. سألها: «تشربين القهوة؟». قالت له: «شربت قبل خروجي من البيت، ولكن إذا كنت ترغب في ذلك أصنعها لك». قال: «أكون ممتنًّا لك». قامت عن الكرسي إلى جوار مكتبه وسارت باتجاه المطبخ الصغير الذي يقع مقابل غرفة أستاذها تمامًا، ويستطيع من جلس مكانه أن يرى المطبخ ومغسلة المطبخ ومرآتها من مكانه. نظر إلى خطواتها بالكثير من المتعة والاشتهاء، حركات مؤخرتها المتمايلة جعلت عينيه تخرجان من مكانهما، رغب بها كما لم يرغب بامرأة من قبل، وحُرْمتها كونها أخت زوجته جعلت رغبته بها جنونية، تأمّل ظهرها ومؤخرتها والجزء الظاهر البسيط من بطة رجلها، رغم أنها تلبس جوارب سميكة، وعلى رأسها الحجاب، تذكرها جيدًا قبل أن ترتدي الحجاب، وتذكر شَعرها الناعم المنسدل على كتفيها، تخيلها عارية على المغسلة وهي تصنع القهوة، حركاتها بعثت فيه الجنون، تمنى أن يلمسها، يقبّلها، يخترقها، انتصب قضيبه بقوة كما لم ينتصب منذ سنوات، شعر به سينفجر. أحس بالرغبة في امتلاكها واختراقها، وانتصابه بهذه الطريقة جعله يتوتر وظهر عليه الارتجاف. لمحت هالة التي

تصنع القهوة، في المرآة أمامها انعكاس صورته وشاهدت نظراته الشهوانية، شعرت بنظراته تُعريها، كان اضطرابه واضحًا لها في المرآة. قالت لنفسها: «لا بد أني أبالغ، لا يعقل أن ينظر إليّ هذه النظرة، فأنا في النهاية أخت زوجته!». هزت رأسها بقوة مبعدة الفكرة عن رأسها، عادت لتنظر في المرآة لتشاهد نفس النظرة الشهوانية في عينيه، عيناه ذكّرتاها بعيني عمها عندما كانت طفلة في العاشرة، عمّها الذي أصرّ عندما مرّت أمام دكانه، أن يدخلها ويعطيها بعض السكاكر، أجلسها في حضنه لأنها يتيمة الأم، شعرت شيئًا في حضنه تحت ملابسه يكبر ويقسو، يضغطها عليه، حتى يؤلمها، كانت عيناه تغيم، وصوت آهاته يعلو والشيء القاسي تحت مؤخرتها يؤلمها. صارت تبكي، فأنزلها عن حضنه، خرجت من الدكان هاربة. لم تعد يومًا إلى الاقتراب من عمها بعد تلك الحادثة، لم تكن قادرة على شرح لماذا لا تستطيع الاقتراب من هذا العم بالذات. عندما كان أبوها وأخواتها يسألونها تلوذ بالصمت، وعندما يسألون عمها يقول: «لا أعرف، اسألوها». لم تفهم يومها ما الذي جرى، ولكنها أحست، أن ما جرى يجب أنْ لا يتكرّر، أنها اليوم وبعد هذا العمر تعرف تمامًا ماذا كان عمها يفعل. وها هي ترى ذات النظرات الشهوانية والراغبة بها في عيني زوج أختها.

عندما انتهت من تحضير القهوة، حملتها على صينية وذهبت بها إلى الغرفة، عندما سارت باتجاهه توقعت أن يغير نظرته، وأن تلك النظرة الشهوانية يسترقها وهي لا تنظر إليه، وفي حال نظرت إليه سيغير تلك النظرة، ولكن عندما سارت باتجاهه وعلى عكس ما توقعت زادت نظرته شهوانية، أخذ ينظر إلى صدرها المهتز أمامها وهي قادمة تحمل القهوة كأنه يدعوه إلى احتضانه، رمقها بنظرات شبقة وشهوانية ووقحة وداعرة. خافت من نظرته، أخذت ترتجف ارتجافًا واضحًا، وهو ما ظهر من الأصوات التي تصدر عن الفناجين على الصينية التي ترتطم ببعضها جراء الارتجاف. توترها وصل أقصاه عندما وصلت الغرفة، وضعت القهوة على الطاولة الصغيرة التي تفصل بين الكرسيين أمام المكتب. أصبح الجو في المكتب متوترًا جدًا، وهي مشلولة لا تعرف ما الذي تفعله. عندما جلست على الكرسي، نهض هو من وراء المكتب وهو في غاية الانتصاب، لم يحاول إخفاءه، بل على العكس، كان يريدها أن تراه. عندما رأت قضيبه على هذه الحالة من الانتصاب تحت ملابسه، ارتجفت أكثر، أشاحت بوجهها متجاهلة ما شاهدت. عندما جلس قبالتها، عرف أنها شاهدت قضيبه منتصبًا وكان سعيدًا بذلك وهو ما ظهر على وجهه، ازداد ارتباكها واضطرابها، استرقت النظرات إلى

قضيبه المنتصب بين الوقت والآخر، ولأنه أدرك ذلك، جلس على الكرسي قبالتها وقد مدّد نفسه، بحيث يُبقي قضيبه المنتصب ظاهرًا لها، لم تعد قادرة على الاحتمال، أحست السوائل تخرج بين فخذيها دون إرادتها، حملت حقيبتها، اعتذرت قائلة: «أنا عندي شغل». لم تنتظر الرد. ركضت خارجة من المكتب. وبينما كانت خارجة، لمحت انعكاس وجهه السعيد في مرآة المطبخ الذي تركت بابه مفتوحًا، وكان وقف لينظر إليها وهي تغادر.

عندما خرجت من المكتب لم تكن مصدومة مما فعله زوج أختها والإثارة التي استثير بها تجاهها، فهي كانت تشعر بذلك منذ زمن بعيد. كانت مصدومة من نفسها، مستغربة كيف تحركت رغبتها، كيف نزلت سوائلها بهذه الكثافة، وهي تعرف مَنْ هذا وأي قرابة تربط بينهما. احتقرت نفسها، شعرت بأنها أغرته حتى استثير بهذه الطريقة ولم توقفه في اللحظة المناسبة، ولم تغادر عندما كان يجب عليها أن تغادر، لقد تركت الأمور تسير كما لا يجب أن تسير، اعتبرت أنه كان عليها أن تغادر المكتب منذ لاحظت النظرات الشبقة في عينيه في مرآة المطبخ. كل شيء كان واضحًا منذ تلك اللحظة، لكن اللعبة أعجبتها لبعض الوقت. احتقرت نفسها لأنها أخذت تسترق النظر إلى ذلك القضيب المنتصب تحت ملابسه،

وكأنها تستثيره أكثر بهذه النظرات المسترقة، وكيف أن هذه النظرات جعلتها تبلل نفسها بالسوائل. عندما وصلت إلى بيتها كانت خائرة القوى تمامًا وغريبة عن نفسها.

في اليوم التالي، شعرت بتوعّك شديد، لم تكن قادرة على التحرك، تعب شديد يهدُّ جسدَها. لم تكن قادرة على فعل أي شيء، ولم تكن قادرة على الاستعانة بأحد إخوتها، خافت أنْ لا تستطيع كتمان ما جرى، وهي لا تريد أن تتسبب بأي مشكلة لأختها الكبيرة التي تقدرها، وهي أصلًا لا تستطيع أن تقول أي شيء عمّا جرى، لأنها لو فعلت، سوف يُكذِّبها ويكذب بشأنها، وهي ليست أول مرة يفعل فيها ذلك، ولن تستطيع حينها أن تفعل شيئًا، لذلك وجدت أنه لا خيار أمامها سوى الصمت. لكنها لم تعد قادرة على احتمال انهيار جسدها، اتصلت بجارتها سعاد وطلبت منها أن تصطحبها إلى الطبيب. سألتها: «ما الذي جرى معك؟». لم تُجب، ولم تستطع رواية ما حدث، كل ما قالته: «أرجوك انزعي خط الهاتف». نزعت سعاد خط الهاتف من مكانه، ألبستها ملابسها، فهي لم تكن قادرة على حمل نفسها، أسندتها سعاد ونزلتا الدرج، لم تستطع مشي الخطوات القليلة التي تفصل بيتها عن المشفى الايطالي الذي يبعد حوالي مئتي متر عن منزلها. أركبتها سعاد

سيارة تكسي وأدخلتها المشفى، عندما عاينها الطبيب قال: «انهيار عصبي».. كتب بعض المهدئات وبعض الفيتامينات، وقال لسعاد «إنها تحتاج إلى الراحة».

صُدمت سعاد مما قال الطبيب، «أي شيء يجعل هالة تصاب بصدمة وتنهار، ومن ذلك الذي سبب لها مثل هذه الصدمة؟!». تركت هالة تستريح في المشفى لبعض الوقت حتى تحضر الدواء من الصيدلية القريبة من المشفى. عادت، أسندتها وعادتا إلى المنزل. مدّدتها على السرير، أحضرت لها كأس ماء، أعطتها الدواء، شربته ونامت. أعطت هالة لسعاد مفتاح بيتها الاحتياطي حتى تطمئن عليها، كي لا تضطر لفتح الباب لها بنفسها. كانت سعاد تعود لتطمئن عليها كل ساعة تقريبًا. عندما صحت في المساء كان وضعها أفضل، حضَّرت لها سعاد بعض الطعام الخفيف. بعد أن انتهت من تناول الطعام، شكرت سعاد بصوت متعب. لم تستطع سعاد السكوت، سألتها: «سلامتك، ما الذي حصل معك؟ يقول الدكتور انهيار عصبي، أي شيء يسبب لك الانهيار العصبي، الدنيا كلها ما بتساوي دمعة، فلماذا تصلين إلى الانهيار العصبي؟».. كأن كلام سعاد ذكرّها بالدموع، فأخذت تبكي. ارتبكت سعاد وأخذت بالاعتذار قائلة: «أنا آسفة، لم أكن أقصد مضايقتك، قلقت عليك،

وإذا كنت لا ترغبين في الحديث عن الموضوع، هذا يعود لك، أنا آسفة مرة أخرى». جلست إلى جوارها على السرير واحتضنتها. ومن بين دموعها أخذت تسبّ وتلعن: «السافل، الحقير، المنحط...». روت لسعاد ما جرى دون أن تقول من هو، لم تكن بحاجة لتقول حتى تعرف سعاد المقصود. عادت إلى احتضانها من جديد مقدّرة الموقف الصعب الذي تمر به. عندما انتهت من حديثها، رجتها أنْ لا تخبر أحدًا بما قالته لها.

في اليومين التاليين بقيت في سريرها، وبقيت سعاد تعتني بها طوال الوقت الذي تقدر عليه دون أنْ تُهمل بيتها. كان الموقف بمثابة الصدمة، ليس لهالة فحسب، بل لسعاد أيضًا، عندما سألتها هالة: «ماذا أفعل؟». لم تكن سعاد تملك الجواب، ولم تكن قادرة على نصحها. لاذت بالصمت وقالت لها: «كل شيء وله حل». ولم تكن مقتنعة بالكلمات التي تقولها، كانت متأثرة جدًا بالوضع الذي تعيشه هالة، وحيدة، تعاني من انهيار عصبي، غير قادرة على الاستعانة بأحد أقاربها، لأنها تخاف البوح بما جرى معها، ففي حال عُرفت القصة، قد تدفع إلى انهيار بيت أختها، وهي لا تستطيع أن تتحمل وزر طلاق أختها وخراب بيتها، حتى لو كان سلوك زوج أختها خاطئًا ومنحرفًا. انتقل ارتباك واضطراب هالة إلى سعاد، التي باتت تفكر طوال الوقت في

الـذي تسـتطيع هالـة فعلـه، وزاد مـن شـعورها بالنـار التـي تكـوي هالـة، عندما جاءت أختها هدى لزيارتها. غضبت عندما شاهدتها على تلك الحالة، وقالت لها: «لماذا لـم تخبريني؟ أنـت مريضـة، مـا عنـدك أهـل يقفـون إلـى جانبـك؟!». لـم تـردّ هالـة علـى أختهـا. لـم يعجـب الكـلام سعاد، لكنهـا لـم ترغـب في تصعيد الموقـف، فقالـت: «يـا سـت هـدى، إحنا أهل وهالة مثل أختي وأعز، ما حلو هذا الكلام، هالة لـم ترغـب في إقلاقكم». شعرت هـدى أن كلامهـا ذهـب إلـى مكـان لـم تكـن تريـده، فقالت معتذرة من سعاد: «أنا آسفة، لم أكن أقصدك بـالكلام، لـيس مـن المعقول أنْ أسمع من الآخرين، أن أختـي مفقـودة، منـذ يـوم أمـس قـال لي زوجي إنها لم تأت إلى المكتب، واليـوم كـذلك، ونحـن نتصـل منـذ يـومين ولا أحـد يجيـب، لا تريـد الـرد عليّ». قالـت سـعاد: «لا تفهمـي الموضوع خطأ، نزعنـا خـط الهـاتف لأن الـدكتور قـال إنهـا تحتـاج إلـى راحة تامة وعدم إزعاج، ليس لأنها لا تريد أنْ ترد عليك، فهـي لـم تكـن قـادرة علـى الـرد أصـلًا». سـألت هـدى: «ومـاذا قـال الـدكتور عـن حالتها؟». قالت سعاد: «قال تعب بسبب فقر الدم الذي تعرفينه ويُتعبهـا بين الحين والآخر».

لم تقـل سـعاد لهـا الحقيقـة، خافـت أنْ تصـرّ هـدى علـى معرفـة سـبب انهيـار أختهـا العصـبي. أعـاد وجـود هـدى في بيتهـا ذكـرى

الموقف قبل يومين وكأنه حصل منذ لحظات، وجدت نفسها تضطرب. انتبهت سعاد لاضطراب هالة، كما انتبهت هدى، أسرعت سعاد وناولتها أدويتها. عندما احتضنتها هدى، أخذت بالبكاء، أصاب البكاء هدى التي أخذت تقول لأختها: «خِفت عليك كثيرًا، أنا آسفة لأنني صرخت عليك». أنهك البكاء هالة وزاد من تعبها، وبعد قليل، أخذ الدواء مفعوله فعادت إلى النوم من جديد. لم تترك هدى هالة بعد ذلك، بقيت معها طوال الوقت، وهو ما جعل خروج هالة من مرضها يأخذ وقتًا أطول، وعندما اختلت هالة بسعاد بعيدًا عن أختها، سألتها هالة: «ماذا أفعل إذا أتى لزيارتي؟». قالت سعاد: «سيأتي لزيارتك، لا تفعلي شيئًا. من أجل أختك تعاملي وكأنّ شيئًا لم يكن». كانت الفكرة قاسية عليها، ولكن لم يكن لها خيار آخر. قالت: «سنرى»..

أحست هالة أنها تحمل له كراهية لم تحملها لشخص آخر في حياتها كلها. أخذت تتصور الموقف عندما يأتي لزيارتها، لكنها عجزت عن تجسيده بأي شكل، ففكّرت في أنه سيخجل من نفسه ولن يفعلها ويأتي، لكنها كانت مخطئة. لقد اتصلت هدى بزوجها وأخبرته بمرض هالة التي لم تنتبه لتلك المكالمة. قبل أنْ تنتهي من تفكيرها، رنَّ الجرس، دخل أستاذها وهو يحمل باقة ورد كبيرة،

وضعها على الطاولة في الصالة. دخل إلى غرفتها مرحًا وبوجه بشوش ومرتاح على عكس ما توقعت. منذ دخوله أخذ يمازحها قائلًا: «طبعًا، يحق لك الدلال، لا أحد يستحقه أكثر منك». عندما شاهدته لم تشعر تجاهه بتلك الكراهية التي شعرتها قبل ساعات. انزعجت منه، ولكنها لم تشعر بالكراهية. شعرت أنها منزعجة من نفسها أكثر مما هي منزعجة منه. لم يجلس، تمشّى قليلًا في غرفتها، سأل زوجته عن حالتها. قالت: «كالعادة، فقر الدم». سارت الزيارة أسهل بكثير مما توقعت هالة. عندما خرج لوّح بيده لها وقال: «المكتب بانتظارك، لا تُطيلي الغيبة، من دونك المكتب لا يساوي شيئًا». ابتسم ابتسامة البراءة، هزَّ لها برأسه وقال: «سلامتك».. استغربت من نفسها وكيف تنقلب أحوالها بين ساعة وأخرى، شعرت بنفسها مرتبكة ومشوّشة ومتقلبة.

كانت مندهشة من نفسها وسلوكها، لقد أعدت خلال اليومين الماضيين مئات الجمل القاسية التي قرّرت أنها ستُسمعها له عندما يتقابلان المرة القادمة، ستقول تلك الجمل في وجهه ولن تراه بعد ذلك ولن تذهب إلى المكتب، لكن لم يحدث شيء من ذلك، وجدت نفسها عاجزة عن أن تقول أي كلمة، كانت عاجزة عن الرد على مجاملاته. فسّرت الأمر بأن وجود أختها هو الذي منعها من أن

تقول الكلمات التي أرادت قولها، فهي لا تريد أن تتسبب لأختها بأي مشاكل، ولكن بعد مغادرته وجدت نفسها أقل غضبًا. وبعد عدة أيام وجدت نفسها تعود إلى المكتب، فلم تكن قادرة على تركه وتفسير ذلك لأختها. عادت إلى المكتب مرغمة كما كانت تواسي نفسها، ولكنها ألزمت نفسها عدم الانفراد به في أي مكان، خاصة المكتب. عندها أعادت النظر في وجود عامر المُدرَّب الجديد في المكتب، فهو يصلح حاجزًا بينهما.

عندما عادت إلى المكتب في المرة الأولى بعد مرضها، وجدت عامر هناك، كانت فرِحة بوجوده، أخذت تلاطفه كما يلاطفها. قال عامر: «سلامتك أستاذة هالة، كنت أرغب في أنْ أزورك مع الأستاذ، ولكن عمل المكتب منعني». ردت: «الله يسلمك، اعتبر زيارتك حصلت، كيف الشغل؟». سألت سؤالها لتغير الموضوع. شاهدهما الأستاذ على وفاق، عكس اللقاء الماضي الذي عرف فيه من ملامح هالة أنها لم تكن سعيدة بوجود عامر في المكتب. اليوم يبدو تعاملها معه مختلفًا. قال الأستاذ: «متى ستذهب يا أستاذ عامر؟». قال عامر: «حالًا يا أستاذ». لملم أوراقه، وضعها داخل أجندته وحملها واستعد للذهاب. قال لأستاذه: «هل تريد شيئًا مني يا أستاذ؟ أنا ذاهب». وقبل أنْ يكمل جملته، سمع هالة تقول: «انتظر أستاذ

عامر، أنا ذاهبة معك». التفتت إلى أستاذها، وقالت: «أتريد شيئًا مني يا أستاذ؟». حملت أجندتها وسبقت عامر أمام ذهول أستاذها. لم يكن هناك شيء يمكنه إيقافها، عرف أستاذها ذلك وقال بخيبة: «سلامتكم، الله معكم، سألحقكم بعد قليل».

عرف أستاذها من سلوكها، أنها ستعمل على تجنب أنْ يبقيا منفردين في القادم من الأيام. كان سلوكها على عكس ما توقع، هو اعتقد أن السمكة علقت في الصنارة. صحيح كان قلقًا لغيابها بعد ذلك اليوم، لكن في زيارته لها لم تعبر عن أي رفض له، صحيح كان وجهها متعبًا من فقر الدم الذي تعاني منه كما أخبرته زوجته، وهو مرض ليس له علاقة به، لم يحمل وجهها أي تعابير اعتراضية أو تعابير رفض له، ملامحها ملامح شخص مريض مرتاح، وهو ما فهم منه أن ما جرى في المكتب بينهما لم يشكل عندها أي ضغينة تجاهه، وجعله يفكر في الأيام التالية بعد الزيارة وقبل عودتها إلى المكتب، كيف سيكمل اللعبة معها وكيف يُصعّدها، أما أن تأتي بتصرف كهذا، فهذا يعني أنها ترفضه، وهذا ما جعله غاضبًا جدًا، ليس منها فحسب، بل من سوء تقديره أيضًا. أخذ يهدأ بعد أنْ فسَّر هذا السلوك «دلع بنات». فحسب ما فسَّر لنفسه، ليس من المعقول أنْ ترتمي مباشرة داخل علاقة من هذا النوع، عليها أن تستوعب

بالتدريج، أراحه هذا التفسير وجعله يعيد التفكير بسلوكه تجاهها حتى يخرجها من دلعها.

لم تشعر هالة بحاجتها لفداء مثلما شعرت في ذلك الوقت، لقد تركتها وسافرت إلى أميركا قبل ثلاث سنوات. كانت فداء الوحيدة القادرة على جعلها تشعر بالأمان. شعرت بوحدة قاتلة جراء أزماتها المتتالية، وشعرت أنها بدأت رحلة هروب لن تستطيع وقفها، هربت من حسني فاضل، وها هي تهرب من أستاذها، والله أعلم من الذي ستهرب منه في الغد. كان بكاؤها على صدر فداء يجعلها تشعر بالراحة، لكن هذا الصدر اليوم بعيد آلاف الكيلو مترات، لا تستطيع الوصول إليه رغم حاجتها الماسّة له. شعرت كأن فداء هربت منها وتخلت عنها وتركتها لمصيرها البائس مع الجدران الباردة. البيت الذي تقيم فيه هالة هو بيت فداء تركتها فيه وغادرت إلى الولايات المتحدة، لحقت حبها هناك، ولأنها كانت تقيم في بيتها، كل شيء يذكرها بها طوال الوقت، صحيح أنها لم تعُد خلال السنوات اللاحقة، لكنها تتصل بهالة كل أسبوع لتطمئن عليها وعلى إخوتها، الذين خاصموها والذين لم يخاصموها، وعندما أصبحت هناك شبكة انترنت صارت تتحدث معها كل يوم.

أثار زواج فداء عاصفة لم تهدأ. فجأة وبسبب هذا الزواج انقلب إخوتها الرجال ضدها، ولم تستطع أخواتها النساء الدفاع عنها. لقد كانت عالقة هي وإدوارد في حب جنوني وغير مفهوم، لا لها ولا له. هناك شيء شدّهما لبعضهما بحبال سميكة لا خلاص منها. لم يثنِ إدوارد عن قراره، عدم رؤية فداء في الأيام التي قضاها في دمشق عندما توفي والدها، لم يفهم لماذا لا يستطيع مرافقتها لمواساتها في تلك اللحظات العصيبة. لم يكن قادرًا على فعل شيء، أمامه ثلاثة أيام يقضيها في دمشق وحيدًا. جال على دمشق وآثارها، ذهب إلى معلولا ليزور كنائسها، وليسمع اللغة الآرامية التي كانت لغة المسيح، لم يكن متديّنًا، لكنه يريد أنْ يقضي الأيام التي بقيت له في دمشق، كان ضجرًا دون فداء، لم تكن عيناه قادرتين على رؤية جماليات الأشياء دون فداء، كأنه لا يرى هذه المدينة إلا بعينيها. في الفجّ الصخري العميق في معلولا الذي يقطعه السياح ليجدوا أنفسهم على الطرف الثاني من البلدة، كان يتوقع فداء في الالتواء الثاني للفجّ الجميل، بحث عنها كل الوقت وفي كل مكان، بحث عنها في وجوه النساء في سوق الحميدية الشعبي، رغم أنه يعرف أنها هناك في مأتم والدها في حماة، توقع أن يراها في كل لحظة، تمنى أن يراها قبل أن يغادر، ثلاثة أيام قاسية، شعر فيها أنه يتعلق بهذه المرأة

التي لم يعرفها سوى لأيام وبعض الهواتف المتقطعة، تعلُّقَ حياة أو موت. هو لا يكاد يعرفها ويتعلق بها كل هذا التعلق، حاول ايجاد تفسيرٍ، لكنه لم ينجح. عاود المحاولة لإقناع نفسه أن هذا التعلّق ليس حقيقيًا، إنما هو وهمٌ أحبه كمغامرة ما بين القارات، شيء غامض أحب أن يزيده غموضًا ليخرج من عمل الأرقام والتقنيات التي تقتل روحه، فكان يحتاج لوهم هذا الحب في الشرق الساحر حتى يغذي روحه. كانت الفكرة وجيهة، لكنها زادت تعلقه بها. إنه يعرف نفسه، ليس راهبًا وليس دونجوانًا، عرف العديد من النساء، لكن أيًا منهن لم تجعله يشعر بمثل هذا الإحساس بالفقدان، ولا واحدة منهن أشعرته بهذا الضعف الذي أحسه تجاه هذه السمراء. عندما يستعيد ملامحها، لم يكن يشعر أن فيها شيئًا خارقًا، صحيح أنها جميلة ولكنه عرف نساء أجمل منها، لم تقبض أيٌّ منهن على روحه مثلما قبضت هي عليها. تعب من التفسيرات، وكل تفسير مهما كان متناقضًا مع السابق يجعله أكثر تعلقًا بها، سواء كان هذا التفسير، أن هذه المرأة هي التي حلم بها منذ المراهقة، هي فتاة أحلامه بكل تفاصيلها، أو التفسير الذي يقول إنها مجرد وهم ولحظة عابثة في حياته، كل هذه التفسيرات تؤدي إلى ذات النتيجة بالنسبة له، أن هذه السمراء القليلة الحجم هي قدره الذي لن

يستطيع أن يرده. استسلم إلى فكرته الأخيرة وكفّ عن محاولة التفسير التي شغلته في أيامه الثلاثة وحيدًا في دمشق، فهناك أشياء عصية على التفسير، ولأنها كذلك عاد إلى التفكير بجمال مشاعر الحب التي لم يعرفها قبل تعرّفه إلى فداء، مشاعر لم يشعر بها من قبل، مشاعر بات من المؤكد أنها ستغير حياته إلى الأبد. كان واثقًا من ذلك، ولكنه لم يعرف في أي اتجاه ستذهب حياته مع هذه المرأة. في يومه الأخير في دمشق قرّر أنه لن يتخلى عن هذه المرأة مهما كانت الأسباب، صحيح أن حظه العاثر جعل توقيت وفاة والدها مع وجوده في دمشق، لكن قد يكون ذلك لصالحه، لقد منحه هذا الحدث الطارئ الفرصة ليكون وحيدًا مع نفسه ودون عمل. وحيدًا يراجع حياته التي شعر أنها تفتقد للحرارة والدفء، وشعر أن تلك المرأة هي الوحيدة القادرة على إشعال النار في حياته الباردة، فقرّر أن يبقى إلى جانبها مهما كان الثمن، حتى أنه لم يستبعد أن يأتي للعيش في دمشق إذا احتاج البقاء جانبها ذلك. ضحك من فكرته الأخيرة، وسأل نفسه: «ما الذي سأفعله هنا؟». وجد نفسه متحمسًا جدًا، شعر أنه يحتاج إلى التغيير أكثر من أي وقت مضى، فحياته التي كان لها هدف وحيد هو العمل والمزيد من العمل، أصبح من الضروري تغييرها. لم يفكر سابقًا بهذه الطريقة، ولم يكن يعرف هل

معرفته بفداء هي التي فرضت عليه هذا التغيير، أم أن تفكيره بالحاجة إلى تغيير حياته جذريًا هو الذي جذبه لهذه المرأة؟ لم يكن قادرًا على حسم الإجابة على هذا السؤال، وشعر أن الإجابة عليه لا معنى لها وليس مهمًا أيهما استحضر الثاني، المهم الآن أنه يفكر بطريقة مختلفة عن تلك التي كان يفكر بها قبل عدة أشهر. لقد تجاوز الأربعين ولم يفكر يومًا بأنه يصلح لبناء أسرة، كان يعتبر الأسرة شيئًا فائضًا عن الحاجة، لا يلزمه، من يريد أن يبني أسرة فليفعل ذلك، أما هو فقد شعر أنه لا يمكن أن يحتمل قيود الأسرة، ولا يحتاجها، لذلك أخرجها من تفكيره نهائيًا. شعر أن لا شيء نهائي في هذه الحياة، وما اعتبره نهائيًا لن يعود للتفكير به، ها هو يلح عليه من جديد، لم يعد مترددًا بهذا الاتجاه وإذا كانت الأسرة تعني داء، فهو يريدها اليوم بذات القوة التي رفضها بها سابقًا، وهذه قضية محسومة ونهائية، كما كان عدم دخول مؤسسة الزواج محسومًا ونهائيًا. لم يفكر كثيرًا وقرّر أنه في أول اتصال مع فداء سيطرح عليها الفكرة.

في حزنها على والدها أيام العزاء، كان إدوارد يخطر لفداء بين الحين والآخر، أسِفت لأنه قطع كل تلك المسافة، ولم تتمكن من إكمال بقية الأيام القليلة معه. هي متأكدة أنه أتى إلى دمشق من أجلها،

وكانت مسحورة بالمفاجأة التي قدَّمها لها، وواثقة أنه يحبها، كل شيء يقول ذلك، كلامه، عيونه، حركة جسده، ابتسامته، فرحه الطفولي... كل شيء فيه يقول لها إنه يحبها. لم تكن واثقة بالطريق الذي يمكن أن يسلكه هذا الحب. من أجل ذلك لم تسأل نفسها الكثير من الأسئلة حول مصير هذه العلاقة، عاشتها دون هذه الأسئلة. حتى عندما غادرها في المرة الأولى ووجدت نفسها طريحة الفراش لأنها لم تحتمل غيابه عنها، لم تفكر في المصير القادم لهذه العلاقة. وعندما عاد من أجلها كأن روحها الغائبة عادت إليها. عندما كانت تتذكره في العزاء تغمض عينيها أسفًا ممزوجًا بالمرارة، وتفكر: ما الذي يفعله وحيدًا في المدينة الغريبة عليه، وهل سيعرف التجول فيها دون وجودها معه؟ كانت تعرف أن أسئلتها ساذجة، ولكنّ ما باتت تعرفه كعاشقة حديثًا، هو أن العشاق يهتمون بالتفاصيل الصغيرة لمن يعشقون، ليس لنظرات العيون وارتعاشات الجسد فحسب، بل لطعامهم وملابسهم وشؤونهم الصغيرة أيضًا، حتى لربطات أحذيتهم. كان حزنها على والدها مشوبًا بالقلق على علاقتها الجنونية وغير المتوقعة مع إدوارد. لم تعتقد يومًا أن فخ الحب سيطبق عليها بهذه القوة ويسلبها إرادتها لتقلق هذا القلق على مصير العلاقة التي شعرت أنها على مقاسها، كأنها عاشت عمرها في انتظار هذا الحب.

تمنت أن تسمع صوته قبل أن يغادر دمشق، في اليوم الثاني للعزاء، اتصلت بالفندق لتسمع صوته، لكن عاملة الاستعلامات أخبرتها أنه خارج الفندق، كانت تعرف موعد سفره الثامنة صباحًا من اليوم الثاني. فكّرت أن تترك رسالة له في الفندق من كلمة واحدة تقول «أحبك». لكنها خجلت ليس من عاملة الاستعلامات بل من ظرف الوفاة الذي تمر فيه، ووجدت أن الرسالة ستكون نافرة إذا تركتها بهذه الطريقة، مع أنها شعرت بحاجة مُلحّة أن تقول لإدوارد هذه الكلمة تحديدًا، وأن قولها سيريحها أكثر من أي شيء آخر. بدل ذلك تركت له رسالة تقول: «اتصلت فداء وتقول: «اعتنِ بنفسك وسوف أنتظرك». عندما أمسك إدوارد الرسالة التي كتبتها عاملة الفندق بيدها، كان سعيدًا بأن تكون فداء تفكر به وهي في ذلك الظرف. وأسعده أكثر أن يقرأ تلك الكلمات التي كان وقعها عليه أكثر من تلك الكلمة التي أحجمت فداء عن قولها. سرعان ما لام نفسه على سعادته وفداء تمر بذلك الظرف، عاوده الحزن من أجلها. سهَّلت الرسالة عليه سفره، لأنه كان يريد إشارة من فداء تقول له إنها بخير وإنها تتذكره، وهذه الكلمات هي الإشارة. احتفظ بالورقة ووضعها في جيبه، في الطريق الطويل إلى نيويورك، أخرج الورقة عدة مرات وتأملها.

عـادت فـداء مـن حمـاة إلـى دمشـق بغصّـتين، الأولـى فقـدانها لوالـدها، والثانيـة عـدم قـدرتها علـى لقـاء إدوارد قبـل سـفره. كانـت الغصـة الثانيـة أشـد مـرارة مـن الأولـى، فقـدانها لوالـدها كـان بسـبب القدر وهذا لا يمكن للإنسـان أنْ يـرده، قـدرٌ سيصـيب كـل إنسـان في نهاية المطاف. أما الغصة الثانيـة فكانـت القلـق والخـوف مـن فقـدان إدوارد بعد أن وجدته، فقدانه وهو حي في البلدان البعيدة. خافـت أن تأخذه تلك البلدان منها، انشـغالاته وعملـه وسـفره، شـعرت أن كـل شيء يهدد علاقتها معـه، زاد خوفهـا عنـدما فكّـرت في المسـافة التـي تفصلهما. مرت الساعات عليها ثقيلة، كانت تحتـاج لسـماع صـوته، حَسَبت ساعات السفر، وفي أي وقت يصل، وفي أي وقـت سيتصـل، ولكنها لـم تنتظر، عندما قدرت أنه وصـل، رفعـت السـماعة وطلبـت رقمه، رنّ الهاتف في الطرف الثاني دون أن يرفع أحد السـماعة. ازداد قلقها، لـم تكن قادرة على سماع أي خبر سـيء آخـر، ولأن السـيئ لا يجلـب إلا السـيئ، أخـذت تفكـر: أي مكـروه أصـابه؟ زاد خوفهـا وقلقها عليه، لـم تعد تريـد سـوى الاطمئنـان عليـه ولا يهـم أي شـيء آخر حتى مصـير علاقتهمـا، كانـت تريـد أن تتأكـد أنـه بخيـر والبـاقي ليس مهمًا علـى الإطـلاق. عنـدما رنّ جـرس الهـاتف ركضـت عليـه بلهفـة، قـال لهـا إحساسـها أنـه هـو، هكـذا اعتقـدت. عنـدما رفعـت

السماعة وقالت بسرعة وبلهفة: «ألو». مستعجلة الطرف الثاني على الرد بسرعة لتسمع ذلك الصوت الذي تنتظره. شعرت بالخيبة والخذلان عندما سمعت صوت منى صديقتها القديمة التي عملت معها في المركز الثقافي البريطاني يقول معزيًا: «البقية بحياتك، يسلم رأسك...». ردت فداء وبصوت مختلف عن الذي بدأت به المكالمة قائلة: «بحياتك الباقية، الله يسلمك». وأخذت ترد عليها وكأنها مجيب آلي. كان عقلها مشغولًا في قارة أخرى، مشغول بالخوف على الرجل الذي استولى على حياتها بشكل فجائي. كانت خائفة وقلقة من تأخره، وهي لا تريد أكثر من الاطمئنان عليه، عاودت الاتصال كل نصف ساعة دون مجيب في الطرف الآخر. وكلما رنّ الهاتف تتحفز لتسمع صوت إدوارد على الطرف الآخر، ويكون المتصلون معزّين بوفاة والدها وهو ما يشعرها بالخيبة. أخذت تفقد الأمل في سماع صوت إدوارد، وكانت أصوات المعزّين تزيدها توترًا واضطرابًا. لم تعد ترغب في الرد على الهاتف، فطلبت من هالة أن ترد، وأن تعفيها قدر ما تستطيع من الرد على المكالمات. استمرت مكالمات التعزية في تلك الليلة حتى وقت متأخر. شعرت فداء بالتعب الشديد، تعب لم تشعر به من قبل، أحست جسدها مفككًا، ظهر تعب الأسبوع الذي قضته في

حماة على جسدها. حتى تعب الروح الذي شعرت أنه يأكلها لمفارقة حبيبين، والدها وإدوارد، أخذ يظهر على جسدها. شعرت أنها بحاجة إلى نوم عميق وطويل، نوم يساعدها على التخلص من تعب جسدها وأوجاع روحها. توقف الهاتف عن الرنين، فقد تأخر الوقت ولن يتصل أحد بعد ذلك. قرّرت الذهاب إلى النوم في فراشها، فلم تعد تستطيع تحمل تعبها، جسدها يكاد ينهار، وهالة ذهبت إلى غرفتها منذ زمن وهي تنام بعمق، لقد أطلّت عليها في غرفتها، شاهدتها غارقة في النوم، تشخر من التعب.

عندما رنَّ جرّس الهاتف، كانت ذاهبة إلى النوم، رفعت السماعة، وقالت: «ألو». سمعت على الطرف الآخر صوت إدوارد يقول لها: «كيف حالك، لا أعرف كيف تُعزّون عندكم، لكن ما أستطيع أن أقول هو أن قلبي معك، وقد تركته في انتظارك في دمشق». ما أن سمعت صوته حتى أخذت تشهق في البكاء، بكاء فرح، بكاء الاطمئنان، لم تكن قادرة على الرد عليه، ضحكت وبكت. أقلق بكاؤها إدوارد، عندما استطاعت السيطرة على نفسها، قالت وهي تشهق بسبب البكاء: «لقد خفت عليك كثيرًا، لماذا لم تتصل عندما وصلت؟!». قال إدوارد: «وصلت منذ قليل، لقد تأخرت الطائرة في روما، وقد اتصلت بالأمس من روما لأخبرك أني

سأتأخر، ولكن لم يرد أحد». قالت: «لم نكن قد وصلنا بعد». صمتت قليلًا ثم أضافت: «إدوارد. أنا آسفة على ما حصل». قال: «ليس لك ذنب في ما حصل حتى تعتذري، كنت منزعجًا لأني لم أستطع أن أكون معك في تلك اللحظات، قلبي كان معك، وكانت فرصة أن أجد نفسي وحدي دون عمل، حتى أحاور نفسي». أصبحت مرتاحة في حديثها بعد أن هدأت من موجة البكاء التي أصابتها، وقد استعادت صوتها الطبيعي عندما سألته: «وبماذا حاورت نفسك؟». قال: «بصراحة لم يكن حوارًا، كان تفكيرًا دائمًا بك. شيء لم أشعر به من قبل، شيء غريب، سألت نفسي كل الأسئلة التي تتعلق بك، كيف ولماذا ومن أين جاء كل هذا الحب والتعلق بك؟!». سألته: «وهل وجدت الجواب؟ لأنني اسأل نفسي الأسئلة ذاتها ولم أجد جوابًا». ضحك إدوارد وجاء صوت الضحك عذبًا عبر أسلاك الهاتف، أصابتها عدوى الضحك وأضافت: «أنا لا أجاملك، فعلًا أنا سألت نفسي الأسئلة ذاتها وقد يكون بالألفاظ نفسها ولكن بالعربية». ضحكت وضحك هو وقال: «أنا أملك الجواب، فبعد تفكير طويل، وبعد تكرار الأسئلة والبحث بوجوهها المختلفة، اكتشفت أنني لا أجد أجوبة على هذه الأسئلة، فهناك أسئلة في الدنيا ليس لها أجوبة. وقلت لنفسي عليك أن تعيش

الحب، لا أن تقتله بالأسئلة، واترك الأسئلة للحياة لتجاوب عليها أو لا. لا فرق. ما أعرفه الآن، هو أني أحبك، وأريدك معي إلى الأبد، هذا القرار نهائي، وبعد تفكير طويل لم يكن له لزوم».

استمعت إلى كلماته وهي في غاية الدهشة، كأنه لسان حالها، وكأنه يجيب فعلًا على الأسئلة التي طرحتها على نفسها، وهي فعلًا أسئلة لا تحتاج إلى أجوبة، لقد أضنت نفسها بالتفكير، وهو فعل ذلك، على أسئلة لا تحتاج كل ذلك. فعليهما أن يفكرا في الحب، لا أن يفكرا كيف ومتى ولماذا؟ كانت سعيدة بتلك الإجابة. قالت له: «وأنا أحبك وأريدك إلى الأبد». قال: «إذا أعدي نفسك، عندما تنتهين من أحزانك، سوف نتزوج». عندما سمعت كلمة «نتزوج». وقع قلبها داخل صدرها، شعرت كأنها في حلم جميل، نفضت رأسها مستبعدة الفكرة وقالت له: «أنت مجنون». قال: «أنا مجنون إن لم أفعل ذلك». باتت عاجزة عن التفكير، ولم تتوقع أن يعرض عليها إدوارد الزواج، وإذا كانت قد توقعته فهي لم تكن لتتوقعه في مثل هذا الظرف. عادت وكررت: «أنت مجنون... أنت مجنون». انتفض جسدها محمومًا وهي تقول كلماتها. فهم إدوارد من كلامها أنها ترفض فكرة الزواج منه فسألها مباشرة: «هل تقبلين الزواج مني؟». أجابت دون تردد: «طبعًا، طبعًا. ولكن هذا لا يعني أنها

ليست فكرة مجنونة وأنا وأنت مجانين».. قال: «نحن مجانين أو عاقلون ليس مهمًا، المهم أعدّي نفسك لهذا الجنون». فرحت جدًا، نسيت في تلك اللحظات وفاة والدها، وحلقت في أفكارها مع الجنون الذي عرضه عليها إدوارد. عندما وضعت رأسها على الوسادة كانت ابتسامة السعادة تزين وجهها، هذه الابتسامة التي غابت عنه منذ زمن طويل.

فكّرت طويلًا بما قاله إدوارد، وكلما اتصل تحاول التأكد من أنه جادٌّ في ما قاله، وليس مجرد لحظة عابثة في حياته وتمر. في كل اتصال يزداد إصرّارًا، منحها ذلك إحساسين متناقضين، إحساس بالسعادة وآخر بالخوف. تأتي السعادة من رغبته القوية بالعيش معها إلى الأبد، فهي وجدت الرجل الذي تحبه من دون أن تبحث عنه، ظهر فجأة كالعاصفة، وهي سعيدة بهذه العاصفة التي غيرت حياتها وقلبتها رأسًا على عقب. عاشت مشاعر وأحاسيس لم تشعر بها من قبل، وجدت مع إدوارد ما كان ينقص حياتها، هي تعرف أنها عاشت حياتها امرأة محظوظة، ولكن حياتها المحظوظة كان ينقصها حظ إضافيٌّ لتكتمل وتتحول إلى الحياة النموذجية التي أرادتها، أن تجد من تحبه ويحبها، وهي وجدت إدوارد واكتملت دائرة الحظ. في الوقت نفسه خافت من هذا الاكتمال، وخافت عليه، فهي لم تتوقع

أن تكون الحياة كريمة معها إلى هذا الحد. خافت من الاكتمال لأنها خافت أن تخسره، خافت أن يتبدد الحلم كما ولد سريعًا كالعاصفة، خافت من المغامرة ومن تغيير حياتها بهذه الانعطافة الخطرة، لم تتوقع يومًا أن تذهب لتعيش خارج دمشق، لا من أجل عمل ولا من أجل زواج. لم تسعَ لمغادرة دمشق يومًا، رغم العديد من الفرص التي رفضتها كلها، فهي لم ترَ فرصتها في أي مدينة أخرى أفضل من حياتها في دمشق، ليس من جانب المال، فقد عُرضت عليها أعمال تجلب لها مالًا أكثر. لقد أحبت المدينة التي كانت كريمة معها، ولم تسعَ لمغادرتها من أجل مزيد من المال، فعملها يمنحها ما يكفيها منه وزيادة، صحيح أن عملها متعب، لكنه تعب في مدينة تحبها، إحساس لن تمنحها إياه المدن الأخرى. كان خوفها من حياة جديدة في عالم لا تعرفه، وعدم معرفة مشاعرها تجاهه يخيفها، تخيفها مغادرتها لمدينة تحبها إلى مدينة لا تعرفها. كانت تثق بإدوارد ولكن عندما تفكر، ماذا لو لم يستحق هذه الثقة؟! زاد السؤال من خوفها. طلب إدوارد الزواج منها بالنسبة لها مغامرة تخيفها وتسعدها، مغامرة تحمل كل المخاطر، تضعها في طريق المجهول، وهي دائمًا تخاف من المجهول، ولأنها كذلك، عرض عليها القدر تجربة غامضة ومجهولة العواقب تمامًا. لم تكن

مترددة، كانت خائفة من الانعطافة الكبيرة في حياتها، طوال الأشهر التي قضتها تفكر لم تصل إلى قرار، كانت دائمًا تؤجله إلى اللحظة الأخيرة. تقول لنفسها: «عندما يأتي اليوم الذي سيقول فيه إنه سيأتي ليتزوجني سأحسم أمري». عندما حسم أمره بعد خمسة أشهر وقال لها: «أنا قادم في الأسبوع المقبل لنتزوج». لم تكن قد حسمت أمرها، وقالت: «عندما يأتي إلى دمشق سأحسم أمري». لم تناقش خوفها مع إدوارد عندما تحدث عن الزواج بحماس، كانت تتحدث بحماس أكثر منه، وتقول له: «أنا مستعجلة أكثر منك». أجبرها خوفها على تأجيل قرارها. المرة الوحيدة التي ناقشت مع إدوارد مخاوفها مواربة، اقترحت عليه فكرة كانت تعرف أنها حمقاء، قالت: «ماذا يحصل لو تزوجنا وبقيت أنت في نيويورك وبقيت أنا في دمشق؟». ضحك إدوارد عندما سمع الاقتراح وقال: «تقولين عني مجنون، هل هناك جنون أكثر من هذا الاقتراح؟!». لم تعد لطرح الفكرة الجنونية. قبل أن تقترحها عليه، خطرت لها الفكرة عندما قالت لها إحدى صديقاتها في دردشة، إن أختها تقول إن الزواج بدوام جزئي أفضل من الزواج بدوام كامل. كان الرجل يعمل في بيروت ويأتي إلى دمشق يومين في الأسبوع، وهو ما جعل حياتهما أكثر راحة وأقل مشاكل من الفترة التي عاشا فيها مع بعضهما قبل أنْ

يجد ذلك العمل في بيروت. وقتها قالت فداء لنفسها: «إنها فكرة معقولة». عادت لتقول لنفسها: «لكن هذه نيويورك وليست بيروت. إنها في الطرف الثاني من العالم». هزت رأسها لطرد الفكرة، لكنها ظلت تلحّ عليها. يتزوّجان، هو في نيويورك، وهي في دمشق، ولكن عندما ضحك إدوارد من الفكرة المجنونة، لم تكفّ عن الحديث عنها فحسب، بل كفت عن التفكير بها.

عندما جاء إدوارد إلى دمشق زاد اضطرابها، كيف تقدّمه إلى أهلها، وكيف تقنعهم بأنها ستتزوج من أجنبي، وماذا سيكون رد فعلهم، صحيح أنها تعيش وحدها، لكن في تلك اللحظة عرفت أنها ليست الوحيدة التي تتحكم بزواجها، وأنه يخصّ الآخرين كما يخصها، يتدخلون ويؤثرون به، كانت جاهلة أي إجراءات يحتاجه زواجهم، لم تخبر إدوارد بشيء لأنها ببساطة لم تكن تعرف. فعندما أتى إدوارد إلى دمشق لم يكونا يعرفان ماذا سيفعلان بالإجراءات. عندما طلبت من إخوتها أنْ يستقبلوا إدوارد لأنه يريد خطبتها، رفض جميع إخوتها أنْ يتقبلوا طلب إدوارد للزواج منها، فقد كان موقفهم موحّدًا: إنهم لن يقبلوا زواجها من أجنبي، وقد أشعل خبر مشروع زواجها النار في العائلة، وهدّد أخوها الكبير عبد الله: «إذا تم هذا الأمر، سأذبحها بيدي». وكان يعني ما يقول، وقال لإخوته الباقين:

«صحيح أنها تقيم وتعمل في دمشق، وصحيح أني غير راضٍ عن هذا، ولكن أن تأتي لنا بالعار هذا موضوع آخر، يبدو أنها نسيت أننا مسلمون ومن حماة. وحياة كتاب الله، إذا تزوجت فداء من هذا المسيحي لأذبحها بيدي». ورفع يده شادًا عليها بقوة. وعندما حاول زوج أخته المحامي أن يُهدّئ من غضبه قائلًا له: «أنهما لن يستطيعا الزواج في البلد دون أن يُشهر إسلامه أمام القاضي الشرعي». قال عبد الله: «حتى لو حصل ذلك، لن أوافق، لأن إسلامه سيكون كذبًا ونفاقًا». في ساعات تحولت حياتها إلى جحيم، كل شيء قد تم نسيانه في تلك الساعات، ولم يبقَ من صورة فداء في أعين إخوتها سوى تلك المرأة التي تريد أنْ تُهينهم وتجلب لهم العار بالزواج من مسيحي. فجأة، تحولت فداء من مُضحِّية إلى جالبة للعار، لم تُغفر لها سنواتُ تضحيتها، لم تغفر لها أمومتُها، هناك شيء راكد طفا على السطح كانفجار غير منتظر، إدوارد المسيحي وفداء المرتدة، لم يقبل إخوتها هذه الصورة، التي لم يروا غيرها. توقعت فداء الاعتراض على هذا الزواج، لكنها توقعت أن يدعموها في نهاية المطاف، لم تتوقع انفجارًا على هذه الدرجة من الخطورة. سمعت من إخوتها شتائم لم تسمعها من قبل، ولم يتورعوا – وهم الذين رعتْهم طوال سنوات من عمرها – عن

تهديدها بسوء العواقب إذا تم هذا الزواج. لم تكن خائفة من التهديدات، كانت مصدومة بما يجري حولها، سألت نفسها: «أي ذنب ارتكبتُ حتى أحصل على هذا العقاب؟». في الوقت الذي أحاط الجميع بها واحتضنوها وقدّروها، شعرت أنها قوية بهم، وبأنهم الجدار الأخير الذي يمكنها أن تلجأ إليه. عندما تخلوا عنها وجدت نفسها وحيدة ومعزولة ومرفوضة ومطلوب غيابها عن الوجود لأنها فكّرت في أن تتزوج من هذا الأجنبي، جالبة العار لعائلة سعيد المعروفة في حماة. عندما فكّرت في زواجها من إدوارد قبل أن يأتي، خافت من فشل العلاقة بينها وبين إدوارد، لم تفكر بأي حرب ستفتحها عليها فكرة هذا الزواج وقبل حدوثه. شلّ الهجوم الشامل عليها تفكيرها تمامًا، كانت تعتقد نفسها امرأة حرة، صحيح أنها تراعي الآخرين والمحيط، لكنها لم تعتبر أن ذلك يقيّدها، عرفت اليوم في الأزمة التي تعيشها، أنها ليست حرة، وأن حياتها مستباحة من كل من هبّ ودبّ، لأنها اقترحت شيئًا اعتبره الآخرون خاطئًا ويقول الإسلام إنه حرام. يُحرّم الإسلام زواج المسلمة من مسيحي، ولكنه لا يُحرّم زواج المسلم من مسيحية، لم تكن مهتمة بالتحريم من قبل، ولم يكن يخطر على بالها، لكنها اكتشفت أنها رغم كل أوضاعها التي بنتها بجهدها وتعبها، تعود اليوم حريمًا

مثلما كانت النساء دائمًا في الشرق، تقع عليها الحُرمات، وتحتاج إلى موافقة وليّها حتى تستطيع الزواج. كانت مشلولة، تتأمل لوحة سريالية لم تخطر يومًا على بالها. حرب من كل الجهات لأنها أحبت رجلًا يدعى إدوارد من بلد آخر، هو علماني، وأهلها يعتبرونه مسيحيًا، لم يروا في الرجل سوى مسيحيته غير الموجودة فيه أصلًا، ولأنه كذلك في نظرهم فهو مرفوض. كانت الصدمة كبيرة على فداء، وأصبحت في غاية الاضطراب والتشوش، لم تعرف ما الذي تفعله، وما الذي تقوله لإدوارد الذي لم يفهم ما يدور حوله، حرصت على عدم إخباره بالتفاصيل، ولكنه كان يستعجلها، فهو لن يقضي في دمشق سوى أربعة أيام، عليه أن ينهي كل شيء في هذه الأيام. في اليوم الثاني، لم تعد قادرة على إخفاء ما يجري، أصبح كل شيء واضحًا على وجهها، وإدوارد يقرأه، ويكرر: «فداء، ماذا هناك؟ أخبريني». لم تكن قادرة على إخباره، لم تكن قادرة على خسارته، كل شيء يسير في هذا الاتجاه، عرفت أنها ستخسر الحرب التي تخوضها، ولكنها قرّرت أنْ تحسمها هي وبصرف النظر عن النتائج، حتى لو كان في ذلك قتلها كما هدّد أخوها عبد الله. لم يعد من الممكن إخفاء ما يجري عن إدوارد، وفي حال أنهما سيتزوجان في دمشق، على إدوارد أنْ يشهر إسلامه، وإلا فإنهما لن يستطيعا أن

يتزوّجا في المحاكم الشرعية في دمشق، وسيكون هذا الزواج باطلًا، هذا ما فهمته فداء من زوج أختها المحامي. كانت فداء في غاية الحرج من إدوارد، لكن لم يعد الصمت ممكنًا، فقرّرت أنْ تقول له ما يحصل وإن بلغة مخفّفة، لكن دون أنْ تكذب عليه، قالت بكلمات مرتبكة: «بصراحة، أواجه مشاكل مع أهلي من أجل هذا الزواج، وأنا حزينة، لأنني لم أرغب يومًا في خسارتهم، وكنت أتمنى أنْ يكونوا معي في فرحتي، ولكن يبدو أن ذلك مستحيل». كان إدوارد يسمع كلامها وهو مستغرب. سألها: «وما علاقة أهلك بزواجك، أليس الزواج مسألة خاصة؟». ابتسمت فداء بصعوبة، ليس سخرية من إدوارد، بل لأنها أدركت أنه لا يعرف ما يجري حوله على الإطلاق، قالت: «عندنا، على الأهل أنْ يراقبوا زواج أبنائهم». قال: «مراقبة زواج أبنائهم أم بناتهم؟». عادت مرة ثانية للابتسام بصعوبة، ولكن لسبب آخر مختلف عن الابتسامة السابقة، فهو مستغرب صحيح، ولكن لا تفوته بعض الأشياء. قالت فداء: «نعم، يراقبون زواج بناتهم، ولا يجوز للبنت المسلمة أنْ تتزوج مسيحيًا». قال: «لكنك تعرفين تمامًا أني لست مسيحيًا». قالت: «أنا أعرف ذلك، ولكن هل تستطيع إقناع أهلي أنك لست كذلك؟! بما أنك أجنبي فهم يعتقدون أنك مسيحي، ولا شيء يمكن أن يغير هذه

القناعة في رؤوسهم». قال: «إذا تحدثت معهم هل يغير ذلك شيئًا؟». قالت بثقة: «لا فائدة من الحديث معهم». قال إدوارد: «وماذا سنفعل الآن؟ هل تريدين الانسحاب، أرى أنك حزينة كما لم أركِ من قبل». قالت: «لا أريد الانسحاب، قرّرت أن أعيش حياتي كما أريد، ولكن هناك ما يجب القيام به من أجل إتمام الإجراءات». قال إدوارد: «أنا مستعد لأفعل أي شيء من أجلك، ومن أجل أن لا أرى هذا الحزن في عينيك». قالت إن المحامي يستطيع أن يكمل الإجراءات، حتى وأنت غير موجود، ولكن عليك أن تقوم أنت ببعض الإجراءات لأن المحامي لا يستطيع القيام بها بدلًا عنك». قال: «أنا مستعد، ما الشيء الذي أستطيع القيام به، ولا يستطيعه المحامي؟!». قالت: «مثل فحص الايدز لا يستطيع المحامي القيام به». قال: «هذا أمر بسيط، متى تريدين أنْ أقوم به». قالت: «غدًا». قال: «كما تشائين».. كان الارتباك واضحًا على وجهها ولم تكن قادرة على النظر في عيني إدوارد عندما قالت: «هناك أمر آخر يجب أنْ تقوم به حتى نستطيع إكمال الإجراءات». قال: «ما هو؟». قالت: «أنْ تُشهر إسلامك». وقعت كلمات فداء على إدوارد كالصاعقة، فتح عينيه على وسعهما وفغر فمه، لم يفهم ما تقول تمامًا وكأن هناك خطأ في ترجمتها ما تقول إلى الإنكليزية

قال لها: «لم أفهم؟». أعادت عليه كلماتها وهي أكثر ارتباكًا: «أن تصبح مسلمًا». قال ولم يفقد هدوءه: «ما علاقة زواجي بإسلامي أو مسيحيتي أو يهوديتي أو بوذيتي، هل هذا ضروري من أجل زواجنا». قالت: «نعم، لا تسجل المحاكم زواجنا بدون ذلك». قال إدوارد: «لماذا؟!». قالت: «لأن زواج المسلمة بغير المسلم باطل».

قال: «أنا أتزوجك لأنك أنت فداء ليس لأنك مسلمة أو مسيحية أو أي شيء آخر، أنا أحبك أنت، ليست مهمة قضاياك الشخصية، وإذا كنت تختارينني ليس مهمًا إن كنت متدينًا أم لا، وأنت تعرفين أني لست كذلك. هذا غريب، أليس الزواج مسألة خاصة وشخصية؟!».

قالت فداء بحسرة واضحة في نبرة صوتها: «في الشرق ليس لك لا حياة خاصة، ولا حياة شخصية، وعندما تكون امرأة يكون مشكوكًا بوجودك أصلًا». شعر إدوارد بحجم المرارة التي يختزنها صوت فداء، كان الحلم الذي بناه في رحلة الطائرة من نيويورك إلى دمشق ينهار أمام عينيه. قال بحسرة: «أنا الآن فهمت، ولكن يا عزيزتي، لن أستطيع أنْ أقوم بذلك، ليس موقفًا من الإسلام أو منك، لأنني ببساطة لن أقوم بشيء رغمًا عني، أنا أريدك كما أنت، ويجب أنْ تقبليني كما أنا، لن أعلن إسلامي، لأن هذا ينتهك خصوصيتي ويجبرني على القيام بشيء لا يتلاءم مع شخصيتي. أنا أحبك أكثر

مما تتصورين، لكني لا يمكن أنْ أتزوج بهذه الطريقة». عندما قال كلماته الأخيرة انفجرت فداء بالبكاء، نهض من قبالتها، جلس إلى جانبها، احتضنها وعيناه تدمعان وهو يراقب عبر الزجاج الأولاد الذين يلعبون في الحديقة المقابلة للمطعم الذي كانا يجلسان فيه.

شعرت فداء أنْ كل شيء أطبق عليها، مادت الأرض بها، أظلمت الدنيا في عينيها، كل شيء ينهار «أي كارثة حلّت بي، ما الذي فعلتُه حتى استحق هذا المصير؟!». سألت فداء نفسها باستغراب. لم تؤذ أحدًا في حياتها، لم تتمنَّ الشر لأي كان، كل من احتاج مساعدتها، ساعدته بكل استطاعتها، لم تبخل يومًا لا بمالها ولا بعواطفها على أحد. انتظرت حبَّها سنوات طويلة، شعرت بالقهر والوحدة، ليال طويلة شعرت أن كل ما حولها لا معنى له، طالما ليس هناك ما يحرك قلبها، حاولت أن تحركه بقرار إرادي، تعرفت على رجال لطفاء ومحترمين، والكثيرون عاملوها بمنتهى الدماثة من أجل خطف ودّها. حاولت أن تحرّر قلبها، وأن تُبادل أيًّا منهم مشاعرها، قلبها لم يتحرك، حاولت أن تدفعه رغمًا عنه، لم يتجاوب معها، عرفت أن قلبها لن يأتمر بأمرها. أحست في الكثير من الأوقات أن قلبها ليس سوى مضخة دم، فيه شيء ميت، لأنه غير قادر على الحب، رغم كل الحثّ الذي حاولت أن تحثه لقلبها،

أبى أن يتحرك، وأبى أن تكون له وظيفة أخرى غير وظيفة ضخ الدم. عندما تركته بحاله، ولم تعد تحاول إجباره على الحب، استكان وأنس. عندما تحرك أدهشها، كم كانت مضخة دمها مشحونة بالمشاعر، انفجر بركان كامل من المشاعر، حجمه أدهشها، هي التي اعتقدت أنها غير قادرة على الحب، وأن نبع المشاعر في قلبها قد جف، أو أنه غير موجود أصلًا، شعرت وقتها أنها لا تعرف نفسها، من أين أتاها كل هذا الدفق؟ رغم أنها حاولت لسنوات أن تحصل على قطرات من هذا النبع المختفي في أعماقها، لكنها فشلت. انفجار النبع غيّر كل الألوان في عينيها، باتت الحياة أجمل، وكل الأشياء أزهى، وقدرتها على التحمّل أصبحت أكبر، وأصبح اليوم الأجمل سيأتي غدًا، بعد أن كان ذكرى من الماضي، بات الأجمل هو ما ينتظرها، مع الرجل الذي فجّر كل الأشياء المخبأة داخلها، الصاعق الذي عَرّفها على نفسها من جديد، بعد أن اعتقدت أنها تعرف نفسها جيدًا، وجدت أن ما لا نراه في داخلنا أكبر بكثير من الذي نراه. عام على معرفتها بإدوارد جعلها امرأة أخرى، امرأة من نور، من حب، من رضى، كان دائمًا معها، كانت معرفتهما الفعلية لأيام فقط، ولكنها شعرت أنها تعرفه منذ ما قبل الولادة. قالت لنفسها: «إنه الرجل الذي انتظرته دائمًا». لم تعرف أنه سيأتي

من وراء المحيطات، لم تعرف أن من سيسرق قلبها هو مجرد عابر سبيل في هذا المكان، مسافر يأتي في زيارة عمل قصيرة إلى دمشق، يسرق قلبها، يأخذه معه، وتبقى صورته أمامها طوال الوقت. عاشت حلمًا ساحرًا، تمنت طوال حياتها أقلّ منه، حتى تكتمل حياتها مثل البدر في الليالي الصافية، مع إدوارد اكتملت. هكذا رأت الصورة وهي تبكي وإدوارد يحتضنها، صورة لم ترها حتى في أجمل الأفلام الرومانسية التي شاهدتها طوال حياتها. كان الحلم قد تجسّد واقعًا، تَراه أمامها وتلمسه بيدها، من أجل ماذا يتبخّر هذا الحلم أمامها؟! لا تعرف، ما الذي حصل وأي شيء جعل هذا الحلم يتبدد كفقاعة صابون؟! لم تعرف، لم تكن قادرة على التفكير ولا على ربط الأشياء بعضها ببعض. الحلم الساحر الذي طالما تمنّت أن يصبح حقيقة واقعة، وجدته أمامها دون سابق إنذار حقيقة واقعة، فجأة، يتحول إلى سراب. شعرت بنفسها تسقط من قمة الحلم إلى هاوية اليأس، كابوس لم تشاهده حتى في أسوأ أحلامها، تشاهده في الواقع ويتجسد أمامها، قلبها الذي تحرك بعد أن كان معطَّلًا لسنوات وسنوات، يتحطم اليوم لأنه تحرك، لم تعد الفتاة التي كانت قبل أن يمر عابر السبيل ويسرق قلبها. فداء التي شعرت قبل أيام أنها تملك الدنيا وما عليها، تحولت فجأة إلى هباء غير موجود. شعرت أن

حياتها تفلت منها وكأنها تحاول أن تقبض على الدخان الذي يتسرب من بين أصابعها، ويتسرب بسرعة كلما حاولت أن تقبض عليه بشدة أكبر. ما الذي جعل حياتها تتدحرج بهذه الطريقة العبثية من القمة إلى القاع؟!

خطرت لها أفكار لم تخطر لها في حياتها، كل شيء افتقر إلى المنطق، أشياء لا منطقية تفرض نفسها على حلمها لتبدده، وهي لا تستطيع أن تمسك به، أرعبتها فكرة أن الأشياء التافهة يمكن أن تبدد الجمال العظيم، فقطرات قليلة من ماء النار قادرة على تدمير أجمل اللوحات. شعرت أن حياتها لوحة فنية جميلة تحترق بماء النار التي لا تشوّهها فحسب، بل تجعلها تُصدر روائح كريهة ونفّاذة أيضًا. شعرت أن حياتها تتحول وبضربة واحدة من الجمال إلى البشاعة، فالأحلام الجميلة التي بنَتْها خلال الأشهر الأخيرة كانت أشبه بمدن الملح، أول ما أصابها رذاذ العاصفة وجدتها تنهار وتذوب كأنها لم تكن. شعرت أنها غير قادرة على فعل أي شيء للحفاظ على حبها، فلو كان عليها هي أن تتحول إلى المسيحية من أجل الزواج بإدوارد، لما ترددت، ولكن الأمر لم يكن بيدها، وتنصُّرها لا يحل المشكلة. تفهمت موقف إدوارد مما جرى، ولم تكن تلومه أو تُحمِّله المسؤولية. لم تكن أصلًا تفهم ما يجرى، مسألة شكلية

تقضي على حب عظيم في نظرها، «هل وصلت الأمور إلى هذا المستوى من السخافة؟». سألت نفسها، لم تكن تنتظر الجواب. كانت قناعتها عميقة بأن ما جرى شيء مبكٍ، مضحك، لأن ما جرى وما سبب هذا الكم من الألم أملَتْه السخافة. عادت وسألت نفسها: «هل هي المرة الوحيدة التي تُنتج فيها السخافة الألم؟». فكّرت بالمرات الكثيرة التي كانت سخافات من هذا النوع مصدرًا لألم وتعاسة الكثيرين من البشر.

كانت في تلك اللحظات تودّع إدوارد، وشعرت أنها هذه آخر مرة تراه فيها، تأمّلته، وعندما تذكرت أنها قد تكون آخر مرة تراه فيها، ارتعد جسدها من الخوف وعادت للغرق في البكاء. لم تعد قادرة على الاحتمال، نظرت إليه نظرة أخيرة، حملت حقيبتها الموضوعة أمامها على الطاولة، وخرجت راكضة من المطعم، رغبت في النظر إلى الوراء ولكنها لم تستطع، لم تقل له: «وداعًا». ولم تكن قادرة أن تقول له هذه الكلمة، خافت من الكلمة فلم تكن قادرة على قولها.

سافر إدوارد دون أن يقرّر مصير العلاقة، ودون أن يعرف كيفية الخروج من المأزق الذي لم يتوقعه أصلًا. توقع أن تجري الأمور بسلاسة، لم ينتظر كل هذا التعقيد من أجل الزواج، لكن ما توقعه

شيء والواقع شيء آخر. غادر دمشق مندهشًا لما جرى في حياته، ذهب من نيويورك إلى دمشق من أجل زواج مستعجل، عاد من دونه لأسباب خارجة عن إرادته وعن إرادة من كانت ستكون زوجته، شيء من خارج علاقة الحب الجميلة، يدخل عليها، يحاصرها ويخنقها. شعر بالحسرة، لا شيء في العالم يفسّر هذه الخيبة التي لا مبرر لها. شعر بالخوف على فداء من الصدمة التي كانت ظاهرة على وجهها عندما حملت حقيبتها وفرّت راكضة والدموع بعينيها. شاهد دموعها، وشعر أن قلبه يهوي في صدره، لم يكن قادرًا على تحمّل دموعها، الخيبة والألم والدموع علامات لا يمكن لأحد أن يخطئها، شاهدها إدوارد على وجهها وكانت تذبحه، حاول تهدئتها، حاول أن يقول كلامًا يُخرجها من الحالة التي هي عليها، لكنه وجد نفسه غير قادر على قول شيء. شعر بنفسه كأنه مشلول في متاهة، غير قادر على فعل أي شيء، وغير قادر على قول أي شيء.

مثل فداء كان إدوارد محبَطًا ويشعر بالخيبة، وفي طريقه إلى نيويورك، التصقت صورة فداء الباكية في مخيلته، وكلما حاول طردها، عادت إليه بقوة. شعر بأنه خذلها، خان حبه الذي انتظره طويلًا ليجده في بلد بعيد. سأل نفسه: «ما الذي يختلّ في الكون لو أعلنت إسلامي؟». هز رأسه وأغمض عينيه شاعرًا بخيبة في أعماقه.

فكّـر: «لمـاذا لـم أقبـل بالقيـام بـذلك، إنـه إجـراء شـكلي، كمـا قالـت فـداء، فأنـا لسـت مسـيحيًا، ولـن أكـون مسـلمًا حتـى لـو أعلنـت إسلامي».. تمنى في تلك اللحظات لو أنه لم يخيِّب أمل فـداء وفعـل مـا جعلهمـا يعلنـان زواجهمـا. كـان في طريقـه إلـى نيويـورك، ولـن يستطيع أنْ يعتذر منها ويقبل بتقديم هذه التضحية من أجـل أن يفـوز بفداء. شعر بالارتباك والتناقض، كان حزينًا على فداء التـي تركهـا في حالة صدمة، ما كـان عليـه أنْ يتركهـا لـو كـان يحبهـا، أصـابته صـورة فداء المخذولة بالرجفة. لـم يتوقع ما جـرى، لكنـه حصـل، ولـم يعـد من الممكن تغييـره، قـال لنفسـه: «لمـاذا علـيّ أنْ أفعـل ذلـك، لمـاذا عليّ أن أصبح مسلمًا من أجل زواجي بمن أحـب، مـا الـذي يضـيفه أو ينقصه الإسلام لهذا الزواج؟!».. شـعر مـرة أخـرى أنـه غيـر قـادر على القيام بمثل هذا الفعل على تفاهته، لم يكـن قـادرًا علـى التخلـي عن حريته حتى في موضوع اعتبرته فداء شـكليًا. عنـدما فكّـر بـذلك، شعر بنفسه أنه في حاجة إلى فداء أكثر مـن أي وقـت مضـى، شـعر أن روحـه معلقـة هنـاك عنـدها، وأنـه غيـر قـادر علـى الخـروج مـن هـذه الحالة. شعر أن من الأنانية مغـادرة دمشـق، دون أن يعرفـا أي مصـير ينتظر هذه العلاقة، لقد غادر وترك مصير العلاقة معلقًا، لـم يقـل لهـا إنه لن يتخلى عنها مهمـا كانـت الأسـباب، لـم يقـل لهـا إنهـا مـا تـزال

خيارَه الأبدي، لم يقل لها إن حياته ليس لها معنى بدونها، لم يقل لها ما شعر به، فقط وهو على متن الطائرة أدرك أنه كان عليه أن يقول لها ما يفكر به قبل أن يغادر دمشق. لم يفعل ذلك، ترك الأشياء معلقة في الفراغ، حطّم قلبها وغادر دمشق وتركها غير قادرة على لملمة أشلائها. لم ينتبه إلى ما فعل إلا عندما فكّر بكل ما جرى وطائرته تحلق فوق الأطلسي. لام نفسه، أغمض عينيه، أطلَّ عليه وجه فداء الباكية، سالت دموعه وكانت صورتُها تزيد من عذاباته، شعر بوهن وضعف شديدين، أحس بجسده منهكًا، شعر أنه مشلول غير قادر على فعل أي شيء.

عندما سافر إدوارد، شعرت فداء أنها دخلت متاهة لن تستطيع الخروج منها، أصبحت تشعر بالدوار، سيطر عليها شعور الخيبة والإحباط، باتت شاردة طوال الوقت، تائهة، عالم صنعته من الحلم انهار دون رحمة، شعرت بالظلم المجاني، لم تفهم لماذا جرى هذا معها. اعتبرت نفسها طوال الوقت امرأة قوية، جاء الحب مرة واحدة ليضعفها وليأخذ روحها منها، وهذه المرة يغادر دون رجعة، هكذا فكّرت. أي صعود وسقوط مدويين عاشتهما خلال فترة وجيزة من حياتها التي اتسمت بالاستقرار وبمسار خطي صاعد دائمًا. الحب جعلها تحلق في السماء، والحب نفسه جعلها تسقط

على الأرض سقطة مدمرة، ساحقة. استغربت من نفسها، كأنها لم تكن تعرف نفسها، بل تتعرف عليها من جديد، شعرت نفسها شخصًا غريبًا عنها، عليها أن تعيد التعرف عليه، لطالما صدمها هذا الصعود والهبوط في حياتها خلال الأشهر التي تعرفت بها على إدوارد وغيّر مسار حياتها. أدركت تمامًا أي كسر سبّبه رحيل إدوارد الذي حوّل العلاقة إلى ذكرى مؤلمة، غير قادرة على التفكير بها دون أن تدمع عيناها. شعرت بالقهر والظلم لعلاقة تنتهي بهذه الطريقة المأساوية، رغم أنها تحمل كل عوامل النجاح، سقطت لأن تفاهات اخترعها آخرون قادرة على خنق علاقة حب عاشتها وجعلتها تحلق في سماوات أخرى. كانت التجربة أقسى من أن تُحتمل، كان عليها العضّ على جروحها كل يوم، كل ساعة. تحطم شيء في داخلها وشعرت بنفسها بقايا بشر، حتى عملها باتت شاردة فيه، حوّلت العديد من الطلبات للترجمة الفورية إلى أصدقاء آخرين لأنها شعرت نفسها غير قادرة على القيام بعملها الذي يحتاج إلى تركيز، وهو ما فقدته في محنتها، التي ذهبت فيها لصناعة الفرحة فوجدت نفسها تصنع الألم.

لم تقتصر آلام فداء على آلامها وجروحها الداخلية ودمار حبها وفشله، لقد وجدت نفسها وسط حرب شرسة من إخوتها، فلم يغير

شيئًا في موقفهم أن هذا الزواج فشل وأن كل شخص ذهب في حاله. كشفت الأزمة حب فداء لإدوارد وفكرة موافقتها على الزواج منه، باتت كأنها واقع بالنسبة لإخوتها والكثير من أقاربها، أخذوا يتعاملون معها وكأنها تزوجت من إدوارد دون أن يُشهر إسلامه. اعتبرها أخوها عبد الله ميتة، ليس لأنها تزوجت من إدوارد بل لأنها فكّرت في مثل هذا الزواج. لم يبقَ معها سوى هالة التي تعيش معها في البيت ذاته، حاول عبد الله أن يأخذ هالة منها حتى لا تؤثر عليها سلبًا بأفكارها الرديئة حسب اعتقاده، ولكن هالة تمسكت بالبقاء عند فداء، وقالت للجميع بمن فيهم أخوها عبد الله: «إنني لن أترك فداء مهما كان الثمن». وبعد عدة محاولات فاشلة لأخذها، قال لها في بيت أختهما هدى: «عليك الذهاب للإقامة عندي، أنا المسؤول عنك». حاولت هالة تهدئته، جلست قبالته على الأريكة، نظرت إليه نظرة شفقة وقالت: «طبعا أنت المسؤول عني، ولكن أين تريدني أن أذهب». قال: «تقيمين في بيتي». قالت هالة: «صلي على النبي يا عبد الله، أين أقيم عندك، بيتك أصغر من أن يتسع لك ولزوجتك ولأولادك الأربعة، وماذا سأفعل في حماة؟!». صرخ في وجهها بانفعال شديد: «قلت ستقيمين عندي، يعني ستقيمين عندي، وهذا موضوع ليس للنقاش، وهل تعيبين عليّ وضعي المادي، يكفي أنني

أعيش بالحلال». قالت هالة: «أعوذ بالله، أنا لا أعيب عليك وضعك، أنا أقول لك ما هو الواقع الذي لا تريد أن تراه». قال عبد الله وقد زاد غضبه: «تطيلين لسانك علي، ستذهبين غصبًا عنك». قالت: «يبدو الكلام معك لا فائدة منه، أنا لن أذهب إلى حماة، ولن أسكن في بيتك، انتهى الموضوع». أخذ عبد الله يغلي، واعتبر ما قالته هالة مهينًا لكرامته ورجولته، قال مرة أخرى: «ستذهبين معي رغمًا عنك». لم تعد هالة قادرة على احتمال هذا النقاش العقيم، أمسكت حقيبتها اليدوية وقفت وهي تقول: «واضح أن النقاش معك غير مُجدٍ، سلام». مشت باتجاه باب الخروج. انتفض عبد الله. لحق بها، أوقفها قرب باب المنزل الذي وصلت قبالته، أمسك ذراعها، أدارها نحوه، أصبحا وجهًا لوجه، ما إنْ استقرت قبالته، حتى صفعها بقوة أوقعتها على الأريكة المقابلة. ركضت هدى لتقف بينهما، وهي تقول: «ماذا تفعل يا مجنون؟». نظرت هالة إليه من بين دموعها وقالت: «إن شاء الله تنكسر يدك، الله على القوي والظالم». حملت حقيبتها وخرجت راكضة من بيت أختها. لم يدرك عبد الله ما الذي فعله إلا عندما صرخت عليه أخته هدى، سقط على الأريكة التي خلفه منهارًا، وأخذ يقول: «لقد جلبوا لي العار». وغطى وجهه بيديه محاولًا إخفاء دموعه عن أخته هدى.

قالت هدى: «صلِّ على النبي، لم يجلب أحد لك العار، لماذا تقول هذا الكلام الذي لا طعم له؟». لم يُجبها، مسح دموعه وغادر منزل أخته.

هالة ترى النار التي تحرق فداء، تقف عاجزة عن فعل أي شيء من أجل أختها التي وقعت في الحب في ظروف غريبة، أحبت شخصًا أكثر غرابة. لم تعتقد أن أختها يمكن أن تقع في الحب بهذه الطريقة غير المنطقية، ولم تتوقع أن يجعلها هذا الحب تنهار بالطريقة التي رأتها منهارة بها، رغم كل محاولاتها لضبط انهيارها أمام الآخرين. وهي ما كانت لتتركها في مثل هذا الوقت لو ذبحوها، فقد شعرت أن فداء تحتاجها أكثر من أي وقت سابق، وهي المرة الأولى التي تحتاجها، رغم أنها لم تطلب منها شيئًا. لأول مرة شعرت أنها تردّ لفداء جزءًا من الدَّين الذي تشعر أنها تدين به. تمنت عشرات المرات ودعت لها في صلواتها أن تخرج من الأزمة التي تمر بها، لم تستطيع أن ترى أختها بهذه الحالة من الضعف والتعب. كانت عاجزة عن فعل أي شيء لها في أزمتها، ولكنها أشعرتها بحنانها، طوقتها بالحب، رأت الحزن العميق في عيني فداء، ورأت الدموع. أصبحت فداء تتجنب الآخرين، وقصرت علاقتها معهم على الحد الأدنى، كان تعبها وحزنها واضحين على وجهها ولم

تكن قادرة على إخفائها، تجنبت حتى أختها في المنزل. لـم تحـاول هالة أن تفتح معها جرحها، وتجنبت فـداء أن تقـول شـيئًا عـن حزنهـا والـدموع في عينيهـا، لكـن الحـزن والـدموع خيّمـا علـى المنـزل. احتـارت هالـة، كيـف تخفـف عـن فـداء أزمتهـا دون أن تتطـرق للموضوع؟ اقترحت عليها مشـاريع خـروج مشـترك، رفضـتها فـداء، لم تكن قادرة على الكلام، كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة. انتقـل عذاب فداء إلى هالة بفعل المحبة التي تحملها لها، حاولت كثيرًا أن تفعل ما يجعل الحزن يغادر قلب فداء الكسير، لكـن كـل محاولاتهـا باءت بالفشل.

في تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء الدمشقية، تغيّر كـل شـيء، هالة النائمة تسمع أنين بكـاء يـأتي مـن الصـالة، كـان الصـوت خافتًـا. اعتقدت أنها تحلم وعادت لنومهـا، ارتفـع الأنـين الخافـت، ثـم عـاد الصمت. فتحت عينيها في الظلمة التي تخفي كل شيء، أنصتت، لـم تسمع شيئًا، كان الهدوء يلفّ كل شيء. اقتنعـت أنهـا تحلـم وعـادت لـتغمض عينيهـا مـن جديـد وتحـاول النـوم، ولكـن الأنـين عـاد مـرة أخـرى. عنـدما عـلا صـوت الأنـين، تأكـدت أنهـا تعـرف الصـوت، فتحت عينيها، الأنين ما زال يعلـو، عرفـت أنهـا لـم تكـن تحلـم، وأن هـذا الصـوت هـو صـوت فـداء، الـذي لا يمكـن أن تخطئـه. رمـت

غطاءها عنها، شعرت بالبرودة عندما لامست السجادة التي تغطي أرض غرفتها بحثًا عن ذلك الخف الذي تلبسه داخل المنزل في أيام البرد الشديد.

كانت هالة تحب النوم في غرفة معتمة تمامًا، فهي تطفئ كل الأضواء في الغرفة وتسدل الستائر على النافذة، وتعتمد على الضوء الشحيح الذي يأتيها من مدخل المطبخ الذي يخترق مقطع الزجاج الصغير الذي يتوسط باب غرفتها وهو الضوء الوحيد الذي يبقى مضاءً في البيت صيفًا أو شتاء، ليضيء ليلهما. فتحت هالة باب غرفتها فارتفع صوت الأنين، انتشر ضَوء المدخل خافتًا في الصالة. نظرت هالة باتجاه مصدر الصوت، كانت فداء تجلس في زاوية الأريكة تلفُّ نفسها بغطاء صوفي، ركضت باتجاهها، وعندما أحسَّت فداء بهالة تركض نحوها أخذت بالبكاء بصوت عالٍ. احتضنتها هالة، رمت فداء نفسها في حضن أختها الصغيرة وهي ترتجف، كان جسدها باردًا، والدموع التي تنزل من عينيها، تحرق خدودها وتحرق قلب هالة على أختها المفجوعة، كان بكاءً مرًا وحزينًا. لم تتمالك هالة نفسها فأخذت تبكي معها، وهي تحاول تهدئتها قائلة من بين دموعها: «أرجوك، أبوس ايدك، لا تبكي». عندما هدأت فداء قليلًا، قامت هالة لتنير الضَّوء، أوقفتها فداء

وقالت من بين دموعها: «أرجوك، أبقيه مطفَأً». استدارت عن مكان كبسة الضوء، وقالت لفداء: «سأشعل المدفأة». لم تمانع فداء. أشعلت هالة المدفأة وعادت للجلوس بجانب أختها. بدأ لهب المدفأة يرتفع، تأملته فداء وهو يزداد قوة، نظرت هالة إلى وجه أختها الباكي والحزين، حبست دموعها بصعوبة، شعرت بقلبها يعتصر ألمًا على أختها. لم تجد هالة أي كلمات تقولها، أحزنتها رؤية الدموع تنزل وحدها من عيني فداء وهي تنظر إلى ارتفاع لهب النار داخل المدفأة. انتشر الدفء في الصالة، أصبحت فداء أكثر هدوءًا وسكينة، عندما قالت وكأنها تسأل نفسها ولا توجه حديثها لهالة: «أي حياة هذه التي يمكن أن تشتعل وتنطفئ مثل لهيب هذه المدفأة وبسرعتها؟!». لم تنظر إلى هالة عندما قالت كلماتها. عجزت هالة عن قول أي كلمة وكأنها أصيبت بالخرس، نظرت إلى أختها مشدوهة. تابعت فداء قائلة: «ليست النار وحدها هي التي تحرق، الكثير من الأشياء تحرق حروقًا أقسى وأكثر تشويهًا من النار، الحب يحرق، الوحدة تحرق، الغيرة تحرق، السخافة تحرق، الانحطاط يحرق. ما الذي فعلته حتى أستحقّ هذا العقاب من إخوتك؟!». وجّهت هذه المرة الكلمات لهالة، لم تنتظر الجواب وتابعت: «كل ما فعلته هو أني أحببت هذا الرجل، ما حدث ليس

بيدي، لو كان بيدي لمنعت نفسي عن النظر إليه أصلًا، شيء ما أقوى مني دفعني رغمًا عني، كأن القدر أراد أن يكون هذا الرجل، وبعد هذا العمر، هو من يحرك قلبي، لم أخطئ بحق أحد ولم أوذِ أحدًا، ولا أستطيع أساسًا أن أوذي أحدًا، اليوم الكل ينظر إليّ كأني عنوان الرذيلة والكفر والفسق، لأني أحببت رجلًا أجنبيًا وأردت الزواج منه. هكذا يعاملونني ولم أتزوج، ما الذي كانوا سيفعلونه لو تزوجت، سيذبحونني؟!».

قالت كلمتها الأخيرة، أدارت وجهها نحو هالة، لكنها سرعان ما عادت تنظر إلى اللهيب. تابعت قائلة: «كأنني السبب في خراب العالم وقيام القيامة، لم أشعر نفسي رخيصة كما شعرت هذه الأيام، كنت أعتقد أنني شخص ذو قيمة، استطعت أن أستحقها بعملي وتعبي، لكني في النهاية، أنا مجرد امرأة أحتاج إلى ولي أمر يرشدني إلى الصحيح ويمنعني عن فعل الخطأ. أنا شخص قاصر، كل شيء يقول إنني شخص قاصر. لا أستطيع أن أختار من يكون شريك حياتي، عليّ أن أجد رجلًا له مقاييس محددة يوافق شروطهم، أو عليه أن ينفذ هذه الشروط. أنا أحببت هذا الرجل ولا أفهم لماذا لا أستطيع أن أتزوجه، لأسباب تافهة وخارجة عن إرادتنا. هل أنا بشر ولي حقوق أم أنني مجرد سلعة ملحقة بأحد آخر، أب، أخ، أقارب... وعلى الجميع أن

يحافظ على سلوكي من جلب العار. أي عار أجلبه عندما أتزوج هذا الرجل؟ لقد ذُبحت مرتين، مرة لأني فقدت حبي الذي انتظرته طوال حياتي، ومرة أخرى لأني عرفت أني كائن تافه ولا قيمة له، كائن في لحظة الحقيقة أقل من ذرة غبار». ضمت رجليها إلى صدرها ووضعت رأسها على ركبتيها، غرقت بالبكاء.

تنهدت هالة عندما سمعت بكاء أختها، وشعرت بالعجز، لكنها انتصرت على خرَسها عندما استطاعت أخيرًا أن تقول: «لا تقولي هذا عن نفسك. كلنا نتعرض للمشاكل، ولكنها في النهاية تذهب في حالها». قالت كلماتها بتردد وتأتأة، وشعرت أنها كلمات باردة، لكن خروجها عن صمتها أشعرها أنها أكثر قدرة على الإحساس بما يعتمل داخل فداء من مشاعر الحزن والخيبة والخذلان. قالت بثقة أكبر «حبيبتي، أنت أقوى من ذلك. أعرف أن ما حصل ليس بالشيء البسيط ولكن أعرفك أقوى من ذلك، ولطالما كنت الأقوى بيننا». رفعت فداء رأسها نظرت إلى هالة، ضيّقت عينيها المحمرّتين من كثرة البكاء وقالت: «اعتقدت أني قوية، كنت قوية عندما لم أكن أشعر أني وحدي في العالم، كنت قوية بك وبأبي وبإخوتي، كنت قوية بزوجة أبي، بأصدقائي، أما عندما أصبحت وحيدة فلا أحد يرغب في إلقاء السلام عليّ كأنني مصابة بالجرب، من أين تأتي القوة

عندما تشعرين أنك منبوذة، وأن الآخرين يعاملونك كأنك ارتكبت فعلًا شائنًا؟». اقتربت هالة من فداء نظرت إليها وقالت: «أنت تقولين هذا لأنك مجروحة، أذكر كم كان أبي معجبًا بك، اعتبرك الأفضل بيننا صبيانًا وبنات، كان يقولها علنًا. وعندما أصابه الشلل ولم يعد قادرًا على الكلام، كلنا رأينا الحب الذي يكنّه لك، كان الحب واضحًا في عينيه. كنت أحسدك على حب أبي لك، كلنا كنا نحسدك، لقد كنت تستحقين هذا الحب بجدارة. واليوم أذكر عيني أبي المشعّة كأنه أمامي الآن».

قالت هالة كلماتها التي تُشعرها بالهدوء أكثر ما تشعر بها فداء التي تغلي. نظرت فداء إلى هالة، شيء ما في داخلها أشعرَها بشوق كبير إلى والدها، كانت عندما تشعر بالضعف وتريد أن تستمد القوة، تذهب إلى حماة لتنظر في بريق عيني والدها العاجز عن الكلام. شعرت أنها بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى. شوقها إلى والدها زاد من أحزانها، ولكن في جانب من روحها شعرت بالراحة، كان وجود والدها يشعرها بالراحة، الآن غيابه يحزنها، لكن ذكراه تشعرها بالراحة. لم تكن تعرف سرَّ العلاقة بينها وبين أبيها، كانت دائمًا تشعر أن طيفه يلاحقها ليحميها، اعتقدت في كثير من الأحيان أنه لولا وجود طيف أبيها لتعرضت لمخاطر لا تُحمد عقباها.

اعتبرت أن سرّ نجاحها في الحياة يكمن في طيف أبيها الذي لازمها طوال الوقت، في حياته وبعد مماته. اعتبرت أن سوء الحظ الذي يلازمها في الفترة الأخيرة، لأنها لم تعد تشعر بطيف أبيها يخيّم عليها ويحميها. عندما ذكرت هالة والدها شعرت بالراحة كأن طيف والدها عاد لحمايتها. قالت فداء بهدوء: «آه، لقد اشتقت إليه». لم تفهم هالة قصدها فقالت مستفهمة: «من إدوارد؟!». قالت فداء: «لا، اشتقت لأبي، كنت كلما أشعر بالضعف أذهب لأنظر في عينيه، لو كان ما يزال حيًا هل كان ليغضب مني؟ هل كنت سأذهب لأرى الحزن في عينيه؟ هل كانت عيناه ستلومني على ما فعلت؟». أخذ صوتها يتهدج عندما تابعت تقول: «كان يشعرني بالقوة، كان يعتقد أني كنت أحميه من الحاجة ومن مرضه، لكنه في الحقيقة هو الذي كان يحميني من ضعفي، كنت بحاجة إليه أكثر ألف مرة من حاجته لي، رغم مرضه وعدم قدرته على الكلام، كان يقول لي كل شيء بعينيه، وما يقوله كافيًا لأفهمه، وأشعر بالطاقة الهائلة التي يمدّني بها. أتمنى لو أنه استمر في الحياة إلى هذا اليوم حتى يمدّني بهذه الطاقة التي افتقدتها. لو كان حيًّا لما شعرت بوحدتي».

عرفت هالة أن فداء بدأت تخرج من الحالة السيئة التي كانت عليها، رغم الحزن الواضح في عينيها وفي بحة صوتها الباكية. قالت

هالة: «ليس أبي وحده من أحبك، كلنا نحبك». قبل أن تنهي كلماتها عرفت هالة أن وقع الكلمات كان سيئًا على فداء، التي انتفضت في مكانها وقالت: «من الذي يحبني؟! أمام أول اختبار أحتاج به لمن يقف إلى جانبي، أنظر حولي، لا أجد أحدًا، لا أجد من كنت أعتبر أنهم يحبونني، أتحول بالنسبة إليهم إلى عدوة، وأنت تقولين كلنا نحبك، ماذا تقصدين بكلنا نحبك، إخوتك.. أقاربك... تقصدين من تحولوا في لحظات إلى التعامل معي كمجرمة. على فرض كنت مجرمة، ألا أستحق التعاطف، ألا أستحق أن يقف بعضهم معي، ألا يقف الأهل مع أولادهم المجرمين. لا، لا، لا أحد يحبني، وتعاملوا معي كأني أكثر من مجرمة!!».

ربتت هالة على كتف فداء المنفعلة وقالت: «اهدئي، ما تقولينه غير صحيح، تقولينه بسبب الجرح الذي تشعرين به، أنا أحبك وأنت تعرفين ذلك، ولا شيء في الدنيا يستطيع أن ينزع محبتك من قلبي. الآخرون كذلك، انتظري قليلًا وستعرفين ذلك، لكن هذا الموضوع له حساسية خاصة، هو أكبر مني ومنك ومنهم، لا يستطيعون أن يفعلوا فيه شيئًا، كما لا أستطيع أن أفعل أنا أو أنت أي شيء، إنها قوانين تعتمد على الدِّين». قالت فداء: «إنها قوانين جائرة تلك التي تتدخل في الحياة الشخصية للبشر. وأنا لم أطلب من أحد

أن يفعل لي شيئًا، كل ما أطلبه هو أن أشعر بمحبتهم، كما كنت أُشعرهم بمحبتي ليس أكثر، لا أن أشعر نفسي وحيدة ومنبوذة وعاصية وكافرة».

شعرت هالة أن الحديث بدأ يدخل في طريق مسدود، لذلك حاولت الخروج منه فقالت: «فداء حبيبتي، لا شيء صحيح ممّا تقولينه، المحبة لا تُمحى في لحظات. على كل حال أنا أعرف نفسي، وأعرف أني أحبك، رغم كل ما حصل، وكل ما سيحصل. أنت أختي وصديقتي وأمي وابنتي». ضحكت فداء من فكرة أن تكون ابنة هالة، عرفت هالة ما الذي يضحك فداء، أخذت رأسها بين يديها، وضعته على صدرها وحضنتها، أخذت فداء بالضحك، شعرت فعلًا أنها ابنة هالة مما زاد من ضحكها، شعرت هالة بالارتياح لضحك فداء، بصرف النظر عن السبب الذي تضحك من أجله، لم تسألها، قالت لها بلغة الأوامر المحببة: «عليك أن تنامي، أنت مُتعبة». أمسكتها من يدها وقادتها إلى غرفتها. وضعتها في سريرها، قبّلت رأسها، استسلمت فداء لما تقوم به هالة، ضحكت وحاولت أن تتذكر آخر مرة شعرت فيها بهذه الرعاية الأمومية، تذكرت أن هذا يعود لسنوات طويلة، يوم كانت أمها ما تزال على قيد الحياة.

تذكرت هالة تجربة فداء الصعبة لتخفف عن نفسها ما تمر به، لطالما قارنت حياتها بحياة فداء، ولطالما كانت معجبة بحياة أختها وتجربتها. عدد قليل من البشر يمكن أن ينجز ما أنجزته فداء، وعدد أقل من الناس يمكن أن يحمل قلبًا كقلبها، كانت تعرفها كما لم يعرفها أحد من قبل. لم يكن أحد قادرًا على نزع الصورة الجميلة لفداء من رأس هالة، ليس لأنها كانت تُجمّلها، بل لأن ما شاهدته من سلوك رفع فداء بالنسبة لهالة لمرتبة الملائكة، ولم تكن الخلافات معها تخدش هذه الصورة، حتى عندما وصلت هذه الخلافات إلى درجة الصدام، ولم تكن المشكلة التي جعلت إخوتها يقاطعون فداء تؤثر على هالة رغم تديُّنها. اتّهمها إخوتها بأنها تقف مع فداء لأنها مستفيدة من الإقامة معها، ولكن ليس هذا هو السبب، ولم تكن هالة قادرة على شرح موقفها من فداء، شهادتها مجروحة، ولكن لم يكن موقفها ليتغيّر لو لم تكن تقيم معها. سمعت كلمات قاسية بحق فداء، ثارت أحيانًا واصطدمت بمن تحدث بالسوء عنها، صمتت أحيانًا لأنها لم تجد أي جدوى في الحديث مع الآخرين أو الصدام معهم، في جميع الحالات فسماعها إساءات تتعلق بفداء كان يدفعها للبكاء، شعرت أن الإساءة لفداء هي إساءة لها. عندما قارنت حياتها بحياة فداء رأت الهوة الكبيرة

بينهما، مع الوقت أصبحت المقارنة عادة يومية عند هالة، حياتها وسلوكها وردّة فعلها، وحياة فداء وسلوكها وردّة فعلها، كلما توغلت في المقارنة وجدت حياتها تفاهة بالمقارنة مع حياة أختها المليئة بالإنجازات، ليس على المستوى المادي، بل على كل المستويات، حضورها، علاقاتها، صداقاتها، حتى حبها القاسي والمدمر حسدتها عليه. شعرت حب أختها لإدوارد بريئًا، رغم غرابته، وشكّل شيئًا استثنائيًا في حياة استثنائية، كل ما مرَّ في حياة فداء استثنائي يُفصّل على مقاسها. بينما كل ما يمر في حياتها هي الشخصية مجرد تفاهة، هكذا كان الفرق عندما تقارن حياتها بحياة فداء، هي الفرق بين الاستثنائي والتافه، لذلك بقيت تشعر نفسها تستظل بظل فداء، حتى بعد أن غادرت إلى الولايات المتحدة، بقيت تشعر أنها تعيش معها، فقد كان كل شيء في المنزل الذي تركته فداء لهالة لتعيش فيه يُذكّرها بأختها الحاضرة، الغائبة. كانت تشعر بفداحة غيابها عندما تمر بأزمة كبيرة، لذلك عندما حدثت أزمتها مع زوج أختها، شعرت أنها بحاجة إلى فداء، افتقدتها بقوة، ولم تكن تعرف ما الذي تفعله في تلك اللحظة العصيبة وأي تصرف يمكن أن تتصرفه حتى لا تدمر حياة أختها الكبرى وزواجها؟ وجدت نفسها عاجزة عن فعل أي شيء، ما جعلها تترك مشكلتها

للزمن ليعالجها، دون أن تعرف في أي اتجاه يمكن أن تذهب حياتها. وجدت حياتها دون هدف، صحيح أنها محامية مدرَّبة وأن مستقبلَها المهني واضح، لكن ذلك لا يعني أنه ناجح، ستصبح محامية، لكن غير ذلك لا تعرف ما الذي تفعله بنفسها. كانت تُسلم قدرها إلى الله لعله يخفف عنها قليلًا، لكن توترها الدائم وعدم ثقتها في المستقبل جعلها تدعو ربها في صلواتها أن يجنبها الأسوأ. كانت خائفة من مستقبلها، وحدتها زادت من خوفها، هذا ما جعلها تزيد صلواتها ليلًا وزادت من قراءتها القرآن لتواسي نفسها في ليالي الشتاء الموحشة، كانت تشعر بالراحة والسكينة عندما تشرع في قراءة القرآن، وهو ما يجعلها تنام بشكل أفضل. لأن وحدتها لا تصنع الحياة، فعليها أن تعود لتعيش بين البشر ومدخلها في ذلك الوقت هو مهنتها، ومكان تدريبها هو أسوأ مدخل.

كان عليها أن تعود لتجد نفسها تعيش الخوف والقلق، ففي كل صباح عندما تصحو لتذهب إلى مكتب أستاذها تجد نفسها متوترة، وتحسب كل الاحتمالات، وما الذي ستفعله في كل احتمال، يرافقها هذا الضيق حتى تخرج من المكتب وكأنها هاربة من حريق. لم يكن أمامها خيار آخر، لأن عليها أن تبقى في مكتب زوج أختها، كان يمكنها أن تنتقل إلى مكتب آخر من أجل إكمال تمرينها، لكن

ذلك كان يحتاج إلى تبرير ليس فقط أمام أستاذها الذي يعرف السبب، بل أمام أختها ايضًا، ولم تكن قادرة على إيجاد المبرر، ولم تكن قادرة على قول حقيقة ما جرى ويجري. كان عليها أن تبتلع ما جرى وأن تلوذ بالصمت واحتمال وضع لا يطاق خلال الفترة المتبقية لها من التمرين، حتى تتحرر من هذا الرجل البغيض. قرّرت أن عليها أن تفعل شيئًا خلال هذه الفترة، فليس عليها أن تنتظر كل ما يقوم به دون رد فعل وأن تبقى سلبية تجاهه طوال الوقت. عندما فكّرت بردعه، لم تجد سوى أن تتقرّب من عامر في المكتب حتى يقف حاجزًا بينهما، واعتقدت أن زوج أختها لن يُقدم على أي فعل أمام مدربه وابن صديقه، هذا ما جعلها تقضي الكثير من الوقت مع عامر.

بعد توطد علاقتهما قليلًا، أصبحت تتصل به صباحًا حتى تتأكد بشكل غير مباشر أنه سيصل قبلها إلى المكتب، وإذا عرفت أنه لن يأتي إلى المكتب تعتذر، حتى لا تجد نفسها مع زوج أختها وحدهما في المكتب. كانت خدعتها تصلح طوال الوقت، وهذا ما جعل زوج أختها يضيق بعامر، وأصبح يلمح تلميحات غير لائقة لكنها لم تتجاوز الحدود، لأنه في الوقت الذي يرغب بمغادرة عامر المكتب، فهو لا يريد إغضاب والده. بدأ يضيق ذرعًا بهالة، التي لم يعد يراها

إلا بوجود الآخرين، ولم يعد يستمتع بالتلميحات التي كانت تسعده. وجد نفسه غير قادر على ضبط نفسه، وعاد إلى تلميحاته بوجود عامر. لم يعد عامر عقبة أمام تلميحاته، وإن كان عقبة أمام تماديه أكثر. كلما اجتمع الثلاثة، يفتح موضوعات تتعلق بالجنس وبلغة فاحشة، يعلو صوته بشرح طويل عن فوائد الجنس وقدرته على إزالة التوتر، وجعل الإنسان يتوازن في حياته، ولا يبقى حادًا ومتوترًا مثلما هالة متوترة طوال الوقت.

كان عامر يخجل من هذا الكلام الذي يقوله أستاذه، ويشعر كم يسبب هذا الكلام من حرج لهالة، ولا يعرف بأي كلام يرد، يلوذ بالصمت خجلًا، وهو يعرف أن الكلام موجَّهٌ لهالة حتى عندما يكون الحديث موجهًا له شخصيًا. شعر منذ الأيام الأولى لوجوده في المكتب، أن هناك شيئًا غامضًا في العلاقة بين هالة وزوج أختها، قرّر أن الوضع لا يعنيه فالتزم الصمت تجاه الموضوع. مع مرور الأيام اكتشف عامر أنّ أستاذه يحب هالة، لا بل أكثر من ذلك شعر أنه يعبدها، لم تكن معرفة ذلك بحاجة إلى اعتراف أو اكتشاف، كل من له عيون يشاهد حبه لها، وكل من له عيون يشاهد كم هي تنفر منه وتهرب من نظراته وتلميحاته، كلما نفرت منه أكثر، تعلق بها أكثر. لم يتدخل عامر في هذه العلاقة، وجد نفسه متعاطفًا مع هالة،

لم يعرف ماذا يفعل، أدرك بعد قليل من الوقت أن هالة تستخدمه جدارًا عازلًا، فوجد نفسه يقوم بهذا الدور عن طيب خاطر.

غطت أزمتُها مع زوج أختها واتخاذها الطابع المعلن على أزمتها مع حسني، الذي لم تنسَهُ، لكن انشغالها بمرضها وأزمتها خفف من حضوره الصاخب في رأسها. في بداية مرضها احتلّ حيز تفكيرها كلّه، كلما تذكرته غرقت في البكاء، لأنه هو أكثر شخص شعرت بالحاجة إليه، ولأنه غير موجود، شعرت أنها بحاجة ماسة لأختها فداء. غياب حسني الذي اتصل عدة مرات ولم ترد عليه، لأنها في البداية كانت في حماة، وعندما عادت إلى دمشق منعت نفسها من الرد، خاصة في أوقات مرضها، كانت تعرف أنها إذا ردت ستضعف، وإذا أتى لزيارتها، ستقول له كل شيء، وتأخذ العلاقة منحى آخر لم تكن قادرة عليه. كلما حضر حسني في ذاكرتها حضرت معه زوجته هيام، ما يُشعرها أنها تهدم بيتًا لا يستحق الهدم، وتدمر عائلة لا ذنب لها، عندما أصرّت على عدم الرد، كفَّ حسني عن الاتصال وقال لنفسه: «يبدو أنها لا ترغب بالرد، هي حرة،». وتمنى أن تكون بخير. غياب حسني جعل علاقتها مع عامر تقوى، فهي بحاجة إلى أن تقول ما في داخلها. عامر مطلّ على الوضع وهو مدرك لما يجري، وحتى يصبح الوضع أكثر انكشافًا، أخذ أستاذه

يتصرف برعونة أمامه. في البداية علقت استنكارًا على سلوك زوج أختها، وافقها عامر بهزّ رأسه ليس أكثر. عرفت أنه متعاطف معها، وعرفت أنه يقوم بالأشياء التي تتوقع منه أن يقوم بها، وأدركت أنه يقدِّر جيدًا ما تريد أن يفعله دون أن تطلبه منه، شعرت بالارتياح لأنه يُجنّبها الحرج، وأنه يفهمها جيدًا. هذا ما جعلها تعترف أمامه بمعاناتها مع زوج أختها، وأنها لا تعرف كيف تتصرف معه. أول مرة فتحت فيه الموضوع مع عامر، كانت خارجة غاضبة من المكتب وعامر يلحق بها، بعد ما قال لها زوج أختها: «مزاجك سيئ لأنك لا تفرغين طاقتك الجنسية المكبوتة». شعرت بحرج شديد أن تسمع هذا الكلام أمام عامر، خرجت غاضبة وعندما وصلا إلى الشارع قالت: «إنني مستغربة، كيف يمكنه الاعتقاد أني يمكن أن أفكر فيه وهو زوج أختي. العمى بقلبه، هل يعتقد أني حيوانة». عندما قالت كلماتها كانت أول مرة تفتح الموضوع مع عامر بهذا الوضوح. قال عامر: «اصبري، وستجدين حلًا، في نهاية المطاف ستنتهي فترة تمرينك وتتحرّرين». قالت هالة: «والله، لولا أختي، لعرّفته قيمته، هذا التافه، لا شيء يمنعني، سوى أني لا أرغب في أن أهدم بيت أختي، ولأنه يعرف ذلك يتمادى معي أكثر، وأصبح يتمادى أمامك كما ترى». قال عامر: «لا تغضبي، لا شيء يستحق ذلك، أنت

تعرفين ما يريد وتعرفين ما تريدين أنت، لا مشكلة». قالت هالة: «لكنه يضايقني، يشعرني بالقرف، وأنا عبّرت عن هذا القرف أمامه، وما يجعلني أصاب بالجنون أني أراه سعيدًا عندما أعبر عن قرفي واشمئزازي». قال عامر: «مرة أخرى لا يستحق كل ذلك الغضب، وأنت يجب أن تفهمي أنه يحبك كثيرًا».

وقفت في الطريق، نظرت إلى عامر نظرة استنكار وقالت: «تقول هذا وأنت بكامل عقلك». قال عامر: «نعم، أقول هذا وأنا بكامل قواي العقلية، وكل واحد عنده عقل ويعرف سلوك الأستاذ يعرف أنه لا يحبك فقط، بل يعبدك». كلماته جعلتها تشعر بالسعادة. لم تعرف مصدر هذه السعادة، لم تكن قادرة على التعبير عما شعرت به، أدهشها الشعور بالسعادة عندما قال لها عامر إن زوج أختها يعبدها. فهمت أنه غارق في حبها وأن سلوكه يجعل هذا الموضوع ظاهرًا للعيان، فكّرت، من أين تأتي سعادتها لسماعها أنه يُحبها، في الوقت الذي تشعر تجاهه بالقرف والاحتقار؟! حافظت على شكلها غاضبة وقالت بعدوانية أقل: «أعتقد أنه يريد أن يمارس الجنس معي، لا أكثر ولا أقل». وسرحت في أفكارها وهي تستمع إلى عامر وهو يشرح لها علامات الحب الكبير الذي يكنّه لها أستاذها وزوج أختها، وجدت نفسها تصغي باهتمام، لم تشعر بأي

تغيير في مشاعرها تجاهه، لكنها شعرت بسعادة غريبة عندما سمعت كلمات عامر وهو يشرح لها ما شاهده بعينه. كانت سعادتها تأتي من مكان غامض في داخلها، مكان أشعرَها بحجم التناقض الكبير بين ما تشعر به وبين ما تعبر عنه. عرفت من خلال حديثها مع عامر أنها نقطة ضعف زوج أختها، وأنه يمكن أن يفعل أي شيء من أجلها، شعرت بالقوة تجاهه، على عكس شعورها السابق الذي طرحها مريضة في الفراش. إحساس التفوق منحها الشعور بالنشوة، وعرفت أنها تستطيع التحكم بهذه العلاقة. ذكَّرها بالكثير من التفاصيل الصغيرة التي نسيتها للدلالة على موقفه، وعندما استعادتها أدركت أن ملاحظاته صحيحة، «نعم إنها سلوكيات محب». قالت لنفسها بعد الكلام الذي سمعته، شعرت بنفسها أقل عدوانية وأقل كرهًا له، لكنها لم تغيّر من سلوكها، وبقي يرافقها شعورها بالقرف كلما شاهدته. أصبحت تشعر أنها مجبرة على تحمل كل الغلاظات التي يقوم بها، ليس فقط لأنه زوج أختها، بل أصبح هناك سبب آخر، لأنها غلاظات تأتي بسبب الحب أيضًا.

ازدادت علاقة هالة بعامر قوة، قرَّبَ بينهما بسرعة خروجهما المستمر مع بعضهما وحرصها على البقاء معًا حتى لا يستفرد بها زوج أختها. انتبه أستاذها لهذه العلاقة وأخذ يحتج، وكلما احتج

أكثر تقرّبت هالة من عامر أكثر، كان ذلك في البداية من أجل إغاظة أستاذها، وقد نجحت في ذلك، لكنها بعد ذلك أخذت تشعر بالانجذاب إلى عامر بصرف النظر عن تلك الإغاظة. استعادت تاريخ العلاقة القريبة بينهما، وجدت أنه يعاملها بلطف ويفعل كل ما تطلبه منه دون تذمر، سلوكه يقول إنه يحب أنْ يبقى إلى جانبها، قال لها كل الأشياء التي تسعدها، وهذا ما جعلها تشعر أنه أقرب إليها مما تصورت في السابق، لم يكن حاجزًا في وجه أستاذها فقط، لقد بدأ يحفر مكانًا له في حياتها أيضًا.

فكّرت في ذلك كله، عندما حصلت الصدفة المتوقعة، كانت تدفع بحسني فاضل إلى الخلف في تفكيرها، وساعدها في ذلك أزمتها مع زوج أختها والتوتر الذي ساد بعد تلك الأزمة. كانت تعرف أنها ستلتقي حسني فاضل آجلًا أو عاجلًا، فلا يمكن أن يعملا في مكان واحد ولا يلتقيا، الصدفة وحدها أخّرت هذا اللقاء لأكثر من شهر. توقعت لقاءهما قبل ذلك، ما الذي تستطيع أن تفعله في حال لقائهما؟ فكّرت طويلًا في ذلك، وقرّرت حلولًا من نوع أنها ستتجاهله وهو سيفهم الرسالة، إنه رجل حسّاس، لا شك بأنه سيفهم. لكنها وجدت في مثل هذا السلوك طفولية لا تليق بها، فقد كان آخر لقاء بينهما جميلًا، صحيح أنها لامت نفسها على ذهابها

إلى بيته والتعرف على زوجته، ولكن لم تكن هناك أي أزمة أو خلاف بينهما حتى تتجاهله عندما تراه. فكّرت في أنْ تصارحه بطريقة مؤدبة وتقول له، إنها لا تريد هذه العلاقة... فكّرت بالكثير من القرارات، بعضها معقول وبعضها طفولي، ولكنها في النهاية لم تستقر على أي قرار، وتركت ما يجب فعله للحظة اللقاء.

عندما حلت الساعة، كان الموقف غريبًا، عشرات المواقف التي فكّرت فيها كانت شيئًا مختلفًا عمّا جرى معها. كانت تتابع هي وعامر عمل أستاذهما في القصر العدلي، بعد أن انتهيا من عملهما في محكمة البداية المدنية الخامسة، مشَيا باتجاه الشرفة في الطابق الأول من القصر العدلي. في منتصف الطريق إلى المدخل، وقفت هالة في مكانها، أمسكت بيد عامر، قالت له: «علينا العودة». ارتجف جسدها ولم تكن قادرة على التقاط أنفاسها، دارت في المدخل وسارت مُسرعة بعكس الاتجاه، لحقها عامر وهو يقول لها: «ما بك؟!... ما بك؟!». لم ترد. عندما انتهى الممرّ ودخلت في انعطاف الممر الثاني، وقفت وأسندت ظهرها ورأسها إلى الجدار وأخذت نفَسًا عميقًا. كانت منهكة تمامًا، لم تفهم ما الذي يجري لها ولماذا هربت بهذه الطريقة.

كان حسني فاضل يقف مع شخص آخر أمام مبنى الوكالات المقابل للمدخل الذي كانا فيه. حسني لم يشاهدها، عندما شاهدته

هي، ارتبكت وعرفت أنها غير قادرة على مواجهته، وأنها غير قادرة على تنفيذ أي من الأفكار التي فكّرت بها للخلاص من العلاقة معه. سمعت دقات قلبها، ارتجف جسدها ولم تعد قادرة على التفكير أو إخفاء رجفتها، أصيبت بالصدمة من ردة فعلها ومن عجزها عن مواجهة حسني فاضل ومن خوفها منه، وهي تعرف أنه لن يفعل لها شيئًا وحتى لن يسمعها كلمة تزعجها، قد يلومها هذا صحيح، لكنه لن يزعجها، سألت نفسها: «لماذا فعلت ذلك؟». لم تكن تملك جوابًا. سألها عامر عدة مرات عن سبب ما قامت به، وبعد أن التقطت أنفاسها قالت: «شاهدت صديقة قديمة، لا أرغب في رؤيتها». نظر عامر إليها وقال: «هل هي مخيفة إلى هذه الدرجة؟!». قالت: «إنها ثقيلة ظل، وأنا لم أصدق أنني تخلصت منها، ولا أريد أنْ تستلمني مرة أخرى». زفرت زفرة قوية وهي تنزع نفسها عن الجدار الذي تستند إليه وتقول له: «دعنا نذهب من المدخل الثاني». قال: «تفضلي، ولكن الصديقة الغليظة لا تسبب كل هذا الخوف والهرب، على كل حال كما تشائين». عرفت من لهجته أنه غير مقتنع بما قالته، لم يصرّ على معرفة الموضوع، احترم رغبتها في ذلك، وقال لنفسه: «يمكن أن يكون صحيحًا، لماذا على الآخرين أن يتصرفوا مثلي».

شعرت هالة بالتعب فجأة، قالت له بعد أن نزلا الدرج وأصبحا في البهو: «أنا متعبة، أريد الذهاب إلى البيت». قال: «أنا سأوصلك». قالت: «لا داعي لذلك، سآخذ تكسي من عند الباب». أصرّ أن يوصلها، لم تكن قادرة على الجدل، في تلك اللحظة وتحت إصراره الغريب، عرفت أن اللطف المبالغ فيه يتحول في لحظات إلى غلاظة لا يمكن تحمّلها. قالت بنبرة حازمة ورادعة: «أرجوك، هذا يكفي، أريد أن أذهب، ولا أريد أن توصلني». قال: «أنا آسف، كما تشائين». تنحّى عن طريقها وهو مذهول من لهجتها. مشت باتجاه باب القصر العدلي، لم تنظر خلفها. أوقفت أول سيارة تكسي، رمت نفسها في المقعد الخلفي وقالت للسائق: «حديقة السبكي، الله يخليك».. دار محرك السيارة، غرقت في أفكارها، قلبها ما يزال يدق، هربت من حسني، لأنها لم تكن قادرة على مواجهته، ولا على تنفيذ أيٍّ من القرارات التي فكّرت فيها في الفترة التي لم يلتقيا فيها. اشتاقت له، لكنها قوّت نفسها من أجل عدم الاتصال به أو مشاهدته واللقاء به، شعرت أن تقويتها لنفسها يمكن أن تنجح في حالة أخذت وقتها. فكّرت طويلًا في ذلك منذ غادرت إلى حماة هربًا من حسني بعد الزيارة المشؤومة إلى بيته والتعرف على زوجته. كل شيء يقول إن علاقتهما محكوم عليها بالإعدام، كانت

على يقين من هذا الاستنتاج، شعرت أنها أقوى وأقدر منه على قطع العلاقة. بعد ما جرى وسمعت صوت دقات قلبها، عرفت أنها ما تزال عالقة مع هذا الرجل، وأن إخراجه من قلبها مسألة أعقد ممّا تصورت. خافت وهربت لأنها أدركت أنها في اللحظة التي تلتقي عيناها بعينيه، لن تستطيع أن تقول له أي شيء حول قطع علاقتهما. بل على العكس شعرت أنها ستنهار بين يديه، وتطلب منه الصفح عن الطريقة غير اللائقة التي تعاملت بها معه دون أي سبب. كان الهروب أفضل وسيلة لعدم مشاهدتها لنفسها وهي تستسلم أمام مشاعر معجونة بالألم والحزن. وجدت نفسَها تفكر فيه طوال الوقت، مجرد لمحة كانت كافية لأن تقضي ليلتها تستذكر علاقتهما وتفاصيلها الكبيرة والصغيرة والأحاديث والخلافات خلال الفترة السابقة. مرَّ الشريط الجميل في ذاكرتها وكأن أحداثه جرت منذ لحظات، وجدته يحتل قلبها من جديد، في الوقت الذي حاولت خلال الأسابيع الأخيرة إخراجه منه، وجدته يحتلّ قلبها أكثر من السابق، لم يسعدها ذلك، وجدت نفسها أكثر حزنًا.

عندما هدأت هالة أدركت أنها تعاملت مع عامر بطريقة حادة، مع أنها لم تتعامل مع أحد بهذه الطريقة من قبل. كان السلوك الفجّ آخرَ شيء يمكن أن يصدر عنها، لكنها هكذا تعاملت مع عامر، استغربت

من نفسها ومن التغيرات التي ظهرت عليها في الأشهر الأخيرة، شعرت بنفسها مختلفة عن هالة التي كانت قبل أشهر. لم تكن سعيدة بهذا التغير، فهي لم تعرف نفسها عصبية ونزقة وصوتها يرتفع على الآخرين من قبل. قرّرت أن تعتذر من عامر على سلوكها. في اليوم التالي وقفت أمامه في مكتب أستاذها وهي تضع رأسها في الأرض، قالت والخجل يعتري وجهها: «آسفة بشأن الأمس، لم أكن أقصد أي إساءة». ابتسم عامر ابتسامته الدمثة، قال: «ليس عليك الاعتذار، لم تفعلي شيئًا. أنا من يجب أن يعتذر، يبدو أني تجاوزت حدودي وتدخلت في قضايا شخصية». قالت هالة: «لا تقل ذلك، أنت لم تخطئ، أنا من أخطأت بحقك، لم يكن عليّ أن أتعامل مع تعاطفك بهذه الطريقة الفجة». قال عامر: «لا عليك، لست غاضبًا منك، ما جرى لا يستحق الحديث، لنذهب إلى عملنا».

ذهبا إلى القصر العدلي القريب من المكتب، وخلال الدقائق التي قضياها وهما في طريقهما لم يتبادلا سوى بضع كلمات. عندما دخلت من الباب الرئيسي، وجدت نفسها تتلفّت ذات اليمين وذات الشمال، وتمسح بنظرها كل الشرفات المطلّة على البهو. لم تنتبه لما تقوم به، لكنه لفت انتباه عامر الذي سألها: «هل تبحثين عن أحد؟». قالت: «لا، لا أبحث عن أحد، لماذا تسأل؟». قال: «لا

شيء». وتابع مراقبتها وهي تتلفت بكل اتجاه، فعلت ذلك عدة مرات، عاد لسؤالها: «عمّن تبحثين؟». قالت: «لا أبحث عن أحد». قال: «لماذا تتلفتين حولك طوال الوقت؟!». عندما قال كلماته انتبهت في تلك اللحظة أنها تتلفت فعلًا في كل اتجاه، قالت: «أنا أتلفت طوال الوقت؟!». صمتت لحظات وأضافت بسخرية من نفسها: «يبدو أن مسًّا من الجنون قد أصابني». بعد أن انتبهت لما تقوم به، حاولت أن تضبط نفسها، رغم ذلك تفلت منها بعض الالتفاتات. ولأنها لم تكن قادرة على ضبط نفسها، اعتذرت من عامر وقالت: «أنا ذاهبة، عندي مراجعة في المالية». قال: «انتظريني، نصف ساعة وأنتهي وأذهب معك». قالت: «لا عليك، انتهِ من عملك ولا تشغل نفسك بي، أنا مستعجلة، عندي مشوار بعد المالية». قال: «كما تريدين». قالت: «أراك غدًا في المكتب، مع السلامة». قال: «مع السلامة».

تركته ومشت باتجاه باب القصر العدلي، ومنذ اللحظة التي تركته فيها أخذت تتلفت حولها، راقبها عامر وهي تتلّفت وكأن أحدًا يلاحقها، وعندما التفتت إلى الوراء، شاهدت عامر يراقبها باستغراب واندهاش، أدركت أنه يراقب تلفتها وكأنها تبحث عن شخص. ضبطت نفسها حتى خرجت من باب القصر، وفكّرت في

ما تفعله، فمنذ نبهها عامر إلى أنها تتلفت وكأنها تبحث عن شخص ما، عرفت أنها تبحث عن حسني فاضل، لكنها لم تعرف هل هي تبحث عنه لأنها اشتاقت له وتريد أن تراه لتقول له الكثير من الأشياء التي ترغب في قولها، من حزنها على فراقه والقطيعة معه التي اختارتها بنفسها، إلى مشكلتها مع زوج أختها، إلى إحساسها بالوحدة وحاجتها للبشر الذين لا يشعرون بها، ولتقول له إن الوحدة تقتلها وأنها تريد أن ترمي نفسها في حضنه وتقول له إنها تحبه وتفكر به طوال الوقت. أم هي تبحث عنه حتى تهرب منه، لأنها لا تستطيع أن تقول له ما ترغب فعلاً في قوله، ولأنه ليس لها، فلا تجد أمامها سوى الهروب، إنها تبحث عنه من أجل أن تهرب منه. سألت نفسها: «إلى متى؟! طالما نحن نعمل في المكان نفسه، سنلتقي دائمًا، والمسألة ليست صدفة، بل هي مسألة محسومة، سألتقي به عشرات المرات، وليس في كل مرة أستطيع أن أهرب منه كما هربت بالأمس. ما الذي أفعله؟ يا ربِّ ساعدني». رفعت رأسها، نظرت إلى السماء وهي تقول لنفسها الكلمات الأخيرة. لكنها لم تعرف ما الذي ستفعله عندما تلتقي به المرة القادمة.

بات موضوع لقاء حسني يشغلها طوال الوقت، وكلما فكّرت فيه أكثر وجدت نفسها أكثر ارتباكًا. لم يكن الموضوع معقّدًا، كان

بسيطًا جدًا كما فكّرت فيه، أما أن تقطع العلاقة معه لأنها غير قادرة على الاستمرار بها، فهي لا تستطيع أن تحمل مشاعر ولا تعبر عنها، وأما أن تقبل بالوضع الراهن، أو تحافظ على حميمية دون إعلان، أي أن تعيش علاقة حبّ دون لفظ الكلمة ذاتها، البساطة هي التعقيد بالنسبة لها، فعلى وضوح المعادلة لم تكن قادرة على حسمها بأي اتجاه. ظلّ الموضوع يطرق رأسها كمطرقة ثقيلة إلى تلك اللحظة التي أجّلتها بقدر ما تستطيع، لحظة اللقاء. سافر عامر إلى بلدته مشتى الحلو لأن عمّه قد توفِّي، وكان على هالة أن تذهب إلى المكتب دون الحاجز الذي أمّنه عامر بوجوده طيلة الفترة السابقة، عاد أستاذها إلى تلميحاته الجنسية، لم تردّ عليه، تأخذ عملها المقرّر وتذهب سريعًا إلى القصر العدلي، حتى لا تصطدم به، عادت إلى الخوف منه، وحتى لا يرى خوفها كانت تهرب منه سريعًا. حضرت دعوى في محكمة الصلح السادسة التي تقع في الطابق الأرضي في المدخل الثاني الموجود في البهو، كانت خارجة من باب المحكمة وهي تفتح دفترها لتكتب فيه الموعد الجديد لجلسة المحكمة القادمة، لم تكَدْ تخرج من الباب حتى اصطدمت بشخص أطاح بالدفتر من يدها على الأرض، رفعت رأسها غاضبة تريد أنْ تقول كلمات قاسية عن الانتباه والذوق، عندما سمعت

صوته يقول: «أنا آسف». هز الصوت أعماقها بقوة، شعرت بالدوار، آخر ما كانت تتوقعه، إنه صوته لا يمكن أنْ تخطئه، لقد عرفته وسقط قلبُها قبل أنْ ترى وجهه. عندما انحنى ليلتقط الأجندة والقلم اللذين وقعا على الأرض من يدها، كانت ترتجف من شدة المفاجأة، لم تصدق أنه حسني، انعقد لسانُها، لم تعرف ماذا تقول، بلعت كلماتها عن قلة الذوق التي كانت تريد أن تقولها، لكنها لم تجد كلمات أخرى. التقط حسني الأجندة والقلم ورفع رأسه ليعطيها لصاحبتها التي اصطدم بها وهو يعتذر، لم يصدق أن من تقف أمامه هي هالة بلحمها ودمها. وقف قبالتها، شاهد ارتجافها الذي لم تستطع إخفاءه، كان ارتجافها واضحًا على يديها وهي تتناول أجندتها من يده. نظر في عينيها، أشاحت بوجهها لأنها لم تكن قادرة على النظر، فضحتْها عيناها، قال: «أنا آسف، إذا كنتُ أخطأت بحقك. هل أخطأت بحقك؟». قالت: «أعوذ بالله، أنت لم تخطئ بحقّي». قال: «إذا كان يرضيك ويريحك أن تقطعي علاقتك معي، فأنا لن أتطفل على حياتك، وسأحترم هذه الرغبة، أما أن تقاطعيني بهذه الطريقة، فهذا لا يليق». عندما سمعته يتحدث عن قطع العلاقة، خافت، صحيح أنهما لم يلتقيا منذ حوالي الشهر وأنها قرّرت وحدها قطع هذه العلاقة، لكنها فكّرت دائمًا أنها تستطيع في

أي لحظة الاتصال به والاعتذار عن تقصيرها بحقه لأي سبب كان، وتستعيد العلاقة. الآن تواجه هذا الموضوع مباشرة، هو يعرض عليها قطع هذه العلاقة، بات الاستحقاق مطروحًا أمامها، أخافها قطع علاقتها مع حسني، عرفت خلال الفترة الماضية من علاقتهما أن حسني جدارها الأخير، والآن تعرف أنها بحاجة إلى هذا الجدار أكثر من أي وقت آخر. شعرت بالرعب من فقدان حسني، قالت بارتباك: «أنا لا أستطيع الاستغناء عنك، أرجوك سامحني على ما بدر مني». قال: «لا تعتذري، لا شيء يستحق الاعتذار، فأنت تعرفين مكانتك عندي». هدأت عندما سمعت هذه الكلمات، نظرت لأول مرة في عينيه، كانت في غاية الشوق إليه، ولأنها عرفت أن كل شيء فيها يفضحها غضّت نظرَها، لم يكن يريد أن يحرجها، قال: «انتظريني، سأحضر الدعوى وأسمع أخبارك». دخل إلى قاعة المحكمة. تنهّدت بقوة ووقفت تنتظره، لم تفكر بالهرب كما في الأسابيع الماضية، الأفكار التي عذّبتها طوال الأيام الماضية، ذابت كما يذوب الملح في الماء، شعرت بالسعادة والارتياح لأنها استعادت علاقتها مع حسني بهذه السهولة بعد أن سهرت الليالي تفكر كيف تقطع تلك العلاقة، وكأنّ ذلك كلّه لم يكن يعذبها حتى قبل ساعات.

اجتاحها شلال ذكريات متدفق، تزاحمت كل خطوط حياتها، شريط من الألوان من السعادة والحزن والألم، كل ما مرَّ في حياتها ازدحم في رأسها في الطريق بين دمشق وروما. توقف التدفق الهائل للذكريات، عندما طلبت المضيفة من ركاب الطائرة التي تُقلّها إلى روما في طريقها إلى الولايات المتحدة الاستعداد للهبوط في مطار روما بربط أحزمتهم. أخذ الركاب بتنفيذ تعليمات المضيفة، انتبهت هالة إلى المسافر بجوارها ما زال نائمًا. هزّته وهي تقول له: «يا أستاذ، الطائرة ستهبط، اربط الحزام». تململ في مكانه دون أن يفتح عينيه. هزته بقوة أكبر، استيقظ فزعًا وهو يقول: «ماذا هناك... ماذا هناك». قالت هالة: «لا شيء، الطائرة ستهبط، اربط حزامك». قال بعصبية والخوف ظاهر عليه: «لماذا أيقظتِني، أخذت منومًا قبل صعودي إلى الطائرة لأني أخاف الطيران، كان عليك أن تتركيني نائمًا حتى تهبط الطائرة». قال كلماته ولم يكن قد صحا تمامًا بعد. اعتذرت هالة قائلة: «أنا آسفة على إزعاجك». قال الرجل وهو يربط حزامه: «لا عليك، كان عليّ قبل أن أنام إخبارك أن لا توقظيني». قال كلماته وأغمض عينيه بقوة، ولم يفتحهما إلا عندما وقفت الطائرة على أرض مدرج المطار.

عندما وضعت هالة قدمَيها على أرض المطار، شعرت بإحساس غريب ينتابها، إحساس لم تكن قادرة على شرحه لنفسها، كانت أول مرة منذ سنوات طويلة تسير بين بشر آخرين والهواء يتلاعب بشعرها. شعرت بحرية أكبر، ذلك الغطاء الذي كان يضغط بشدة على أذنيها ويزعجها لم يعد موجودًا، أحسّت أن حِملًا ثقيلًا نزل عن كاهلها. عندما صعدت إلى الطائرة في دمشق، اعتقدت أنها ستبقى خجلة مما قامت به، لأنها سترى الناس تنظر إليها، ولكن في مطار روما لم يكن أحد ينظر إلى أحد، شعرت أنها غريبة بين غرباء عابرين في المطار ذاهبين إلى مدن في كل الاتجاهات، الشمال، الجنوب، الشرق، الغرب. كانت لوحات إعلانات حركة الطيران تشير إلى كل هذه الاتجاهات. فكّرت: «ما الذي يهم الذاهب إلى طوكيو أو أوتاوا أو الذاهب إلى كوبنهاجن إن كنت أضع الحجاب أم لا، هو أصلًا لا يراني، وكأني غير موجودة، إنهم يعبرون بمحاذاتي دون أن يعبّروا عن استنكارهم أو فرحتهم لأني نزعت الحجاب، وهم لا يعرفون ولن يعرفوا إذا ما كنت أضع الحجاب أصلًا قبل بضع ساعات، فأنا بالنسبة لهم مجرد شبح يمر بمحاذاتهم ولا يلحظونه».

ما اعتبرته مسألة كبيرة قبل ساعات أصبح جزءًا من الماضي، سريعًا ما أخذت تُدخل أصابع يدها بين خصلات شعرها لتزيحه

عن عينيها وكأنها لم تضع الحجاب على رأسها أبدًا. ارتدت حجابها يوم وفاة والدها قبل خمسة عشر عامًا، منذ ذلك اليوم لم يرَ شعرها سوى رجل غريب واحد، وهي لا تعرف إن كان غريبًا أم لا. غيابُ الحجاب عن رأسها أعطاها إحساسًا غريبًا بالراحة، لأنّ كل الذين يشاهدونها في مطار روما لا يعرفونها، فلا تشعر بالحرج، وشعرها المفرود والمتناثر على كتفيها أشعرَها بأنها خفيفة. في الوقت ذاته، كلما رفعت يدها لتعدّل من وضع حجابها، وهي عادة قديمة عندها، لا تجده، تشعر بالضيق، فهي قد وضعت حجابها من أجل آخرتها، وإذا لم يوجد في مطار روما من يعرفها لتشعر بالحرج، فإن الله يراها وهي وضعت الحجاب من أجل إرضائه لا لإرضاء البشر. كان الحرَج الذي شعرت به قبل ساعات في مطار دمشق بالنسبة لنزعها الحجاب يختلف عن الحرج الذي تحوّل إلى تناقض داخلها في مطار روما.

عادت لتتذكر حسني فاضل وحديثه عن التديُّن في العمق والتدين في الشكل، تعليقًا على حجابها. كانت حادة في الردّ عليه، ويردّ عليها بكل هدوء. تذكرت قوله: «الحجاب لا يعني التديُّن على الإطلاق، قد يعني ادّعاء التدين، لكن لا يعني أن من ترتديه متدينة، ولا يعني أن من لا ترتديه ليست متديّنة. أصبح موضة أكثر

منه إشارة تدين، وأعتقد أن الشكليات هي آخر شيء يمكن أن يهم الله، إذا أراد أن يحاسب عباده».

يومها وجدت هالة نفسها مستفزة، شعرت أنه يتهمها بإيمانها وتدينها، يقول كلامه من أجل إغاظتها. احتقن وجهها، اضطربت حركتها وقالت بلهجة حادة: «أنت تقول ذلك لأنك كافر ولا تعرف الله، وما أدراك ما قيمة الحجاب، لقد فرضه الله على نساء المسلمين، ومن ترتديه تكون استجابت لفرض من فروض الدين». كانت حدّتها واضحة بالنسبة لحسني، رد عليها قائلًا: «حتى لو كانت من ترتديه عاهرة؟». أجابت من دون تفكير وبحدة أكبر: «حتى لو كانت عاهرة». شعر حسني أن الحديث سيذهب إلى مكان لا يحبه، حاول أن يُهدئ من غضبها دون أن يغير مواقفه قال بهدوء: «على مهلك عليّ. لماذا كل هذه الحدة، الموضوع لا يستحق التكفير. حكمتِ عليَّ بأني كافر، وإذا غضبتِ قليلًا تُفتين بهدر دمي، مسألة كافر أو مؤمن، ليس للبشر علاقة فيها، هي علاقة بينهم وبين ربهم، وليس لأحد من البشر رقابة عليها، وليس لأحد أن يبحث في قلوب الناس. الله هو الذي يحاسب البشر على الإيمان والكفر وليس البشر هم الذين يحاسِبون بعضَهم. وعندما يفعلون ذلك ماذا يتركون لله». قالت والحديث يزداد حدة: «أنا أعرف أنك مُلحد ولا

تعرف الله، لذلك فأنت كافر». قال: «أنا مُلحد ولا أعرف الله، مسألة بيني وبين الله، أما أن تقولي إنني كافر، فهذا أصبح حكم قيمة عليَّ، ما يستوجب موقفًا مني، وإذا كان إلحادي يزعجك، فأنت تستطيعين أن تقطعي هذه العلاقة، أما أن تحكمي أني شخص رديء من أجل ذلك وتقولين عني كافر بقرف، فهذا ليس من حقك، ربك سيحاسبني وقت الحساب، إذا كان له عندي شيء. ليس لك ولا لغيرك الحق في محاسبتي على قناعاتي وأفكاري، طالما أنا لا أوذي الآخرين ولا أعتدي عليهم، ولا أتعرّض لهم أو لحقوقهم، ليس لأحد أن يحاسبني على أفكاري. لقد دفعت ثمن هذه الأفكار عشر سنوات في أسوأ أنواع السجون، بعد هذا الثمن، تأتين أنت لتحاكميني بالوكالة عن الله. لم يسبق لأحد من أصدقائي أو معارفي المتدينين أن قال إني كافر مع أنهم يعرفون أني ملحد، رغم أني لا أحب هذه الكلمة، لكنها توصيف قناعة، أما كلمة كافر، فتضع الشخص الآخر خارج الجماعة وتحوله إلى شيء منبوذ وكريه، لأنه لا يفكر مثلي. التدين يا عزيزتي هو أن أعامل الآخرين جيدًا ولا أعتدي على حقوقهم، وليس أن ألبس الحجاب وأرتكب الموبقات وأقول إني متدين وإن الله سيغفر لي لأن على رأسي حجابًا، أو لأني أطيل ذقني وأصلي الصلوات الخمس. هذا ليس من التدين في

شيء، هذه أدوات نصب واحتيال...». استمعت إليه وهي تضبط نفسها بصعوبة، لكنها لم تعد قادرة على الاحتمال، نظرت إليه مباشرة: «أنت من سيعلمني الإيمان والتدين، كل ما تقوله لا معنى له، التدين عبادات والصلاة والصيام والحجاب وغيرها أوامر إلهية يجب الالتزام بها، ولا يحق للملحدين أن يتحدثوا عن الدين طالما لا ينتمون إليه. أما أن يُفصّل كل واحد الدين على قياسه، فهذا هدم للدين واعتداء عليه. أنت تقول إن حجابي لا معنى له، وليس له أي قيمة في تديني. لا يا عزيزي هذا الحجاب هو الذي يحميني من نفسي قبل أن يحميني من الآخرين، وإذا لم أكن محجبة فلا شيء يردعني». قال حسني: «هذا رأيك، وأنت حرة فيه، أما عن كوني لا علاقة لي بالدين وأنا الملحد، فهذه اسمحي لي بها. أنا الملحد أكثر تديناً بالمعنى الأخلاقي للتدين، وليس بالمعنى الطقوسي الشكلي، أكثر من ملايين المتدينين الذين يذهبون إلى الجامع لأداء الصلوات ويقومون بفريضة الحج ويصومون رمضان، وهم يرتكبون كل موبقات الغش تحت عنوان التجارة، والنصب والاحتيال تحت عناوين دينية، ليس من حقي أن أعلّمك الدين، وليس من حقك أن تعلميني الدين، فانا أعرف في الدين أكثر من عشرات الشيوخ الذين يُفتون كل يوم فتاوى مضحكة ويتبعهم آلاف المجانين الجاهلين

أمثالهم. ليس صحيحًا أن الدين لا يهمني، فأنا لي في هذا الدين قدر ما لك وقدر ما للمتدينين النصابين والمتدينين الحقيقيين. أما أن الدين للمتدينين وحدهم ونحن لا علاقة لنا به، هذا هراء، ليس من حق أحد أن يحتكر الدين ويعتبر نفسه وكيلًا لله على الأرض، وليس من حق أحد أن يحفر في قلوب الناس ليعرف أنهم متدينون أم لا، التدين مسألة شخصية لا تعطي المتدين تفوقًا على الآخرين، هي علاقة بينه وبين ربه وليست برستيجًا اجتماعيًا يُزايد على الآخرين به، ويعتبره بطاقة دخول للأماكن المحرمة، الذي يريد التدين حر في نفسه، ومن يريد أن يكون ملحدًا حر في نفسه، وليس من حق أي منهما الاعتداء على الآخر...». شعرت هالة أن الحديث قد وصل لدرجة الانفجار ولم تعد راغبة في مواصلته. قالت غاضبة: «أنا لم أعد قادرة على الكلام في هذا الموضوع، أنا ذاهبة إلى البيت». أشارت بيدها لسيارة تكسي بالتوقف دون أن تُنبه حسني، ركبت فيها وحدها أمام دهشة حسني، قالت ودون أن تنظر إليه «سلام». قال وهو يبتسم من الشكل الطفولي الذي عبرت به عن انزعاجها: «مع السلامة»..

تذكرت تفاصيل الحديث، خجلت من طريقة تصرفها. ولكنها تذكرت فكرة حسني «أن الحجاب لا يقدم ولا يؤخر في الإيمان».

فهي نزعت حجابها ولكنها لا تشعر أن إيمانها قد نقص. لم تُطل التفكير في ذكرياتها، أخذتها أضواء المطار الضخم، مطار جميل، مطار دمشق الذي غادرته منذ ساعات ليس سوى نفاية إذا ما قارنته بمطار روما. سارت على غير هدى في المطار، الذي هو فعليًا سوق كبير، أمامها ست ساعات انتظار حتى تقلع الطائرة الذاهبة إلى نيويورك، اعتقدت أنها ستكون أطول ست ساعات انتظار في حياتها، لكنها لم تكن كذلك، لأن الفضول أخذها إلى المحلات التي تمتد سوقًا في مطار روما، ماركات ألبسة كانت تتوق لشرائها، أخذت تنظر إليها في واجهات المحلات، ماركات عطورات، كاميرات بكل أنواعها، شوكولا وكانت تعشقها، أشياء من السحر موجودة في كل مكان. في المكان الذي خافت أن تقتلها الساعات، مرت أسرع مما توقعت، كانت عيناها ما تزال معلقة بواجهات المحلات في المطار، عندما أعلنت حركة الطائرات لركاب الرحلة ٧٦٦ المتجهة إلى نيويورك أن يتّجهوا إلى البوابة ٧. انتزعها الصوت الناعم والرقيق للمرأة القادم من الميكرفونات من واجهات المحلات. أخذت تبحث عن البوابة رقم ٧ في صالة المطار، سرعان ما وجدتها، لتجد نفسها على متن الطائرة التي ستحملها إلى القارة البعيدة عبر ساعات طويلة من الطيران.

عندما جلست في مقعدها قرب النافذة، كان المقعد المجاور لها فارغًا، انتظرت الرجل الذي قضى الرحلة من دمشق إلى روما نائمًا، بعد قليل جاءت امرأة قليلة الحجم بملامح صينية أو يابانية دقيقة، لم تستطع هالة أن تقدر عمرها، لأن ملامحها لا تعطي أي مؤشر على عمرها، رغم حدس هالة أن المرأة كبيرة في السن، إلا أن ملامحها طفولية، كانت في غاية اللطف، تنحني وتنظر لها بابتسامة محببة، تضع في رقبتها لوحة كتب عليها بالإنكليزية اسمها ورقم رحلتها وعنوان في مدينة نيويورك. استغربت هالة أن تحمل المرأة هذه اللوحة، لكنها عندما حاولت أن تتحدث معها بالإنكليزية قالت لها: « How are you?». لم تفهم المرأة ما تقوله وأشارت لها الى اللوحة المعلقة في رقبتها، عرفت هالة أن هذه المرأة لا تعرف الإنكليزية، وأن اللوحة في رقبتها، ليساعدها الآخرون لإيجاد طريقها في السفر إلى الولايات المتحدة. أُحبطت هالة فهي غير قادرة على الحديث مع جارتها في ساعات الرحلة الطويلة فوق المحيط.

عندما أقلعت الطائرة من مطار روما، أحسّت هالة إحساسًا غريبًا، إحساسَ الشخص الذي يعبر برزخًا بين عالمين. شعرت أنها تودّع عالمها القديم وحياتها القديمة، للذهاب إلى عالم جديد وغريب عليها ولا تعرف ما الذي ستفعله هناك. صحيح أنها تذهب

عند أختها، ولكنها تذهب إلى عالم لا تنتمي إليه. لقد تركت عالمها، طفولتها، ذكرياتها، دراستها الجامعية، آلامها، أحلامها، أحزانها، أفراحها، باختصار تركت حياتها، تركتها هناك بين دمشق وحماة وهي تذهب اليوم إلى أرض جديدة تاركة كل شيء وراءها. عادت لتسأل نفسها: «وما الذي سأفعله هناك؟». أجابت: «سأعود لأعيش عالة على فداء، سأعود عشر سنوات إلى الوراء». عرفت أن هذا غير حقيقي، وأنها آخر شخص يمكن أن يكون عالة على فداء، فالأبناء لا يكونون عالة على آبائهم، ولطالما تعاملت فداء مع هالة على أساس أنها ابنتها التي لم تلدها. لكن هالة ورغم الآلام التي شعرت بها قبل مغادرتها دمشق، ورغم أنها ترغب في المغادرة بعد ما جرى، شعرت أنها تخسر حياتها التي صنعتها في دمشق بحلوها ومُرّها. كان خوفها ممزوجًا بالخيبة والدهشة مما تشعر به.

حلقت الطائرة، وقع قلبها من مكانه، شعرت بخدر ما بين الصحو والنوم كالذي يشعر به المريض بعد تناول المخدر لإجراء عملية جراحية. أغمضت عينيها، سمعت صوت قلبها يدق بقوة وبسرعة وبصوت مسموع، لم تعرف هل هي خائفة من إقلاع الطائرة، كما كانت خائفة عندما أقلعت في دمشق، أم هي خائفة من المكان الذي تذهب إليه وحياتها الجديدة، أم هي خائفة من نفسها؟

شعرت كل شيء فيها غريبًا، وأحاسيسها أكثر غرابة، شعرت نفسها شخصًا آخر يراقب نفسه، يراه ولا يراه، مشاعره مختلطة، يعرفه ولا يعرفه، شيء من التحليق والسقوط المتكرر، لا تعرف لماذا التحليق، ولا تعرف لماذا السقوط. أول مرة تشعر بهذا الشعور الغريب، الذي لم تجد له تفسيرًا. تركت نفسها لهذا النوسان العجيب، لا تعرف نفسها، لا تعرف من هي. أول مرة تخرج من نفسها لتراقب اختلاجاتها ومشاعرها المتضاربة وخوفها واضطرابها، لم تشعر بنفسها، راقبت دقات قلبها السريعة وشعرت أنها تسمعها وكأنه قلب لشخص آخر. خافت من حالتها، فتحت عينيها، نفضت رأسها بقوة، استغربت المرأة الآسيوية إلى جانبها من حركة رأسها، خافت عليها، وعندما فتحت هالة عينيها كانت المرأة الطفلة إلى جانبها تحدّق فيها بقلق. عندما شاهدتها تفتح عينيها ابتسمت وهزت رأسها وتلاشت علامات القلق عن وجهها. عرفت هالة أن المرأة قلقت عليها، ابتسمت لها معتذرة وقالت: « I am sorry». فهمت المرأة أنها تعتذر منها، ضمت يديها ووضعتهما أمام وجهها، أغمضت عينيها، هزت رأسها وهي تبتسم، حيّتها كما كانت هالة شاهدت الآسيويين يحيّون بعضهم في الأفلام التي شاهدتها على التلفزيون.

رؤية جارتها تنحني بتحية صينية، ذكّرتها بأنها ستبقى مع نفسها طوال الوقت، بدت الساعات القادمة طويلة عليها. أخذت تفكر بأختها، وسألت نفسها أي تغيرات جرت على حياة فداء وعلى شخصيتها، لقد غادرت دمشق قبل أكثر من عشر سنوات ولم تعد إليها، إلا في السنتين الأخيرتين، وكانت المرتان بسبب هالة. المرة الأولى، عندما حُسم أمرها حين عرفت أنها لن تنجب أطفالًا بعد عملية استئصال الرحم ولن تعود للعيش في دمشق، ومن أجل أن تشعر أختها بالأمان في دمشق، عادت دون أن يعرف أحد لأسبوع واحد. كانت فرحة هالة بأختها كبيرة، لقد اعتقدت أنها لن تراها مرة أخرى. اتصلت فداء قبل ساعات من مغادرتها نيويورك، قالت لهالة بكلمات حاسمة: «أنا في طريقي إلى المطار، سأكون في دمشق غدًا، لا أريد منك أن تخبري أحدًا». أربك الفرح هالة، ولم تعرف ما الذي تستطيع أن تفعله من أجل إسعاد فداء، كانت ساعات الانتظار بالنسبة لهالة طويلة.

عندما ذهبت هالة في اليوم التالي لانتظار فداء في المطار، تذكرت يوم ودّعتها عندما غادرت إلى نيويورك نهائيًا، حيث حولت فداء مسار حياتها للأبد تحولًا لم يكن محسوبًا من أجل إدوارد. عندما غادر إدوارد دمشق بعد فشل محاولة الزواج من فداء، عاد

ليكتشف أنه لن يستطيع الاستمرار في الحياة من دونها. صحيح أنه رفض أن تُملَى عليه ديانة دون قناعته، لكن إحساسه قال له إن هناك حلًا آخر لهذه المشكلة. لم يستسلم، سأل كثيرًا وعرف في النهاية أن هذه المشكلة قائمة في المشرق العربي، حتى في دولة مثل إسرائيل، لأن الزواج في هذه البلدان، هو زواج ديني. لكن منع الزواج بسبب خلاف الدين وجد المحبون له في بلد مثل لبنان حلًا، يسمونه «الزواج القبرصي». أي أن من يريدان أن يتزوجا ودينهما يمنعهما من ذلك، كأن يكون الزوج مسيحي والزوجة مسلمة، يستطيعان السفر عدة كيلومترات إلى جزيرة قبرص المجاورة ويتزوجان هناك زواجًا مدنيًا. صحيح أن هذا الزواج لا يمكن تثبيته أو تسجيله في لبنان، لكنه يحلُّ مشكلة الزواج رغم أنه لا يحل مشكلة التداعيات الاجتماعية والعائلية لهذا الزواج لمن يُقيم في تلك الدول. من عدم تسجيل هذا الزواج والخلافات والمقاطعات ورفض الأهل الذي يصل حد القتل في بعض الحالات.

انهارت فداء بعد مغادرة إدوارد لدمشق دون أنْ يتم الزواج، علقت بها السمعة السيئة في العائلة دون أن تفوز بمن تحب، كانت مُدمَّرة تمامًا. لامت إدوارد على جُبنه وعدم تضحيته من أجل حبهما أحيانًا. إشهار إسلامه سيكون شكليًا، فكم من المسلمين

الـذين يحملـون هـذه الصـفة ولا علاقـة لهـم بالإسـلام؟ «بالتأكيـد الملايـين». أجابـت نفسـها. مـن جانـب آخـر وجـدت أن الحـق مـع إدوارد في أن يكون ما هو عليه، دون زيف أو ادّعـاء شـكلي. لكـن أنْ يكون ما هو عليه يعني أن تخسر حبها، كانت أضعف من أن تتحمـل هذه الخسارة. كانت تائهة، تتخبط في كـل اتجـاه، لـم تعـد تعـرف مـا الذي تفعله، شعرت أنها خسرت إدوارد هذه المرة إلـى الأبـد. حبهـا الذي طالما انتظرته يغادرها بعد أنْ وجدته، شعرت أن العـالم يطبـق عليها دون رحمة. عندما اتصل إدوارد من نيويورك بعد شـهرين، لـم تُصـدق أنهـا تسـمع صـوته، لـم ينتظـر طـويلًا حتـى قـال لهـا بسـرعة وبإنكليزيتــه التــي تأكــل أواخــر الكلمــات: «تتزوجيننــي زواجًــا قبرصـيًا؟». لـم تفهـم مـا يقـول، لـم تفهـم مـا الـذي يعنيـه بـالزواج القبرصي. قالت: «لم أفهم ماذا تقصد؟!». قال لها: «هل تتزوجينني زواجًا مدنيًا». لـم يسـاعدها هـذا الكـلام علـى فهـم أفضـل، أربكتهـا الكلمـات أكثـر، وكـادت تطـيح بفرحتهـا باتصـاله. شـرح لهـا بأقـل الكلمـات: «أنْ نتـزوج أنـا وأنـت زواجًـا مـدنيًا في قـبرص، ثـم تـأتين لنعـيش في نيويـورك». سـألت: «لمـاذا قـبرص؟». قـال إدوارد: «هـي مجـرد مكـان. أعـود لأسـألك هـل تتزوجيننـي زواجًـا مـدنيًا في أي مكان». لـم تعـرف فـداء بمـاذا تـرد عليـه، لـم تخطـر علـى بالهـا هـذه

الفكرة من قبل، كان الزواج مرتبًا في رأسها كما تراه في محيطها، رجل وامرأة يرتبطان بعقد زواج شرعي، تعرف أن هناك في الدول الأخرى زواجًا مدنيًا، وكل ما تعرفه عنه فكرة مبهمة، لم يخطر لها أنها ستكون معنية بمعرفة أكثر عن الزواج المدني حتى تعرف ما الذي ستُقدم عليه. رغبت بقوة أن تتزوج من إدوارد، لكن لم يخطر لها الزواج المدني. تذكرت كل الكلمات القاسية التي سمعتها لأنها كانت ستتزوج من أجنبي اعتقد إخوتها وأقاربها أنه سيشهر إسلامه كذبًا حتى يتزوجها، وعندما رفض إشهار إسلامه أصبح الكلام أقسى. والآن إذا تزوجته وهو على حاله فإن كل شيء سيختلف، وستدمر حياتها الاجتماعية في دمشق وحماة نهائيًا. أدركت ذلك جيدًا عندما فهمت ما يقصد بالضبط، لم تستطع أن تعطيه جوابًا، طلبت منه أن يعطيها مهلة للتفكير في الموضوع. تعامل معها كامرأة حرة بلا قيود، حرة في تقرير مصير حياتها، لذلك أحبطته كلماتها. اعتقد أنها ستكون سعيدة وستوافق فورًا على اقتراحه حالما تسمعه، شعر بالخذلان دون أن يقول لها، أعطاها مهلة للتفكير.

عندما أغلقت فداء سماعة الهاتف، أتاها الخوف من منطقة غامضة في داخلها. تلبّسها الشعور بالخوف وهو ما جعلها تحسُّ بالضعف، شعور لم تمرّ به، ولم تكن كذلك من قبل. لقد أصرّت

على رأيها وشعرت بحريتها عندما قرّرت أن تتزوج إدوارد في المرة الأولى، طلبت منه أن يأتي إلى دمشق حتى يتمّموا الإجراءات. عندما وصلتها الأخبار عن اعتراضات إخوتها وكلام الناس، لم تأبه، لأنها لم تشعر أنها تقوم بعمل خاطئ، ولم يكن هذا الشيء خاطئًا في نظر الآخرين، حتى في نظر من كانوا يعتبرونه شكليًا. تسبب ذلك لها بالمشاكل وأضرَّ بسمعتها بين أهلها، رغم أنها قامت بكل شيء وفق الأصول. البعض اعتبر ذلك التفافًا على الأصول، وهو ما جلب لها المتاعب.

وبعرضه عليها الزواج بهذه بالطريقة «القبرصيّة»، طلب إدوارد منها تضحية كبيرة، لم تعرف إذا كانت قادرة عليها. هو لا يعرف أبعاد ما عرضه عليها، يتعامل مع الموضوع بصفته حريتها الشخصية، لكنها تعرف أنه ليس كذلك في بلدها، ولم ترغب في أن تقول له ذلك، عليها أن تقرّر هي ما تريد. كانت تعالج الضرر الذي أصابها جرّاء فشل زواجها منه لرفضه إشهار إسلامه، لم تخبر أحدًا بالسبب الرئيسي لمغادرة إدوارد فجأة دون إكمال الإجراءات. قالت لمن سألها عن سفر إدوارد المفاجئ إن والدته قد توفيت وأنه اضطر للمغادرة، رغم أن والدته قد توفيت منذ سنوات. لم تكن قادرة على قول الحقيقة، لأن ذلك ببساطة سيكون إساءة كبيرة لها،

وسيُفسر على أنه تخلٍّ ورفض لهـا، مـن أجـل ذلـك فكّـرت في حجـة الوفاة الكاذبة. لقد هزّها موقف إدوارد رغم تفهمها له، كان نوعًا من التخلـي والـرفض. شـعرت أنـه أنـاني ولا يريـد الإقـدام علـى أي تضحية، اعتبرت في كثير من الأوقات أنه رفض أن يضحي من أجلها هذه التضحية الشكلية. عاد اليوم ليطلب منها تضحية أكـبر. أدركـت أن قرارها بالموافقة على هـذا الـزواج وفي هـذه الشـروط هـو إعـدام لحياتها العائلية والاجتماعية، ولن يغفر لها كـل الـذي قدمتـه للعائلـة مثـل هكـذا تصـرف، سـيعتبره إخوتهـا خرقًـا لأكـبر المحرمـات في الإسلام، أن تتزوج من مسيحي دون أن يشهر إسلامه. كلما خطرت لها الفكرة ازداد خوفها، فهي تعرف ومن تجربة حياتها المريحـة أنهـا بحاجة في اللحظات الصعبة إلى الحمايـة، وهـذه الحمايـة لا توفرهـا في نهاية المطاف سوى عائلتها، وإذا أقدمت على ما هي مقْدمـة عليـه فلن تستطيع اللجوء إلى العائلـة مـرة أخـرى، خاصـة الـذكور. كانـت تعرف أن أخاها عبد الله الذي لم يحتمل فكرة أن تتـزوج مـن أجنبـي يشهر إسلامه، لا شك في أنه سـيقتلها ليغسـل عـاره إذا أقـدمت علـى هذا الفعل واستطاع الوصول إليها.

اشتعلت النار داخلها بسبب هذا الموضـوع، رغـم أنهـا لـم تكـن ترى خطأ في أن تتزوج إدوارد في مثل هكذا وضـع، إلا أن شـيئًا مـا في

داخلها كان غير مرتاح لهذه الفكرة، شيء يأتي من مكان عميق في داخلها، يشعرها بالاضطراب، شيء من الدين الراسخ الذي تشرّبته في البيت والمدرسة، الحلال والحرام الذي تكرّر ذكره أمامها ملايين المرات، الذي يبدو أنه ترسب داخلها، شعرت أنها غير قادرة على قطع هذه الخطوة الإضافية. أحسّت بضغط هذا الترسّب الداخلي الذي يدفعها لصرف نظرها عن الموضوع. عندما فكّرت أنها ستخسر إدوارد مرة أخرى، ارتعش جسدها خوفًا من هذا الفقدان، تذكرت المرات التي اعتقدت فيها أنها خسرته والجنون الذي يتسبب به ذلك، كانت تعاني من تركه، ولم تتخلص من الموضوع بعد، وهي تخاف خسارته من جديد. عادت لتفكر في الحب الذي نزل عليها كالصاعقة، بالمشاعر التي لم تعرف مثلها من قبل، بالتعلّق الذي يجعلها تشعر أن روحها مرتبطة به وأنها غير قادرة على العيش بعيدًا عنه. عندها تفكر بطريقة أخرى وتعود لتبريراتها العقلية، تقول لنفسها: «أنا أحب هذا الرجل، ما الذي يغيره أو يقدمه أن يكون ملحدًا، يضرُّ ويؤذي مَنْ بهذا؟! أنا لست ملحدة ولست متدينة، نؤذي مَنْ إذا تزوجنا؟! هو رجل طيّب وصادق، والأهم أني أحبه وأشعر أني لا أستطيع العيش من دونه، لماذا أضحي بهذا الحب من أجل قضية شكلية. ملايين المسلمات

اللواتي يتزوجن مسلمين، لا ينتمون إلى الإسلام سوى بوراثتهم هذا الدين عن آبائهم بالتناسل ولا أحد يقول إن هذا الزواج باطل أو حرام. الشكل موجود، ولكن غير ذلك لا شيء». فكّرت بالكثير في حياتها وحياة المحيطين الذي تحكمهم الشكليات لا غير. فكّرت أنها هي المستقلة ماليًا والتي تحمي عائلتها من غول الحاجة، يتم التعامل معها بهذه الطريقة، وتضعف بهذه الطريقة. ماذا سيكون الوضع لو أنها امرأة مسكينة، غير متعلمة، تعاني الحاجة، لا حول لها ولا قوة؟! ما الذي تفعله بالنسبة لكل مشكلة تواجهها من هذا النوع، بل أي مشكلة تترتب عليها حياتها؟! عرفت، أن جميع النساء لا يستطعن التحكم بحياتهن، فهي المرأة القويّة تشعر بهذا الضعف والاضطراب.

شعرت بحبال قويّة تأتي من ماضٍ بعيد تقيدها، وتقيّد كل النساء معها وترميهنّ في تيار عارم يأخذهنّ لأي مكان أو أي اتجاه، سوى المكان والاتجاه الذي يستطعن به تقرير حياتهنّ ومستقبلهنّ ومصيرهنّ. شعرت بالضعف والمرارة وسألت نفسها: «من يملك حياتي أكثر مني حتى يقرّر مصيري عني؟». أجابت نفسها: «لا أحد». ولكن هذا الجواب لم يشعرها بمزيد من القوة، بل أشعرها بمزيد من المرارة لأنها تعرف أن حياتها ملكها وأنها وحدها تملكها،

ولكـن وعيهـا بهـذا الموضـوع يُشـعرها بالشـقاء أكثـر ممـا يُشـعرها بالراحـة. شـعرت وقتهـا أن تلـك المـرأة الجاهلـة التـي لا يهمهـا مصيرها وسـلمته إلـى الآخـرين بحكـم المفـاهيم التـي غُرسـت في رأسها أكثر راحة منها، لأنها ببسـاطة راضية بمـا هـي عليـه. لأنهـا لـم تكـن راضـية ومدركـة لإنسـانيتها، كـان وعيهـا يسـبب لهـا الشـقاء لا الراحة، بينما الجهل يمنح الأخريات الراحة. شعرت فداء أن حياتها علـى مفـترق حاسـم، أيًـا كـان خيارهـا لـن تعـود إلـى سـابق عهـدها، خيارها بالموافقـة والـذهاب إلـى نيويـورك يعنـي تـدمير حياتهـا هنـا. وخيارها برفض عرض إدوارد يعنـي خسـارتها لحبهـا المتأكـدة بأنهـا لن تجد غيره.

كانت خائفة مـن خيارهـا أكثـر منهـا محتـارة. بعـد تفكيـر طويـل ومـتردد حسـمت خيارهـا رغـم خوفهـا، لكنهـا توصـلت إلـى قناعـة خاصة بها قالتها لنفسها: «أنا لا أضمن الغد، عليّ أن أترك المسـتقبل للمستقبل، وأقرّر على أساس ما أنا عليه الآن». كان ذلك تبريـرًا لمـا قرّرته، فرغم كل مخاوفهـا، قـرّرت في نهايـة المطـاف أن تتبـع قلبهـا، تترك كل شـيء آخـر وراءهـا مهمـا كـان الـثمن. عنـدما اتصـل إدوارد ليعرف رأيها، قالت له بكل وضوح: «أوافـق. لكـن عليـك أن تعـرف أن هذا الزواج يعني تدمير حياتي نهائيًا هنـا، لـن أعـود، زواجـي منـك

أبدي». قال فرحًا وكان ذلك واضحًا من نبرة صوته: «أقسم بكل غالٍ عليّ أن يكون زواجي منك أبديًا مهما كان الثمن».

عندما بلّغته قرارها كانت تعرف أن إقامتها في دمشق باتت مؤقتة، أخذت تودع المدينة من خلال سلوكها اليومي. كانت سعيدة لأنها في نهاية المطاف ستتبع قلبها، وحزينة لأنها ستترك دمشق وراءها. لم تخبر أحدًا بما قرّرته ولا حتى هالة التي تسكن معها. عندما غادرت إلى قبرص من أجل عقد زواجها لم يعرف أحد، كانت سعيدة في طريقها إلى هناك، حيث عقدت رابطها النهائي مع حبها الذي انتظرته طويلًا، وأصابها عدة مرات بالإحباط، وكادت تفقده عدة مرات. شعرت أن هذه المرة مختلفة، وأنها ستنال ما تريد. عندما التقت إدوارد، ألقت بنفسها في حضنه وشرعت في البكاء، سألها: «لماذا تبكين؟!». أجابت: «إنها دموع الفرح، لقد فقدتك عدة مرات وأنا اليوم استعيدك... أنا خائفة». قال: «لماذا الخوف؟». قالت: «كنت خائفة من فقدانك، اليوم أترك عالمي ورائي، وأنا خائفة من المستقبل». قال: «أنا معك إلى الأبد». في تلك اللحظات، كان يعني ما يقول، وصدَّقت هي كلماته، لم تكن خائفة من وعوده، انهار شيء ما داخلها منذ قرّرت اتّباع قلبها. لم تعرف ما الذي يسبب لها الخوف، كانت خائفة من غدر الزمان، كاد

خوفها من المستقبل أن يدمر سعادتها في تلك اللحظة الفاصلة من حياتها، كانت خائفة من الثمن الذي تدفعه لقاء ذهابها وراء قلبها، عالمها الذي بنته حجرًا بعد حجر، كانت راضية عن حياتها، بل أحبتها، حتى عندما كان ينقصها الحب، تمنت أن يأتي حبها ليكمل حياتها التي تحب وأن تبقى في المكان الذي بنت عليه عالمها. جاء قدرها مختلفًا، وليقول لها عليك الاختيار بين عالمين، بين العالم الذي بنته وبين حبها الذي انتظرته طويلًا. اختارت حبها، واختارت معه عالم المجهول تاركة وراءها حياة تحبها، لتصنع حياة جديدة لا تعرف من أي مواد ستصنعها، حياة في مكان جديد وبين أناس جدد. أحبت التغيير طوال عمرها، لكنها لم تحبه لدرجة أن يقلب حياتها رأسًا على عقب. كان ذلك ثمنًا باهظًا لحبها، اختارت أن تدفع هذا الثمن. عندما أنهيا إجراءات الزواج، وتودعا في مطار لارنكا، حيث كانت عائدة إلى دمشق في انتظار أن يذهب إدوارد إلى نيويورك ويُنهي أوراق لم شملهما، لتذهب فتقيم معه هناك في نيويورك، قالت له: «لقد تركت عالمي من أجلك». قال لها وهو ينظر في عينيها: «لن تندمي على ذلك». قبّلها قبلة عميقة قوية، تركها تلحق بطائرتها، لوّح لها بيده، ولوّحت له بيدها وهي تختفي بين المسافرين.

لم تعرف هالة أي شيء عمّا قامت به فداء التي التزمت الصمت تجاه زواجها. شعرت هالة أن فداء تغيرت بعد تلك الرحلة القصيرة إلى قبرص، لم تكن المرة الأولى التي تسافر فيها، ولكنها شعرت أن أثر هذه الرحلة مختلف عن الرحلات التي قامت بها سابقًا. غرقت فداء في تأملاتها، وباتت تقوم بعملها بالحد الأدنى، لم تعد ترتبط بأعمال طويلة الأجل، لم تفهم لماذا تفعل فداء ذلك. فسرته أنها باتت تعبة ولا تريد أن ترهق نفسها. أحبت فداء عملها، لكنها لم تكن تملك وقتها، كان عملها مترجمة فورية متعلقًا بأوقات الآخرين لا بوقتها هي، رتبت حياتها على هذا الأساس. انتبهت هالة إلى التغير في حياة أختها، لكنها لم تفهم سببه، ولم تُقدر أنها ترتب حياتها لمغادرة نهائية.

عندما انتظرتها هالة في المطار حين عودتها إلى دمشق، تذكرت كل حياتها مع أختها. تذكرت عندما ودعتها فداء في رحلتها إلى الولايات المتحدة بعد أن أكمل إدوارد إجراءات لمّ الشمل. استغربت هالة الوداع الحارّ واستغربت البكاء المرّ الذي بكته فداء في المطار في اللحظات الأخيرة، وهو لا يتناسب مع رحلة قصيرة لا تتعدى الأسبوع. اتصلت فداء في نهاية الأسبوع وقالت لها: «لن أعود إلى دمشق، أنا باقية في نيويورك». سألتها هالة: «إلى متى

ستبقين، هل تمدّد عملك هناك؟». قالت فداء: «سأبقى دائمًا، لقد تزوجنا إدوارد وأنا». فرحت هالة لأن أختها وجدت حبّها وارتبطت به، وحزنت لأنها لن تعود للعيش معها، حزنت لأنها خافت من الوحدة. خافت أن تتصرف فداء في بيتها وتتشرد هي في بيوت إخوتها وهو ما كان يمكن أن يقتلها. قدّرت فداء ذلك، وقالت لها: «لن يتغير شيء، ستبقين في المنزل وكل شيء سيبقى على حاله، ومصروفك سوف يصل إليك، ومصروف أهلي سيصل».

كانت هالة في السنة الثالثة من دراستها، ولم تكن الأوقات مناسبة لمثل هكذا انقلاب، شعرت بالراحة من كلمات فداء، ولكن الخوف انتابها بين فترة وأخرى. لم تتصور أن فداء ستغيب عشر سنوات، لتعود لأيام من أجلها. عندما شاهدتها تخرج من قاعة المطار لم تصدق عينيها، لم تصدق أنها ترى فداء بعد كل تلك السنوات، رمت نفسها في حضنها وشعرت أنها عادت تلك الطفلة التي تشعر بدفء حضن أختها، أمّها، لم تعد تعرف. كانت فداء أيضًا بحاجة إلى حضن هالة، فحِملها الثقيل أكبر من قدرتها على الاحتمال.

طوال طريق العودة من المطار سألت فداء هالة عن أوضاعها وعن أوضاع إخوتها وأَخَواتها، رغبت في معرفة كل شيء بالتفصيل،

حكت هالة لها كل شيء بحماس، والسعادة تغمرها. أدركت وسط حماستها أن فداء ليست سعيدة، لم تعرف السبب. عندما دخلت فداء البيت تأمّلته فسالت دموعها على خدها، لم يكن بكاء، لم تعرف ما هو، دموع تسيل على وجهها دون بكاء، لقد اشتاقت إلى بيتها القديم، عشر سنوات منذ غادرت، لم تغير هالة في البيت شيئًا، حافظت عليه كما تركته فداء، لم تغير سوى تلك الأشياء التي تلفت، حافظت على مفروشات البيت واللوحات على الجدران، الأدوات الكهربائية، أماكن الأشياء في هذا الركن أو ذاك، كأنها حرَست المكان خلال غياب أختها وحافظت على نظافته.

اندهشت فداء من أن كل شيء بقي على حاله. فتحت باب الشرفة وتأكدت أن الحديقة ما زالت مكانها، رغم أنها عبرت من أمامها وهي قادمة إلى منزلها. دخلت غرفتها، وجدت كل شيء في المكان الذي تركته فيه، حتى أغطية سريرها الوردية التي تركتها والتي أحبتها. تركتها هالة في غرفتها لترتاح، أدخلت لها الحقيبة التي جاءت بها، كانت حقيبة صغيرة تتناسب مع الأيام الأربعة التي ستقضيها في دمشق، كانت إجازة قصيرة جدًا بالنسبة لهالة، أرادت أن تحتفل بأختها احتفالًا طويلًا، شعرت أن الأربعة أيام لا تكفي من أجل هذا الاحتفال.

لم تأتِ فداء إلى دمشق من أجل الاحتفال، جاءت من أجل هدف محدد، يخفف من آلام روحها. عندما قدّمت طلب لمّ الشمل من أجل هالة، لم تعرف أنها ستواجه هكذا مصير وستصبح أكثر حاجة إلى هالة، وإلى قدومها للعيش معها في نيويورك، لقد أحبت المدينة كما أحبت دمشق على الفارق بين المدينتين، لم تشعر بالغربة هناك، منذ وصولها شعرت أنها ابنة المدينة، ضايقها أنها بلا عمل، ولكن ذلك لم يدم طويلًا، فبعد أشهر وجدت نفسها تعمل في المتحف المصري في نيويورك، لقد زال الخوف رويدًا رويدًا، فتلك المخاوف من فشل زواجها من إدوارد والتي حملتها معها على طائرة اللوفتهانزا الألمانية التي حملتها في رحلتها إلى نيويورك، لم تكن محقّة، لقد أكدت لها الأيام أنه يحبها أكثر مما تصورت، كان عند وعده، أشعرها بالأمان، كل شيء كما تشتهي، إلا ما أصابها في الأشهر الأخيرة أو ما اكتشفته في هذه الأشهر. أرادت فداء إنجاب طفل الحب من إدوارد، خلل ما منعها من الإنجاب، قالت لإدوارد إن موضوع الأولاد لا يهمها، لكن ذلك لم يكن حقيقة مشاعرها، اجتاحتها غريزة الأمومة، تشتد في بعض الأوقات وتصبح غير قادرة على احتمال الأحاسيس التي تأكلها من الداخل، لم تعبر عن ذلك لإدوارد ولا مرة.

لم يكن إدوارد يعارض فكرة الإنجاب، لكنه لم يكن يحبذها. في الوقت نفسه لو تأكد أن فداء تريد الطفل بقوة لما تردد في منحها إياه. تركت فداء موضوع الحمل للصدفة، لكن هذه المرة لم يحالفها الحظ. عندما عذبها إحساسها بالأمومة وشعرت أن الفرص تتضاءل أمامها، بات الموضوع أكثر إلحاحًا، فقد اقتربت من سن الأربعين، وهو ما يعني أنها أصبحت أقرب إلى سن اليأس، الذي يعني أنه لن يكون هناك أولاد نهائيًا. عندما راجعت الأطباء كان الوقت قد فات، فقد شخّص الأطباء إصابة رحمها بالتليّف، ولا بدّ من الاستئصال، تلكأت، أجّلت، حاولت أن تحافظ على رحمها، لعل هناك معجزة تعيده إلى عمله الطبيعي، لكن التأجيل لم يعد ممكنًا، في أي وقت قد يتحول هذا التليّف إلى سرطان. لم يحتمل إدوارد أن يشاهد فداء تقتل نفسها من أجل الطفل بعد فوات الأوان، لو قالت له منذ البداية، لكان بذل كل ما يستطيع من أجل أن تحصل على الطفل. حاول أن يقنعها بأنهما يستطيعان تبني طفل، رفضت الفكرة بقوة، لم تكن مقتنعة بالتبني، أرادت ابنًا من رحمها، وإذا لم يكن كذلك، فهي لا تريده، تريد أن تشعر بنبضاته داخلها، بطنها يتكور أمامها رويدًا رويدًا، تعيش الأمومة من أولها إلى آخرها، من التقيؤ في بداية الحمل إلى آلام الولادة وصراخها، إلى الطفل الذي

ينمو أمامها كل يوم بحلو الحياة ومرّها. كل ذلك الذي حلمت به لياليَ طويلة تبدّد إلى الأبد بعد أن تم استئصال الرحم، شعرت أنه تم استئصال جزءٍ من روحها معه. انهار شيء ما داخلها، والحياة لم تعد بالنسبة لها كما كانت قبل عملية الاستئصال، شعرت أن هناك شيئًا ناقصًا فيها بعد العملية. أدركت وقتها أن هناك فرقًا بين أن تكون المرأة قادرة على إنتاج الحياة ولا تنتجها لأنها اختارت ذلك، فهي في أي وقت تستطيع التراجع عن هذا الخيار، وبين أن تكون غير قادرة على إنتاج الحياة، فمهما كانت قناعتها حقيقية بعدم الرغبة في صناعة الحياة، تبدو كاذبة في أحسن الأحوال.

عرفت قبل العملية أنها ستبقى دون أبناء إلى الأبد، خرَّبت العملية حياتها، قلبتها رأسًا على عقب، أصبحت امرأة أخرى، كانت صدمتها قاسية، لم تتقبلها بسرعة. احتاجت لمراجعة طبيب نفسي، مع الوقت أخذت تستوعب ما جرى، طوال فترة معاناتها فكّرت بهالة، وبعد كل السنوات التي مرّت، شعرت أنها خذلتها، شعرت أن هالة لم تكن مهيأة لأن تفقدها فجأة ودون إنذار، شعرت بعقدة ذنب تجاهها. في ذلك الوقت لم تفكر سوى بنفسها، لقد أعماها حبُّها عن كل شيء، صحيح أنها لم تترك هالة بلا سند وبقيت مسؤولة عنها وهي بعيدة، ولكن هي تعرف أن المال ليس كل شيء، لم تعرف

ذلك اليوم فحسب، بل كانت تعرفه من قبل أيضًا، وكانت تعرف أن البشر يستطيعون أن يتجاهلوا مسؤولياتهم إذا أرادوا ذلك. هيمنت هالة على تفكيرها، تركتها طالبة في الجامعة، أمّنت لها مصروفها، تركتها تعيش في منزلها، في لحظة اتخاذها قرار الزواج من إدوارد لم تكن هالة في الحسبان، بدت خسارة جانبية في تلك الأوقات. اليوم تكتشف إحساس الأمومة تجاه هالة من جديد، عرفت هذا الإحساس جيدًا، كان إحساسًا طبيعيًا، لم تشعر أنها تحتاجه من أجل نفسها، شعرت أنها تحتاجه من أجل هالة التي فقدت أمها مبكرًا، وقرّرت أن تكون أمًّا بديلة بكل معنى الكلمة.

بعد عملية استئصال الرحم شعرت أنها هي بحاجة إلى مشاعر الأمومة التي تحملها لهالة، ليس تعويضًا عن النقص الذي شعرت به جرّاء عملية الاستئصال، بل تحتاجها لأنها حقيقية ولم تكن مفتعلة. كانت بحاجة إلى استعادة مكانتها كأمّ لهالة. عندما قرّرت العودة كان هذا هاجسها، من أجل ذلك قالت لها: «لا تُخبري أحدًا بأني قادمة». وعندما طلبت منها أن تنام معها في سريرها، استغربت هالة الطلب، لقد عاشتا معًا سنوات في هذا البيت ولم تطلب منها فداء شيئًا كهذا. لم ترفض هالة طلبها، وعندما تمددت إلى جوارها، أخذت فداء تلعب بشعرها، قالت: «لقد كنت قاسية عندما تركتك

لوحدك». نظرت هالة إليها مستغربة ما تسمع، قالت: «لم تكوني ملزمة تجاهي بأي شيء. قدمت لي أكثر مما أستحق، وأكثر مما أستطيع أن أرد لك». قالت فداء: «أنت تجاملينني، لقد كنتِ مسؤوليتي وتخليتُ عنك». قالت هالة: «أبدًا لم أكن يومًا مسؤوليتك، أنت اخترت أن أكون مسؤوليتك لأن قلبك طيب، وأنا ممنونة لك، ولا أستطيع أن أرد ما قدَّمتِهِ لي، وليس لي وحدي، أنت تعرفين ذلك، وأنا لا أجاملك على الإطلاق، ما فعلتِهِ، لم يعد أحد يفعله في هذا الزمن الأسود. لطالما أردتُ أن أقول لك، إن أمثالك في هذا العالم نادرون، ومن نعمة الله عليَّ أن يكون هذا النادر جزءًا من حياتي». احتضنتها فداء وشرعت بالبكاء، لم تعرف هالة ما الذي تفعله، احتضنتها بدورها، وقالت وصوتها يتهدج بالبكاء: «أنا فرحة لأني أراك بعد هذه السنوات الطويلة، لماذا هذا البكاء ولماذا هذا الحزن؟ لقد كنت أهم شخص في حياتي، سواء عندما كنتِ هنا، أو حتى عندما كنت غائبة، كنت فخري طوال حياتي، وستكونين كذلك ما حييت».

توقفت فداء عن البكاء، وأخذت تتأمل وجه أختها المستلقية أمامها وقالت بكلمات حازمة: «أنا جئت من أجلك، أن أراك أولًا، وثانيًا أنت تعرفين كل أوضاع البيت القانونية وأنت أصبحت

محامية، عليك أن تقومي بكل المعاملات خلال الأيام القليلة التي سأقضيها هنا، من أجل أن أنقل ملكية البيت لك». لم تصدق هالة ما سمعت، وكان الكلام أكثر مما تحتمل، شعرت بالخوف، وقالت بحزم: «لن أقبل ذلك، لماذا تفعلين ذلك بي؟ لن أحتمل كل هذا، هذا أكثر من طاقتي. ماذا بك، هل أنت مريضة؟ إنه ملكك، تعبك، لماذا تضعين في عنقي هذه الأمانة الثقيلة». قالت فداء: «ليست أمانة، إنه لك، لك حرية التصرف به، تبيعينه، تؤجّرينه، تحرقينه، إنه لك، وليس لي فيه ولا حتى إبرة». قالت هالة: «لن أقبل ذلك، يكفي ديونك في رقبتي، ولن أستطيع أن أحتمل دينًا آخر». قالت فداء: «هذا موضوع ليس للنقاش، إنه للتنفيذ، لم أطلب منك في حياتي شيئًا، ولن أطلب منك شيئًا سوى هذا الطلب، من أجلي وليس من أجلك». قالت هالة: «لن أقبل ذلك حتى أفهم، لماذا الآن؟». قالت فداء: «لن أخفي عليك شيئًا، وهو ليس سرًا. الموضوع ببساطة، أنني أجريت عملية جراحية قبل عدة أشهر تم خلالها استئصال الرحم، ولم أعد قادرة على الإنجاب، كنت أتمنى أن يكون لي ولد، ولكن هذه الأمنية لن تتحقق، اقترح إدوارد أن نتبنى ولدًا، لكنني غير مقتنعة بفكرة التبني. أنا لن أعود إلى هنا، سأكمل حياتي في نيويورك، لقد قدمت لك طلب لمّ شمل، أتمنى أنْ تستطيعي المجيء والعيش

معي. دمشق مكان جميل عشت فيه أجمل سنوات حياتي، لكني لن أعود إليه، أحب حياتي في نيويورك كما أحببتها في دمشق. أنت جزء أساسي من حياتي الجميلة في دمشق، وهذا المنزل لن أحتاجه، فأنا لا ينقصني المال، لقد كان الله دائمًا كريمًا معي في هذا الجانب. قرّرت أن أتركه لك كأمّ لم تنجبك، أتمنى أن تقدمي لي هذه الخدمة». سالت الدموع من عينيها.

قدّرت هالة كل كلمة قالتها فداء، وشعرت بشحنة الصدق القوية، ولكنها لم تكن قادرة على قبول الفكرة، بالمقابل لم تكن قادرة على رفض طلب فداء. قالت: «أوافق على ذلك بشرط واحد». قالت فداء: «ما هو هذا الشرط؟». قالت هالة: «أن تحتفظي بحق الانتفاع به لنفسك مدى الحياة». سألت فداء: «ما الفرق؟». قالت هالة: «هذا يمنعني من التصرف بالبيت طالما أنت على قيد الحياة». قالت فداء: «موافقة ولكن هذا لا يغير شيئًا، البيت بيتك، اتفقنا». قالت هالة: «اتفقنا».

كانت مشاعر فداء تجاه زيارتها لدمشق بعد كل هذه السنوات متناقضة، فهي قرّرت أن تقوم بهذه الخطوة بالإضافة للأسباب التي قالتها لهالة، لأنها تريد فك الارتباط مع المكان، في الوقت الذي ترغب فيه بتعزيز العلاقة مع هالة. قدّرت أنها هي التي تحتاج إليها،

تحتاج إلى حبها، أكثر مما تحتاج هالة لها، وجدت فيها كل عائلتها، فاعتبرت أن عليها أن تعبّر عن هذا الحب بطريقة لافتة ومفيدة، فكان أن قدّمت لها بيتها، ليس لأن قيمته المادية كبيرة، بل لتقول لها إنه لا شيء يغلو عليها.

أحبت فداء دمشق، فيها صنعت حياتها، كانت كريمة معها، رغم أنها بخيلة مع الآخرين. ولأنها كذلك، لم تبخل فداء على أهلها هناك في حماة، تتذكر خطواتها الأولى في المدينة التي اعتبرتها الأكبر في العالم عندما وصلت إليها في منتصف السبعينيات، فتاة وحيدة وطموحة. كانت المدينة تزدهر، بعد حرب العام ١٩٧٣، بفعل مساعدات تدفقت من دول الخليج النفطية، التي زادت ثرواتها بفعل الصعود الصاروخي لأسعار النفط إبان تلك الحرب، ما جعل دمشق تستحق جزءًا من الجائزة، كانت المساعدات المالية عنوانها. لم تعرف ما الذي ستفعله في المدينة سوى دراستها في جامعة دمشق ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة الإنكليزية. انصبَّ تفكيرها كلّه على كيف تستطيع أنْ تزيح الحمل المالي لدراستها عن أهلها، فكّرت حينها أنْ تعمل وكيلة معلمة كما فعلت الكثير من الفتيات في مثل سنّها لمساعدة أهلها على مصروفها ومصروفهم. قدمت أوراقها من أجل هذه الوظيفة، عندما كانت تتردد على المركز الثقافي البريطاني

لتحسين لغتها عبر الحوار مع رواد المركز، وقراءة الكتب التي يوفرها المركز باللغة الإنكليزية. أثناء ترددها على المركز غادرت أمينة المكتبة دمشق إلى بريطانيا من أجل إكمال دراستها العليا، وأصبحت هذه الوظيفة شاغرة. شاهدت الإعلان لملء هذه الوظيفة الشاغرة في لوحة الإعلان في المركز الثقافي، ولم يخطر لها أن هذه الوظيفة يمكن أن تكون من نصيبها، كانت قلقة بشأن أن يكون هناك شاغر قريب لها في مدارس دمشق، حتى لا تضطر لتذهب بعيدًا ويؤثر على حياتها الجامعية التي أحبتها وتمنعها من الدوام، حتى أنها لم تفكر في تقديم طلب لهذه الوظيفة رغم أنها شاهدت إعلانها أكثر من مرة. عندما سألتها إحدى الفتيات اللاتي تعرفت عليهن في المركز الثقافي عمّا تفعله هذه الأيام، قالت لها إنها تنتظر تعيينها في شاغر وكيلة معلمة. قالت الفتاة: «لماذا تنتظرين الشاغر، تقدمي إلى وظيفة أمينة المكتبة، ألم تشاهدي الإعلان؟!». قالت فداء: «هل أستطيع التقدم إلى هذه الوظيفة؟». أجابتها الفتاة: «ما الذي يمنع، جرّبي». استغربت أنها لم تفكر في التقدم إلى تلك الوظيفة. لم تنتظر إلى اليوم التالي، ذهبت وسألت، وعرفت أن لا شيء يمنع من تقدّمها إلى تلك الوظيفة، فقرّرت أنْ لا تنتظر، تقدمت بالطلب من باب التجريب، فلم يخطر على بالها أنها هي

القادمة من حماة قبل أشهر قليلة، يمكن أن تنتقل إلى العمل في المركز الثقافي البريطاني، الذي كان أكبر من طموحها. أصبح الحلم الكبير بالنسبة لها واقعًا خلال أيام، راتب الوظيفة أكبر مما توقعت. منذ أيامها الأولى غمرها كرم دمشق معها، فأحبتها وكانت ممنونة لها.

عندما تفكر ما الذي كانت ستفعله وكيف ستعيش عائلتها لو لم تحصل على تلك الوظيفة قبل مرض والدها بالشلل، كانت ترتجف، وكانت تدرك أنها فتاة محظوظة، فتاة استطاعت أن تحمل عبء عائلتها وتعيش حياتها وتبنيها في الوقت ذاته، كان ترفًا حقيقيًا منَحها إياه الحظ والصدفة والقدر. ماذا لو عملت وكيلة معلمة في ذلك الوقت، ماذا لو لم تكن تعمل، عندما تخطر تلك الأفكار في بالها، تدرك كم هي محظوظة، وتنفض رأسها لتُخرج تلك الأفكار. مع الوقت لم تعد تذكرها، ولكنها بقيت على عهدها الذي أقسمته بينها وبين نفسها، أنها لن تجعل عائلتها تحتاج، وهذا ما بقيت تفعله حتى وهي تعيش في نيويورك.

منذ تلك الأيام شعرت أن الدنيا والمدينة تفتح لها ذراعيها مرحِّبة بها أفضل ترحيب. حتى أن هذه المدينة منحتها حبها، صحيح أنه جاء متأخرًا، لكنه ولد في هذه المدينة التي عادت لتذرع

شوارعها وأزقتها بعد كل سنوات الغياب، شعرت أنها ابنة المدينة وشعرت أنها غريبة عنها، شعرت أنها تنتمي إلى هنا وتنتمي إلى هناك، ليس فقط لأن مدينة نيويورك كانت كريمة معها أيضًا، بل لأنها أحبت المدينتين رغم أنهما مدينتان تنتميان إلى عالمين مختلفين أشد الاختلاف. نيويورك، مدينة العالم الجديد والحديث، المدينة الطليعية، المدينة العالمية، الغرباء أبناؤها بصرف النظر عن زمن وصولهم إليها، ليس لأحد أفضلية على أحد، وبين دمشق، المدينة التي تنتمي إلى العالم القديم، أقدم مدينة مأهولة في التاريخ، طبقات راسخة من التاريخ العتيق تعوق المدينة من الذهاب الحقيقي إلى العالم الحديث، رغم بعض أشكال الحداثة التي لا تخطئها العين، لكن في عمق المدينة هناك العلاقات المقيَّدة بألف قيد إلى الماضي وإلى الدين وإلى الطائفة، بروابط مرئية وغير مرئية، شهدت بعينيها الهجرات الواسعة من الأرياف إلى دمشق، التي جعلت حتى مظاهر المدنيّة الحديثة تتراجع. الفلاحون الذين أتوا إلى العاصمة، وأموال النفط المتدفقة، أخذت تغير ملامح المدينة بسرعة، أحبت المدينة وكرهت تلك المظاهر التي جعلت المدينة تفقد ما تبقى من مدنيتها. اعتبرت لحظة مغادرتها إلى نيويورك لتلحق حبها، هي اللحظة المناسبة للمغادرة حتى لا تحزن

أكثر على المدينة التي أحبتها. عندما عادت بعد كل تلك السنين، كانت المدينة لا تزال تشبه نفسها في أبنيتها التي ازدادت قذارة، أما البشر فلا يشبهون البشر الذين تركتهم قبل مغادرتها المدينة، هي تغيرت وهم تغيروا ولم تعد المدينة مدينتها، كانت هذه قناعتها عندما غادرت دمشق بعد زيارتها الأولى والأخيرة للمدينة.

في الطائرة التي تحملها إلى نيويورك، وهي فوق الأطلسي، أخذت هالة تتذكر مسار حياة أختها فداء، غبَطتها لأنها اختارت حياتها بإرادتها بصرف النظر عن المتاعب التي عانت منها. عندما قارنت مسار حياتها بمسار حياة أختها، تبين الفرق واضحًا أمامها، فداء عاشت حياة إقدام، وهي عاشت حياة هروب. كانت أختها أمامها طوال سنوات ولم تعرف كيف تتصرف مثلها، أرجعت ذلك في كثير من اللحظات إلى حظ فداء الحسن، وحظها هي السيئ، وهو ما جعل فداء مقدامة وهي هاربة. مرة أخرى تعيد ذلك إلى استقلالية فداء، وإلى تبعيتها هي، في كل مرة تقارن حياتها بحياة أختها، تعتقد أن السبب الذي يمنعها من أن تكون مثل أختها هو سبب خارجي. لم تحاول ولا مرة أن تنظر إلى داخلها، خافت أن تنظر هناك لأنها تخاف من نفسها، في داخلها لم تحب أن تكون مثل فداء، أدركت في أعماقها، ألّا أحد يستطيع أن يكون نسخة عن أحد

آخر، وكانت تعرف أنها تغبط فداء على نجاحها في حياتها، لكنها لا تحب أن تعيش مثلها. كانت تحبها، وفي أعماقها تعترض على حياتها، دون أن تستطيع الإعلان عن هذا الاعتراض، كونها تعيش عندها. لذلك عندما توفى والدهما اختارت هالة نمط حياة آخر، حاولت أن تنأى بحياتها عن حياة أختها، وقد كان يضايقها الإحساس بأنها تابعة، وليس لها موقف ولا رأي. أعطاها التحول الديني إحساسًا بالتميز عن أختها، لكنه كان إحساسًا كاذبًا، هي عرفت ذلك عندما غادرت فداء دمشق نهائيًا، وتتأكد من ذلك وهي في طريقها إلى نيويورك. في وقتها شعرت أنها تحتاج الاستقلال عن الانسحاق الذي تعيشه في ظل أختها. تمنت لو أنها تركت حياتها تسير دون تدخل إرادي وقسري منها، واعتقدت أنها لو فعلت ذلك لما وصلت إلى ما وصلت إليه. كانت تريد أن تصنع حياتها بيدها، فوجدت نفسها تهرب منها. فهي غادرت دمشق لأنها لم تحتمل ثقل حياتها، خافت من كلام الآخرين، فهربت إلى نيويورك. صحيح أن لمّ الشمل تقدمت به فداء منذ سنوات، ولكن الذهاب إلى نيويورك، لم يكن رغبتها بقدر ما كان هروبًا، لقد وفرت لها الهروب في اللحظة المناسبة، لم يكن خيارًا. فكّرت بتسارع حياتها في السنوات الأخيرة، فبعد أن قطعت الثلاثين من عمرها، أخذت تشعر أن

الوقت ينفد منها، رغم أنها تعيش وحدها، وتحاول أن تقنع الآخرين بأنها فتاة قوية، مع أنها تخاف الوحدة. لم تبادر للخروج من هذا الوضع، كانت بحاجة إلى رجل يُشعرها بالأمان، لكنها خافت الإقدام، وعندما شعرت بالأمان، كان الرجل غير المناسب، لكن الأمر أقوى منها، كانت مشاعرها جامحة تجاهه، رغم ذلك استطاعت أن تقمعها بقوة، وعندما شعرت أنها لم تعد قادرة على قمعها، حاربت الحب بحب آخر، أقنعت نفسها به. حب فيه الكثير من الدراما، شعرت أنها تكرر تجربة فداء مرة أخرى، ولم تكن تحب كلمة تكرار التي تعيد ربط حياتها بحياة أختها.

عندما عرفت أن عامر هيلانة مسيحي، أدهشها أن اسمه لا يشير إلى ذلك، كانت تعتقد أن المسيحيّين معروفون بأسماء واضحة مثل جورج وإدوارد وبطرس وجوزيف... رفقتها الدائمة له قرّبتهما من بعضهما، قمعها لنفسها من أن تنجرّ تجاه حسني زادها تقرّبًا من عامر. عندما اعترف عامر لها بحبّه، شعرت أنها وجدت هدفها في النهاية، وشعرت أن علاقتها مع حسني باتت شيئًا من الماضي. كل يوم تقول إنها ستقطع علاقتها معه، وعندما تراه يتبخر القرار فورًا، بعد العديد من المحاولات، وجدت نفسها غير قادرة على الخلاص من هذه العلاقة، رغم أنها باتت مشكلة في علاقتها مع

عامر الذي انتبه إليها، ولم يفهم. أصرّت على تلك العلاقة، وفي كثير من الأحيان كادت أن تطيح بعلاقتها مع عامر، كان يتجاوز الأمر حتى لا تنفجر العلاقة. لم تخفِ هالة شيئًا عن حسني، حدثته عن كل شيء يتعلق بحياتها، صغيرها وكبيرها، مشكلتها مع زوج أختها بالتفصيل، الطبخ الذي ستطبخه، آلامها، وجع رأسها، الدورة الشهرية عندما تأتيها، ساعة حمامها، صديقاتها، خلافها مع إخوتها، عمّا تشتريه عندما لا يكون هو من اختاره... شيء واحد لم تحدثه عنه، هو علاقة الحب التي تربطها بعامر، كان هذا سرّها الذي لم ترغب أن يعرفه حسني بأي ثمن. عندما تأتيها فكرة أن حسني يمكن أن يعرف هذه العلاقة، تصاب بالرعب، لم تفهم هذا الإحساس. عندما شاهدهما حسني معًا بشكل متكرر وفي وقت متقارب خارج المحاكم، سألها بشكل مباشر: «هل هناك شيء بينك وبين هذا الرجل؟». خافت عندما سمعت السؤال وقالت: «أعوذ بالله، ما الذي يمكن أنْ يكون بيني وبينه؟!». قال حسني: «تبدو العلاقة بينكما أكثر من زمالة؟». قالت: «تستطيع أنْ تقول إنها صداقة، ولكن لا شيء آخر». كان الارتباك واضحًا عليها، لكن حسني لم ينتبه، صدقها ولم يتابع الحديث في الموضوع. كانت مرعوبة من الاستمرار فيه، خافت في لحظة ضعف أن تسقط منها زلة لسان

تجعل حسني يشك بأن هناك علاقة بينها وبين عامر. كانت خائفة جدًا، خوف من يشعر بالخيانة. في تلك اللحظة شعرت أن علاقتها بعامر هي خيانة لحسني، لماذا أصابها هذا الإحساس؟ لم تعرف. عندما سألها شعرت أن من حقّه أن يعرف، وحتى من حقه أن يعاقبها، شعرت أن ليس من حقها أن تقيم هذه العلاقة، شعرت شعور الزوجة التي تخون زوجها، عملت كل جهدها من أجل إخفاء حقيقة العلاقة عن حسني، رغم أنه عمليًا ليس له أي سلطة عليها، لحظتها اكتشفت أنه أكثر واحد يملك سلطة وسطوة عليها. أحست أنها مسلوبة الإرادة أمامه، كما لم تكن مسلوبة الإرادة تجاه أي شخص آخر، حتى أمام أختها فداء. تذكرت السعادة التي كانت تشعر بها عندما يقول أحد العاملين في المحلات التي يذهبان للتسوق فيها: «الله يخليلك المدام». وكم اغتاظت عندما أوقفهم أحد أصدقائه القدامى، وقال له: «أكيد المدام؟». قال حسني: «لا ليست المدام، إنها زميلة». لم ترغب في أنْ ينفي أنها زوجته، ففي كثير من الأحيان تشعر أنها زوجته فعلًا، وما ينقصها لاكتمال زواجهما، العلاقة الجنسية فقط، والذي أغاظها أكثر، أنه لم يقل: «صديقتي». بل قال: «زميلتي». شعرت في تلك اللحظة أنه يُنكرها، يُنكر حقها في أنْ تكون مرتبطة به برابط أكثر من الانتماء إلى مهنة

واحدة، مثلما شعرت أنْ ليس من حقه إنكارها، شعرت أنها تخونه في علاقتها مع عامر. كان إحساسها في تلك الآونة فظيعًا، أصبحت على يقين وقتها أن علاقتها مع عامر هي هروب من حسني. هذا الشعور لم يدفعها إلى قطع العلاقة مع عامر، على العكس وجدت نفسها تندفع داخل العلاقة أكثر من أي وقت سابق. كان اللطف الذي يتعامل به عامر معها يشدها إليه، لم يعاملها شخص آخر بذلك اللطف من قبل، يلبي ما تريده حتى قبل أن تتكلم، في هذه الناحية كانت تفضله على حسني، لأن الفجاجة سمة حسني الشخصية، كان يسميها «صراحة». يستفزها حتى أقسى درجات الاستفزاز، لكن ذلك لم يجعلها تنفر منه، رغم أنها باتت تعرف فجاجته، إلا أنها بقيت غير قادرة على احتمالها أو التعود عليها. لم يكن هناك أي صلة بين حسني وعامر، والمرات القليلة التي شاهد أحدهما الآخر فيها، لم تعنِ شيئًا ولم تُقرّب بين الاثنين. حتى إنهما لم يتبادلا السلام عندما كانا يلتقيان في بهو القصر العدلي، إذا لم تكن هالة موجودة.

خلافها مع أستاذها وزوج أختها، هو الذي قرَّبَ بينها وبين عامر، وكانت اللحظة الحاسمة هي تلك التي لمّح فيها صراحة وبحركات فاضحة إلى أنه ما زال مصرًّا على النيل منها. في ذلك

اليوم كانت بعض البثرات الصغيرة قد ظهرت على وجهها، اقترب منها زوج أختها وهمس في أذنها دون أنْ يسمعه عامر: «هذه الحبوب في وجهك ليس لها إلا علاج واحد، ممارسة الجنس». اختنق صوتها، انتفضت، اجتاح الاصفرار وجهها، ارتعش جسدها، ملأت الدموع عينيها، خرجت مسرعة من المكتب. أسرع عامر وراءها، وجدها في الطريق تسير باكية، لحق بها وأوقفها، لكنها رفضت الوقوف واستمرت في السير وعلا صوت بكائها وهي تقول: «لا شيء، ليس هناك شيء». قال عامر: «حسنًا إذا كنت لا تريدين الحديث، لا تتحدثي عن شيء، ولكن كفّي عن البكاء، لا شيء في هذا العالم يستحق دموعك». لم تكن قادرة على التوقف عن البكاء. أوقف تكسي وطلب منها أن تصعد، صعدت دون تعليق، عندما أصبحت داخل السيارة انفجرت أكثر بالبكاء، لم يعلق عامر، تركها تفرغ ما بداخلها، نظر السائق إليها في المرآة، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». طلب عامر من السائق أن يذهب إلى شارع حلب، هناك نزلا من التكسي، دفع الأجرة، دخلا أول مقهى أمامهما، الوقت مبكر على وجود الزبائن، لم تتجاوز الساعة العاشرة والنصف بعد، ولم يمضِ وقت طويل على فتح المحل. لم تنتبه هالة إلى شيء، وجدت نفسها جالسة في ناحية منزوية اختارها

عـامر، طلـب مـن الكرسـون فنجـانين مـن القهـوة دون أن يسـألها. هـدأت هالـة قلـيلًا، لكـن الـدموع وأثـر البكـاء كانـا واضـحين علـى وجهها. نظر إليها بتمعن وهي ما تـزال تشـهق، كانـت المـرة الأولـى التـي يجلسـان فيهـا متقـابلين ويسـتطيع أن يراهـا وجهًـا لوجـه، علـى عادتها شدت حجابها خوفًا من أن تكون بعض الشـعرات قـد هربـت من تحت الحجاب، وتحاول أن تدخلها داخل الحجاب سواء هناك شعر خارج الحجاب أم لا، تقوم بالحركة دائمًا بفعل العـادة. عنـدما نظرت إليه فاجأها أنه ينظر لها تلك النظرة التي لم تستطع تفسـيرها، قرأت في نظرته الحنان ممزوجًا بالتعاطف، بل شعرت أنهـا أكثـر مـن ذلـك، شـعرتها نظـرات حـب، كعادتهـا رفضـت اسـتخدام الكلمـة، أحبت الكلمة دون أن تقولها. لم يسألها عن الموضوع الذي جعلهـا تبكي، قال لها: «لا شيء في هذا العالم يستحق هذه الدموع». عنـدما سمعت الكلمات ووجدت النظرة ذاتها في عينيه، لم تستطع أن تطيـل النظر، أخذت تهرب بعينيها من مواجهة عينيه. عندما سمعت كلماته وجدت نفسها تنفعـل هـذه المـرة دون بكـاء وقالـت: «واحـد حقيـر، ماذا يعتقـد، يعتقـد أني عـاهرة في انتظـار إشـارته، حتـى يسـمعني هـذا الكلام البذيء، أنا أسكت عليه من أجل أختي، وإلا لما سكتُّ عـن حقارته...». كأنها كانت بحاجـة لأن تقـول كـل شـيء دفعـة واحـدة،

أفرغت غضبها بالكلمات، لم يعلق عامر على كلامها، تركها تُفرغ كل ما في جعبتها. عالج غضبها بابتسامة رسمها على وجهه طوال الوقت، ونظرات لا تخطئ معناها، نظرات الحب. كانت بحاجة لقول ما قالت، شعرت أنها تحمل عبئًا ثقيلًا وأرادت التخلص منه. صحيح أن حسني يعرف كل شيء عن مشاكلها مع زوج أختها، وعرض عليها أن تنتقل إلى مكتبه لإكمال تمرينها، رفضت العرض لأنها تعرف نفسها. في حال انتقلت إلى مكتبه، فإنها لن تستطيع أن تلجم نفسها، هي بعيدة عنه ولا تستطيع أن تلجم نفسها، فماذا سيحصل لو كانا في مكتب واحد؟ عرفت الجواب دون أن تقوله لنفسها خوفًا من أن يتحقق. في ذلك اليوم، شعرت أنها تتحدث مع عامر دون مقارنته مع حسني، أحست أنها مشدودة إليه، شيء ما غامض تَفتح في هذا اللقاء، شعرت أن العلاقة بينهما لن تكون كما كانت من قبل. شعرت بالراحة، أخذ عامر يشغل تفكيرها بشكل مختلف عن السابق، لم تذهب بعيدًا، عرفت أنه يفكر بها، وهذا منحها إحساسًا جميلًا.

بعد اللقاء أخذت العلاقة منحىً آخر، شعرت نفسها أكثر تعلّقًا بعامر، وشعرت أن العقبات التي بينها وبينه رغم مسيحيته، أقل من العقبات التي بينها وبين حسني، وباتت تتحدث عن حسني وكأنه

من الماضي، ارتاحت لهذا الشعور. عندما اعترف لها عامر بحبه، شعرت أن حسني أصبح بعيدًا أكثر. عرفت أنها تبدأ رحلة فيها الكثير من المتاعب، تذكرت أختها فداء وقصتها مع إدوارد أكثر ما تذكرت أي شيء آخر، «أخيرًا أصبحت لحياتي حكاية». هكذا فكّرت. بدأت تشعر بأنها ذاهبة إلى قصة ستجعل حياتها صاخبة وهي التي طالما شعرت أن حياتها فارغة. رأت أنها تعيش حبًا حقيقيًا، كل شيء يقول ذلك، لن تتخلى عن عامر، فليس من السهل أن تجد المرأة حبها وإذا وجدته عليها أن تتمسك به بقوة، هكذا فكّرت. لكنها في المقابل أخذت تفكر في حدود هذه العلاقة، وإلى أي مدى يمكن أن تنغمس فيها. حسمت أمرها منذ البداية، الحب فقط، لا شيء من الاتصال الجسدي، الذي قرّرت ألا تسمح به حتى يوم الزواج الذي وعدها به عامر مبكرًا، وعندما سألته هل يعرف الثمن؟ قال لها: «هل تعتقدين أني قادم من المريخ، أعرف أن عليّ أن أُسلم حتى أستطيع الزواج منك». ارتاحت للجواب. ولأنها تعرف أن هذا الزواج سيعاني من المشكلات، كانت حذرة بشأن الاعتراف بعلاقتها مع عامر، وقرّرت أن تبقيها سرًّا لا تبوح به لأحد. شعرت بالسعادة لأنها ستكسب حسنات من وراء هذا الحب، صحيح أن عامر سيُشهر إسلامه من أجلها، فالإسلام

سيكسب مسلمًا جديدًا بفضلها، لأنه دون ذلك لن تستطيع أن تتزوجه، فهما لا يملكان الترف الذي امتلكته فداء وإدوارد ويتزوجان زواجًا مدنيًا في بلد أجنبي. وحتى لو توفرت لهما الفرصة، فهي لن تقبل أن تتزوج مسيحيًا دون أن يُشهر إسلامه. لم تقبل التفكير في الموضوع حتى بينها وبين نفسها. شعرت بالسعادة عندما عرفت أن عامر سيُشهر إسلامه من أجلها، كانت سعادتها تتحول إلى كآبة عندما تفكر أن هذا يمكن ألا يحصل. تذكرت المأساة التي عاشتها فداء في تلك الأيام التي جاء فيها إدوارد إلى دمشق ولم تكتمل الحكاية وتركها وراءه مدمرة. إذا كان محيطها لم يرحم فداء، لماذا سيرحمها؟! عندما فكّرت بهذا السؤال تسرّب الخوف إلى قلبها. اتخذت قرارها، بأنها ستمضي في العلاقة، لكنها ستنفي أي علاقة حب مع عامر قبل أن يكتمل كل شيء. هكذا اختارت أن تُجنب نفسها حرج الدخول في مثل هكذا علاقة علانية، ولم تكن قادرة على أن تفعل ذلك، فهي لا تملك جرأة فداء ولا استقلالها.

آخر ما توقعه عامر أن يقع في حب امرأة محجبة، لم يطرح السؤال على نفسه من قبل، لقد عرف في دراسته الجامعية عددًا من المحجبات، لكنه لم يفكر بأي منهن. كان يميل إلى العلاقات مع

الفتيات على حساب العلاقة مع الفتيان، منذ أيام الدراسة الجامعية ابتعد عن الطلاب وأقام علاقاته مع الطالبات، وهذا ما كان عندما جاء للتدريب كمحامٍ في مكتب زوج أخت هالة لأن والده على علاقة صداقة قديمة معه، والذي يدعوه في الصيف دائمًا لزيارتهم في بيتهم الواقع على أطراف بلدة مشتى الحلو. لبى الدعوة كل صيف، ما جعل العلاقة بينهما قوية. وعندما طلب منه أن يستضيف ابنه عامر للتمرين في مكتبه لم يكن يستطيع الرفض.

منذ غادر عامر بلدته مشتى الحلو إلى دمشق من أجل الدراسة قرّر أنه لن يعود إليها إلا زائرًا، فقد كره ذلك المكان. كل من زار المنطقة رآها جميلة، لكن هو كرهها، كره عزلتها وكان يقول ساخرًا: «إذا أردت أن تعرف جمال مشتى الحلو عليك أن تسكنها طوال العام، وإذا كنت تريد أن ترى جمالًا إضافيًا عليك أن تسكن مكاني في أطراف البلدة البعيدة؟!». كان السكن هناك رحلة عذاب بالنسبة لعامر، في الشتاء القارص وهو الفصل الذي يكرهه، الخروج من البيت والعودة عذاب حقيقي، الذهاب إلى المدرسة رحلة أصعب من درب الآلام الذي سار عليه المسيح، ولولا حبه للدراسة في البداية وهو صغير، ومراهنته عليها لتُخرجه من العزلة التي يعيشها في مشتى الحلو، لترك المدرسة وهرب إلى مدينة

طرطوس ليعمل حتى ولو حمّالَ أمتعة في الميناء. لم يحب ذلك المنتجع السياحي الذي يعيشون على هامشه. عندما وصل إلى دمشق ليسجل في الجامعة، عرف أنه أخذ بطاقة خروجه من سجنه هناك. كانت حياته في المدينة الجامعية صعبة، فالعيش مع زميلين في غرفة واحدة أمرٌ معذب، لكنها بالنسبة له أرحم من البقاء في أطراف مشتى الحلو. في نهاية سنته الجامعية الثانية وجد عملًا هو وأخوه حازم الذي لحقه في السنة التالية ليدرس الأدب الفرنسي وهو عمل في مكتب للاستيراد والتصدير يقع في قلب دمشق، صاحبه جورج من بلدهم أصلًا وصديق عمّهم الكبير. غادر البلدة قبل أكثر من ثلاثين عامًا، لكنه حافظ على زيارتها وعلى صداقاته القديمة فيها، وقد أوصى عمُّهما بهما للرجل الذي لم يرفض طلبه وكان بحاجة فعليه لهما في عمله. أول خطوة قاما بها عندما استقر عملهما في المكتب أن استأجرا غرفة بمنافع مشتركة مع سكان آخرين في منطقة الدويلعة، وهي منطقة تقع إلى جانب بلدة جرمانا، وهي تجمُّع للفقراء من المسيحيين والأقليات الأخرى. كانت الغرفة نقلة نوعية في حياتهما، خلصتهما من شركاء مفروضين ومن نظام المدينة الجامعية السخيف. بقي عامر يسكن هذه الغرفة بعد أن هاجر حازم إلى فرنسا في سنته الدراسية الثالثة، وعندما استقر وضعه هناك أخذ

يرسل لعامر المساعدات التي مكنته من ترك العمل وممارسة التمرين للحصول على درجة الأستاذية لممارسة مهنة المحاماة. كان لأخيه حازم الفضل في تجاوز هذه المرحلة، الذي عزَّ عليه أن يهاجر من دون أن يكمل دراسته ولم يقبل لأخيه إلا أن يكمل مشواره وأن يتحمل هو كلفة هذا المشوار. في البداية رفض عامر هذا العرض لأنه يعرف أن وضع أخيه في فرنسا ليس مريحًا حتى يستطيع أن يؤمّن له رسم الانتساب إلى نقابة المحامين ومصاريف أكثر من عامين حتى ينتهي من تدريبه. لكنه في النهاية خضع لرغبة أخيه الأصغر الذي أصرّ على ألا تضيع الفرصة على أخيه كما ضاعت عليه.

في الأيام الأولى التي داوم عامر في مكتب أستاذه، كانت هالة في حماة، عرف أن هناك أستاذة أخرى معهما في المكتب وأنها تغيب لبضعة أيام، وعرف أنها أخت زوجة أستاذه.

عندما دخلت هالة المكتب أول مرة بعد عودتها من حماة شاهد عامر الدهشة ممزوجة بالاحتقار والكراهية في عينيها. استغرب هذا السلوك، فهي لا تعرف عنه أي شيء، رغم ذلك، رد على هذه النظرة بابتسامة لطيفة. كان انطباع عامر الأول عن هالة سيئًا، ولم يعرف أي علاقة معقدة وشائكة قائمة في المكتب بينها وبين أستاذه.

لم يتخذ أي موقف منها، وكان على يقين بينه وبين نفسه أنه سيقنعها بأن موقفها المسبق منه ليس عادلًا. لم يكن يعرف أن الصدفة قادته إلى هذا المكتب في أسوأ الأوقات التي تعيشها هالة. سريعًا ما تحولت العلاقة بينهما، فتلك النظرة التي شاهدها في عينيها في المرة الأولى لم يرها ثانية. في الأيام التالية لم تحضر هالة إلى المكتب، لم يسأل عامر عنها، كان يرغب في الانفراد بها ليسألها سؤالًا واحدًا، لماذا تأخذ موقفًا مسبقًا منه؟ لم تسنح له الفرصة. عندما عادت من مرضها وجد أن الموضوع تجاوزه الزمن، ووجد في ردودها الودية على اطمئنانه على صحتها نوعًا من تعديل الموقف، وعندما نادته حتى يذهبا معًا إلى القصر العدلي أصبح السؤال بلا معنى. لم يعرف عامر أن اللحظة التي دخلت فيها هالة إلى المكتب ثانية كانت كأنها تدخل مذبحًا، كل ذلك من أجل ألا يعرف أحد ما جرى بينها وبين زوج أختها، لم يكن أمامها خيار سوى الصمت. على العكس اعتقد عامر أن العلاقة بينها وبين زوج أختها مثالية، وهذا ما أفهمه إياه أستاذه، ولم يملك أي سبب حتى يُكذّبه. لم يحاول عامر التدخل في العلاقة بينهما، ومنذ البداية أبقى نفسه على الحياد. لم تمضِ أيام حتى عرف أن العلاقة بينهما في غاية التوتر، لم يستطع أن يحافظ على حياده، وجد نفسه متعاطفًا معها، والتعاطف ينمو إلى

شيء آخر لم يتوقعه، اعتقد أن الحب يأتي فجأة كالصاعقة، ولكن اعتقاده هذه المرة كان خاطئًا، فحبه لهالة كان ينمو ويكبر كل يوم. في البداية نفى بينه وبين نفسه أن يحمل مشاعر حب في قلبه تجاه هالة، عندما ينفي يتذكر حجابها. وفي لحظات أخرى يتأكد أن هناك ما ينمو في قلبه تجاهها، عندها ينسى الحجاب ويتذكر جمالها، عينيها الذابلتين، ابتسامتها الساحرة، خجلها الذي يظهر احمرارًا على وجهها، اللطافة التي تعامله وتعامل الآخرين بها، عندها يقول لنفسه، نعم هناك مشاعر، يسأل نفسه، ما المانع؟ كان ينوس بين النفي والتأكيد، عندما رأى دموعها لم يعد هناك مجال للشك بأنه وقع في حبها وارتطم به بقوة. عندما تأكد من حبه لها، كان ينتظره سؤال آخر؛ ماذا عن نهاية هذا الحب؟ إنه سؤال الزواج، فهو لم يكن متدينًا، لكنه يحب مسيحيته، يحب قدّاس الأحد، ويرى الرّب بطريقة خاصة، لم يرغب في نقاشها مع أحد. رأى أنه شخصيًا جزء من تسامح المسيح، كان لطيفًا وخجولًا، وهكذا تصور المسيح منذ طفولته. لم يحب أن يناقش قضايا الدين مع أحد، وعندما يكون موجودًا في قلب هكذا نقاش ينسحب أو يصمت ولا يعبر عن أي رأي. عندما عرف حبه لهالة، عرف أنه في وضع صعب بالنسبة لمسيحيته، فهو سيبقى الشخص ذاته حتى بعد أن يُعلن إسْلامه.

وعنـدما فكّـر في الموضـوع وجـد نفسـه يكـره خسـارة صـورته كمسيحي، ولا يقبل صورته كمسلم، ليس لأنه يكره الإسلام، لكن لأنه يحب مسيحيته، ويحب صورته كذلك. عند ذلك الحد وقبل أن يصارح هالة بحبه، تردد كثيرًا، وعندما حسم أمره، تمنى أن ترفض هالة حبه وتجنبه الدخول في مسار طويل من العذاب.

عندما وجدت هالة نفسها تحمل مشاعر الحب تجاه عامر انتظرت أن يعترف لها، وعندما اعترف، أبدت الموافقة بإشارات جسدية دون أن تقول نعم مباشرة، وهو فهم الإشارات، وأصبحت العلاقة قائمة بينهما. لم يتأخر السؤال الذي ناقشه بينه وبين نفسه، بعد أشهر قليلة، عندما سألته هالة هل يعرف ثمن هذا الحب، شعر وقتها بالخوف، وعرف أن التفكير النظري في الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا، مختلفة تمامًا عندما يطرحها الواقع، وها هي هالة تطرح السؤال الذي فكّر فيه طويلًا وتمنى أن ترفض حبه حتى لا يواجهه في الواقع، تطرحه عليه بطريقة مواربة. حاول أن يبدو متماسكًا عندما أجابها: «هل تعتقدين أني قادم من المريخ، أعرف أن عليّ أن أُعلن إسلامي حتى أستطيع الزواج منك». قال كلماته وسقط شيء ما في قلبه، شعر بخوف شديد، حاول كثيرًا أن يخفف من وقع السؤال على نفسه، لكنه كلما فكّر به أكثر، وجد نفسه أكثر خوفًا. اعتقد أن المسألة لا تعدو كونها تغيرًا شكليًا،

كلمة تتغير في القيد المدني ولا شيء آخر يتغير. لكن عندما أصبح السؤال واقعيًا، اكتشف أن الكلمة في القيد المدني، ستغير حياته كلها. هذا ما زاد من خوفه من الطريق الخطر الذي دخله. أصبح يتجنب الموضوع ولم يعد يتعامل معه كمسألة بسيطة، تمنى أن ينساه، ألا يكون السؤال مطروحًا أصلًا. ما اعتقد في البداية أنه مسألة شكلية تحول إلى أرق دائم، اكتشف أن ما يريد مغادرته شكلًا، هو ما يخترق كل حياته وما يترتب عليها، الكنيسة، الأهل، الأقارب، وشبكة علاقاته ترتبت على أساس أنه مسيحي. والأهم، اكتشف أن المشكلة ليست خارجية فحسب، بل هي مشكلة شخصية وداخلية أيضًا، فتربيته المسيحية ترفض هذا الخيار، شعر أن شيئًا قويًا داخله يرفض هذه الخطوة بقوة، رغم أن عقله يقول له إن المسألة شكلية، داخله يقاوم هذه الخطوة بشدة. بعد أن كان على يقين مما يريد، بات متشككًا. شعر بنفسه يندفع وراء الحب، تبين له أن كل شيء آخر يدفعه إلى عدم الإقدام على هذه الخطوة. عندما قال لأخيه حازم إنه وقع في الحب، كان حازم سعيدًا من أجله، وأخذ يسأله عن التفاصيل، هل هي جميلة؟ طويلة؟ لون بشرتها؟ ماذا تعمل؟...الخ من الأسئلة، ولم تتغير لهجة حازم على الهاتف عندما عرف كل التفاصيل، ولم يعلق عندما عرف أنها مسلمة ومحجبة. اعتقد عامر أن الحياة في فرنسا أثرت في أخيه،

حتى أنه لم يلتفت لما قاله عن إسلامها وحجابها. وفي كل اتصال من حازم يسأله عن حبه: «هل ما زال صامدًا في وجه الريح؟». يجيبه: «ما زال صامدًا، وسيبقى». يقول كلماته بلهجة الواثق من الطريق الذي يسير عليه، وحديث حازم الودي يجعله أكثر ثقة بهذا الخيار، الذي يفترض أنه حرّ في ذلك ولا يؤذي أحدًا. عاد ليلوم نفسه لماذا يُضخّم المسألة بلا داعٍ، عاد ليترك المسألة للوقت، وشعر أنه يهرب منها مرة أخرى، رغم ما يؤشر عليه موقف حازم من دعم. عندما قال لأخيه حازم: «إنه يفكر في الزواج». سأله حازم: «ومن تكون سعيدة الحظ؟». استغرب عامر سؤال أخيه الذي يعرف أنه واقع في الحب، ويعرف من يحب. قال: «إنها هالة». قال حازم بلهجة مختلفة: «تلك المسلمة!». كرّر عامر كلماته: «نعم، تلك المسلمة». ثار حازم وقال: «أنت مجنون حتى تتزوج من مسلمة؟!». قال عامر: «ولماذا لا أتزوج منها؟! أنت تعرف أني أحبها، وأنا مستعد لأن أُسلم من أجلها». قال حازم باللهجة الغاضبة ذاتها: «حِبّ كما تشاء، أما الزواج والإسلام فهو مسألة أخرى، ألا تعرف من أنت، وابن من أنت، وإلى ماذا تنتمي؟! هكذا وبكل بساطة تريد أن تغير كل ذلك وتصبح شخصًا آخر». قال عامر: «عندما أختار من أحب أكون شخصًا آخر حسب قناعاتك؟». قال حازم بلغة قاطعة: «نعم، تتحول إلى شخص آخر، شخص لا أعرفه ولا أريد أن

أعرفه. أن أقف معك بهذه الطريقة وأحبك هذا الحب، هذا لأنك أخي المسيحي. أما عندما تصبح مسلمًا، فلن أستطيع قبول فكرة أخي المسلم، وأنت تعرف أكثر مني أن إسلامك ليس شكليًا، فأول ما سيفعله إسلامك الشكلي سيقطع قانونيًا علاقتك بأهلك حتى لو اعتبرته أنت شكليًا، فالقانون الذي درسته، يقول إن «خلاف الدين يمنع التوارث»، ألم تقل لي أنت هذا الكلام، عندما تصبح مسلمًا تكف عن كونك مسيحيًا، وتكف عن كونك ابن والديك، وتكف عن كونك أخي، هل تفهم إلى أين يؤدي إسلامك الشكلي، يا ذكي؟ هل هذا ما تريده؟ أن تكف عن كونك ابن والدَيك وأن تكف عن كونك أخي؟!». الكلام أربك عامر، ولم يعد يعرف ما الذي يمكن أن يقوله، وأصبحت الكلمات تخرج منه ثقيلة عندما قال: «أنت لا تفهمني، المسألة أبسط من هذا التعقيد الذي تتحدث عنه. ببساطة من حقي أن اختار الإنسانة التي سأحيا معها، فأنا حر في هذه المسألة، وشاء القدر أن أقع في حب هذه المسلمة حسب قولك، وحتى أستطيع الزواج بها، يجب أن أشهر إسلامي حسب القانون في سوريا، لأن زواج المسيحي من مسلمة باطل حسب القانون السوري، لكنني أنا سأبقى أنا». قال حازم: «هكذا تُجمّل الصورة لنفسك، فأنت لن تبقى أنت، أنا لا اعتراض لدي أن تتزوج من مسلمة، ولكن لماذا عليك أن تغير دينك،

ولماذا لا يغير المسلم دينه عندما يتزوج مسيحية، هل هم أعلى منّا مكانة، هل لهم دم أزرق. مرة أخرى، أن تغير دينك يعني أن تكف عن كونك مسيحيًا، يعني أن تكف عن كونك أخي، تزوجها وحافظ على مسيحيتك وستبقى أخي، وأنت تعرف أن هذا غير ممكن. المسألة الأخرى، لو كنت أعرف أنك اقتنعت بالدين الإسلامي وتريد أن تُسلم من أجل هذه القناعة، فهذا خيارك وأنت حرّ ولما قلت كل الكلام السابق، ولكن أعرف أنك مسيحي أكثر مني، وأنك سوف تشهر إسلامك وأنت غير مقتنع بذلك، لذلك لن تبقى مسيحيًا ولن تصبح مسلمًا، في بلدنا الطوائف والمذاهب هي ما يُعرّف أهلها ولا يجدون حماية غيرها. لا أريد أن اختلف معك أكثر. سأنهي المكالمة لأنني لا أريد أن أخسرك قبل الأوان. أنت تعرف رأيي الآن، وأنت حر فيما تختار، فكّر جيدًا قبل أن تُقدم على هذه الخطوة».

عندما أغلقا الهاتف، وجد عامر نفسه تائهًا، لقد أربكه كلام حازم. اعتقد أن حازم بالذات لن يعارض حتى لو عارض الجميع، وهو يكتشف الآن أن حازم أول المعارضين، ويهدده بلغة مبطنة، فماذا يعني عندما يقول بالحدة التي سمعها «هذا يعني أن تكف عن أن تكون أخي». فكّر عامر، وشعر أن الخسارات بدأت قبل أن يخرج أي شيء للعلن. فهو يخسر أخاه قبل أي أحد آخر، أخاه

وشريكه في الحياة، وممول حياته المستقبلية، لقد علم موقف أقرب شخص إليه وأحبهم إلى قلبه، «ماذا عن الآخرين؟». سأل نفسه، أرعبه السؤال، وعرف أنه مُقدم على معركة أكبر مما تصور. وعرف أنه عندما يفكر في الموضوع بينه وبين نفسه، يُبسّط المسألة، ويحذف كل ما لا يحبه، فتبدو المسألة شكلية ليس إلا، يشهر إسلامه وتبقى علاقاته وحياته كما كانت، مسيحية خالصة كما يحبها، هذه هي الشكلية التي فكّر بها، لذلك أبعد أيّة أفكار أخرى، وعند أول مناقشة للمسألة مع أخيه الأقرب إليه، رماه بكل ما حاول إبعاده عن تفكيره، «هكذا فعل المحب، ماذا سيفعل الكارهون؟!». سأل نفسه. عرف وقتها أن التفكير المنفرد، يجعل من يفكر ينحاز إلى نفسه بطريقة لا تصح في الواقع. طريقة تفكير توجد في رأسه كأمنيات، وعندما يذهب إلى الواقع يجدها مجرد أوهام تذهب هباء، وعليه أن يواجه الواقع الفج.

عندما فكّر بحازم المنفعل، توقع أن ينقل حازم ما دار بينهما إلى والديه. بدأ يتحسب لمعركة قادمة في وقت غير مناسب، ندم لأنه أسرَّ لحازم بنواياه قبل الأوان، ولكنه لن يستطيع أن يعود بالزمن إلى الوراء. لقد بدأ ما أجّله طوال الوقت. شعر عامر أنه يتعلق بهالة أكثر كلما زادت أوضاعه تعقيدًا وكلما تمنعت عنه، وهو

ما يصيبه بالجنون. التزمت هالة بالقرار الذي اتخذته منذ اللحظة التي شعرت أن علاقتها مع عامر ستأخذ منحى آخر، فقد عاهدت نفسها على ألا يحصل بينهما أي اتصال جسدي، وألا يبقيا وحدهما في مكان مغلق، ليس لأنها تخاف من عامر أن يُقدم على محاولة ما لاتصال جسدي فحسب، بل وتخاف من نفسها ألا تستطيع وقفه ووقف نفسها في حال حدث ذلك، فكانت القاعدة الأساسية بعدم الوصول إلى اللقاء المنفرد. مع الوقت وجدت الوضع مناسبًا لها، أعجبها أن تسيطر على غرائزها، شعرت أن عامر لا يستطيع أن يثير هذه الغرائز حتى لو انفردا مع بعضهما، لكنها لم تكن لتغامر في تجريب ذلك. ولم يحاول عامر الاقتراب منها جسديًا، جلُّ ما أقدم عليه هو أمساك يدها وهي لم تمانع في ذلك، وعندما طلب منها أن ترفع الحجاب من أجل أن يرى شعرها، رفضت، لم يلح عليها، كانت هذه التصرفات في الحدود التي لا تجعلها تشعر بالندم. حاول إقناعها أن حبه لها، حب بريء وطاهر من أي أغراض حتى من رغبة جسدية جامحة، وحاول أن يقنعها ويقنع نفسه أن الحب أسمى بكثير من الرغبة الجسدية، حتى أن الحب الكبير يستطيع الاستغناء عن اللقاء الجسدي. يقول هذا وهو مقتنع به، طالما أنهما معًا. عندما يفترقان يعرف أنه يكذب وأن رغبته الجسدية بها أكثر من

أن تُحتمل. كانت الرغبة تشتعل ويجمح الخيال الذي يحلّق عاليًا في سماء المتعة. في الوقت الذي يبالغ في التزام الأدب الشديد عندما يكون معها، يترك الخيال يفعل فعله في تفريغ رغبة تصل إلى الاشتهاء. يتخيلها دون ملابس، يرسم صورة لما لا يراه، لتفاصيلها التي تحتجب تحت الملابس ووراء الحجاب. يتصور شعرها الذي يصل إلى كتفيها وفيه خصلات الشعر البيضاء، لأنها قالت له: «ميّشت شعري».، يتخيل غرتها، يعرّيها من ملابسها قطعة، قطعة، قميصها، بنطالها، جواربها، حمالة صدرها، سروالها الداخلي، يفعل كل ذلك وهو مغمض العينين، وينام على سريره. يتخيلها تنزع عنه ملابسه، قطعة، قطعة، كلما تخيل أنها فكت له زرًا، يفكه بيده، وكلما تخيلها نزعت عنه قميصه، يقوم بنزعه. وعندما يصبح عاريًا يتخيل طيفها العاري ممددًا إلى جواره على سريره، تعانقه والشهوة تقطر من عينيها وشفتيها التي تلتهم شفتيه، أنفاس طيفها تحرق رقبته، الرغبة تصل أوجها، عارٍ في سريره، لا ترفض له طلبًا، تنقلب على ظهرها، ينقلب فوقها، يلتهم شفتيها، يقبّل رقبتها، لا يستطيع الانتظار فينزل ليلتهم ثدييها، يرضع حلمتيها، يشعر أنه لم يعد قادرًا على احتمال انتصاب عُضوه، يخترقها، يسمع تأوهها، يزيده التأوه رغبة، فيزيد من اختراقها، تقول له: «أريد أكثر، لا أستطيع أن تبتعد

عني». تزيده كلماتها الهامسة اشتعالًا، يُسرع أكثر في اختراقها، يهتز فوقها بقوة، يشعر بجسده يلتحم بجسدها، يتأوه هو، لم يعد يستطيع الاحتمال، يرتعش جسده، ينتفض قضيبه ليُفرغ رغبته في يده التي ترتفع وتهبط لتأتي الرغبة التي تخيلها مادة لزجة تتسرب من بين أصابعه.

ساعد خيالَه في العديد من المرات، لم يكن صعبًا أن يجد من تُقدم له خدماتها الجنسية مقابل بعض المال. اكتسبت المنطقة التي يسكنها وجوارها سمعة واسعة في تقديم الخدمات الجنسية. بحث عن بديل كامل، لذلك بحث عن عاهرة محجبة، ولم يكن صعبًا أن يجد ما يريد، فمنذ وقت طويل أصبحت ظاهرة العمل في الدعارة تحت حماية الحجاب ظاهرة رائجة في دمشق وغيرها من المدن السورية. لم يبحث طويلًا، عندما حصل على ما يريد لم يصدق نفسه. لم يرَ ملامح المرأة التي جلبها إلى غرفته، لم يرَ فيها سوى هالة. عندما دخلا إلى غرفته وأغلق الباب ونزعت معطفها عنها، أوقفها، خاف أن تنزع بقية ملابسها، قال لها: «أنا سأنزع عنك ملابسك». لم تمانع، نظر في عيني هالة، وعندما نزع حجابها أعجبه ميش شعرها، قال: «شعرك جميل». ضحكت المرأة، وعرفت أنه يتحدث عن امرأة أخرى لأن شعرها لم يكن مميّشًا. أغمض عينيه

وقال: «عيونك ساحرة». وانقض على شفتيها، عرّاها بأسرع ما يستطيع، التهم ثدييها بوحشية، رضعها بقوة، شعرت المرأة بالألم قالت له: «على مهلك». لم يسمعها، اجتاح جسدها الممدد على سريره، نزل بين فخذيها ورضع فرجها، كان محمومًا مستعجلًا. أخيرًا هالة بين يديه ولم يعرف ما الذي يفعله بها. صعد إلى شفتيها ليلتهمهما من جديد، فتحت رجليها، أدخل قضيبه المنتصب في فرجها، تأوهت، ضغط أكثر، أخذ يرتفع ويهبط فوقها، شعر نفسه يحلّق، يطير، يغيب عن الوعي وهو يقول لها: «هالة أنا بحبك... هالة أنت الربّ... هالة بعبدك... هالة... هالة... هالة... هالااااا». ارتعش فوقها بقوة، انقلب على ظهره، بقي مغمضًا يسبح في عالم آخر. لم ينتبه إلا عندما قالت له المرأة: «خلص يا حلو؟». فتح عينيه، نظر إلى المرأة جانبه، استغرب وجودها، أدرك ما حصل، تذكر أن رأسه كان قبل قليل بين فخذي هذه المرأة الغريبة، شعر بالقرف واحتقر نفسه، شعر برغبة بالتقيؤ، قفز من مكانه، لبس ملابسه وخرج ليغسل يديه ووجهه وشفتيه اللتين مرّتا على جسدها. عندما عاد إلى غرفته كانت المرأة ما تزال ترتدي ثيابها، لم يعد قادرًا على النظر في عينيها، مشى باتجاه بنطاله، أخرج محفظته، سحب منها المبلغ الذي اتفق عليه معها، ناولها إياه دون أن ينظر

إليها. أخذت المبلغ من يده، قالت له: «ألا تريد رقم موبايلي؟». قال عامر: «لا، شكرًا». قالت له: «ألا تريد أن تعرف أسمي؟». قال: «شكرًا». قالت: «لا تهتم، في كل مرة آتي، سأكون هالة، قل لي كيف هي وسأكون لك هالة التي تريد». قال: «شكرًا». وقد أغاظه كلامها. قالت له: «كما تريد». كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها، وهي خارجة قالت: «محظوظة هالة التي تحبها كل هذا الحب». تمايلت بغنج، ضحكت بطريقة فاحشة، أضافت وهي خارجة: «الحب كلام فاضي». خرجت وتركته في حالة من القرف، يجلله إحساس بالذنب، وإحساس بالتفاهة، شيء لم يشعر به من قبل.

في كل مرة يستقدم عاهرة يشعر الشعور ذاته، يُحلّق إلى القمة معها وهو مغمض عينيه ويتخيلها هالة، وعندما يفتح عينيه ويعرف أن من تنام إلى جواره ليست هالة، إنما عاهرة أتى بها من الشارع، يسقط من القمة إلى القاع غارقًا في الشعور بالقرف، كرر ما فعل، رغم معرفته بنهاية العملية. عندما يقرّر أن يجلب البديل لم يكن يفكر في النهاية، كان يفكر في العملية ذاتها في تحليق القمة قبل السقوط، لم ينسَ السقوط، كان يعرفه قبل أن يبدأ، ويعتبر أن التحليق يكفي لتكرار العملية ولو أدى إلى السقوط. لم يجرؤ يومًا على الطلب من هالة أن يمارسا الجنس، ولم يحاول أن يجعله يبدو

كنتيجة طبيعية للقاء بينهما، كان يحترق ليحضن جسدها العاري، لكنه خاف أن يفقدها إذا أقدم على ذلك، فتجنب الإقدام حتى على تقبيلها واكتفى بلمسة يدها. استغرب أن يقبل خوض علاقة حب بطريقة المراهقين. لم يفتقر إلى العلاقات السابقة، كان مشلولًا وضعيفًا أمام هذه العلاقة، من أين يأتي هذا الشلل والضعف؟ لم يكن يعرف. خجل من هذا الضعف بينه وبين نفسه، وخجل أن يعترف لأي شخص آخر بطبيعة العلاقة بينهما، حتى من دون أن يسمي هالة.

مضت الأيام بسرعة، انتهى تدريبه، أصبح محاميًا أستاذًا، لكنه بقي في مكتب أستاذه، رغم أن هالة تركت المكتب بعد أن حصلت على أستاذيتها، وقد شعرت في تلك اللحظات أنها تخرج من سجنها الذي سجنها فيه زوج أختها محمد. تنفست الصعداء، أخذت تشقّ طريقها وحدها، استأذنت أختها فداء بأن تجنب غرفة من المنزل، دون أن تفصلها، وتفتح فيها مكتبها الخاص. استغربت فداء أن تطلب منها الإذن قالت: «لا أحد يطلب الإذن ليفعل شيئًا في بيته». قالت هالة: «حتى لو كان بيتي فعلًا كنت لأطلب الأذن منك». ضحكتا، فقد أصبحتا تتحدثان على شات الانترنت كل يوم، تتصل فداء على هاتف الموبايل الخاص بهالة، فتعرف هالة أنها على

الانترنت، تذهب إلى جهاز الكمبيوتر وتتحدثان، حيث باتتا أقرب إلى بعضهما رغم آلاف الكيلو مترات التي تفصل بينهما، تتحدثان عن كل شيء بالتفصيل، كانت فداء تعرف عن هالة كل شيء، باستثناء شيء واحد علاقتها مع عامر، وهالة تعرف عن فداء كل تفصيل.

عندما فتحت هالة مكتبها الخاص، لم يكن لديها العمل الذي يكفيها ويجعلها تستغني عن فداء. خافت هالة أن تكون هذه الخطوة هي مؤشر لفداء بأنه آن أوان قطع المساعدات، طالما أنهت تدريبها وأصبحت تمتلك مكتبها الخاص. قالت لها فداء عندما طلبت منها أن تفتح المكتب: «مفروشات المكتب هدية مني لك». خافت هالة أن تكون آخر هدية، لقد أهدتها حياتها كلها، تمنت هالة أن تكمل فداء معروفها معها وألا تتخلى عنها في هذا الظرف الانتقالي، ولكنها لا تستطيع أن تطلب منها ذلك، لقد منحتها ما لا يمنحه أي إنسان لآخر، كانت كريمة معها حتى أقصى درجات الكرم. أدركت فداء أي ظرف تمر به هالة فبقيت تمدها بالمال، ليس لأنها بحاجة له فقط، بل لأنها قرّرت أن تستمر في ذلك بصرف النظر عن الوضع المالي الذي تعيشه هالة، كان ذلك من ثوابتها طالما هي على قيّد الحياة.

مرت الأيام وعلاقة هالة بعامر تدخل في أطوار غريبة، استغربت هالة أن يبقى عامر مستضافًا في مكتب زوج أختها رغم خروجها منه، ورغم معرفته بكل تفاصيل التوتر بينها وبين زوج أختها. كان الكلام في البداية عن أشهر، لكن الأشهر تحولت إلى سنوات، والعلاقة أخذت تنكشف وباتت تهدد بأن تتحول إلى فضيحة بالنسبة لها. لم تكن هالة قادرة على أن تطلب من عامر أن يُنفذ وعده، انتظرت أن يقوم هو بالمبادرة، وعندما عرفت أنها ستنتظر طويلًا، لم يعد أمامها خيار آخر. اللقاءات بينهما تتباعد بناء على طلبها، ولكن هذا الطلب ناسبه، لأنه بات يشعر بالحرج منها. عندما واجهته بالسؤال: «إلى متى؟». تعامل كأنه لا يعرف قصدها وقال: «إلى متى ماذا؟». أغضبها أن يتجاهل قصدها، رغم معرفتها بأنه يعرف تمامًا ماذا تقصد. قالت: «ماذا بشأن علاقتنا وإلى متى تستمر بهذه الطريقة؟ أما حان وقت النقلة النهائية؟». أربكه السؤال، تمنى في كل مرة رآها، ألا تطرح هذا السؤال، فهو لم يكن يملك الرد، حضّرَ سلفًا حجة تبدو مقنعة، قال: «أنت تعرفين أني لا أملك بيتًا، ولن أقبل أن تسكني في غرفتي الحقيرة في الدويلعة». بدت له الحجة قوية. كانت هالة تعرف أن مكان السكن ليس الموضوع، وأنه يؤجل إلى أن يحدث شيء لن يحدث، أو أنه يتهرب لأنه لم يعد يريد هذه العلاقة وهذا الزواج بعد أن تحمس له

في البداية. قالت: «وما حاجتنا لغرفتك، لدينا بيتي، نسكن فيه ما المشكلة؟». قال عامر: «وهل توافق فداء على ذلك؟». قالت هالة: «ما دخل فداء في هذا الموضوع؟! على كل حال فداء توافق على كل ما أريد ولن تقف في وجه سعادتي». قال عامر: «ألا ترين أن الموضوع سابق لأوانه؟ ما المشكلة أن ننتظر بعض الوقت؟». غضبت عندما سمعت كلماته، قالت بحدة: «يبدو أنك تعتبرني غبية، أنا أعرف مثلما تعرف أنت، أن المشكلة ليست في مكان السكن، المشكلة فيك أنت، عندما حلت ساعة الحقيقة وجدت نفسك غير قادر على القيام بما يجب عليك القيام به. اليوم يا عزيزي تكتشف أن مسيحيتك هي التي تمنحك عملك، فكل موكليك مسيحيون. كنت مستعدًا أن تقوم بأي شيء طالما أنت لن تخسر شيئًا، أما اليوم، إذا أردت اتخاذ ذلك القرار، أن تشهر إسلامك وتتزوج مسلمة ومحجبة، هناك ما تخسره. الزبائن الكرام سيغادرونك إلى محامٍ مسيحي آخر، لأنهم أتوا لعندك أصلًا لأنك مسيحي، وعندما تصبح مسلمًا يغادرونك». قالت كلماتها بغضب، لم ترتب ما تريد قوله قبل أن تأتي، وجدت نفسها تقول كلماتها وكأن أحدًا آخر يقولها. استغربت، لكنها قالت حقيقة جعلت عامر غير قادر على الرد، كأنها دخلت تفكيره وعرفت ما يضمر.

قال عامر محاولًا إخفاء ارتباكه: «ما تقولينه ليس صحيحًا، أنت تظلمينني بهذا الحكم القاسي، وستثبت لك الأيام ذلك». قالت هالة: «أي أيام، هل أنتظر للأبد حتى تثبت لي ما كان يجب أن تقوم به منذ وقت طويل، لقد طفح الكيل يا أستاذ عامر، ستبقى تؤجل الموضوع، ولن تقوم بأي خطوة، تسلّيت على مدى السنوات الماضية، فقد كنت تسلية بالنسبة لك. انتهت التسلية وجاء وقت الجد، وأنا في الجد لا مكان لي في حياتك». ثار عامر بطريقة استعراضية، قال: «لا أسمح أن تتحدثي معي بهذه الطريقة، فأنا لم أتسلَّ، لقد أحببتك، كما لم يحب أي رجل امرأة، لقد ملكت قلبي، وأنا عند وعدي». قالت هالة: «لم أعد اشتري مثل هكذا كلام، لقد شبعت منه، عندما يصبح عندك شيء تفعله بدل أقوالك عند ذلك اتصل بي، أنت تعرف رقم موبايلي». حملت حقيبتها وهمّت بالمغادرة. أمسك يدها وقال: «انتظري قليلًا». قالت: «انتظرت ما يكفي». ضرب عامر بقبضة يده على الطاولة أمامه وهو ينظر إليها وهي تغادر. عرف عامر أنه لم يعد أمامه خيار، فقد طالت القصة أكثر مما ينبغي، ويعرف أن هالة محقة، لكنه لم يرها يومًا بهذا الغضب الذي شاهدها عليه اليوم. كان عليه أن يفعل ما عليه فعله منذ زمن، هو يعرف ذلك، ويعرف أن هالة انتظرت أكثر مما ينبغي.

عندما وجد نفسه في هذا الموقف شعر بالخوف والارتباك، عندما كان متحمسًا للعلاقة، قال إنّ الموضوع شكلي، وكلما اقترب استحقاق أن يحول ما يقول إلى أفعال أصبح يعرف أكثر أنه ليس شكليًا. وعندما أصبح الموضوع ملحًّا، ودخل هو الحياة العملية، بات يدرك أن الموضوع أعقد وأخطر مما تصور سابقًا. تذكر رد فعل أخيه حازم، وفكّر أي رد فعل سيكون عند أهله، أمه وأبيه. تمنى في تلك اللحظة لو استغل أي أزمة في علاقته مع هالة وما أكثرها وأنهى هذه العلاقة إلى الأبد. في كل مرة يختلفان يشعر نفسه أضعف من أن يفعل ذلك مع هالة، في كل خلاف مع هالة يسارع إلى إرضائها في اليوم ذاته، خوفًا من أن يفقدها في اليوم التالي. شعر أن الفقدان بات قريبًا بعد الغضب الذي شاهده على وجهها، إذا لم يخطُ الخطوة اللازمة إلى الأمام، الخطوة التي لم يعد راغبًا في الإقدام عليها والتي بات يدفعه إليها التزام أخلاقي تجاهها أكثر من شعوره بالحب. ما زال يحبها، ولكنه لم يعد يشعر نفسه قادرًا على هذه الخطوة، تذكر كلام حازم عندما قال له، أن يحب كما يشاء ولكن موضوع الزواج شيء آخر. منذ قال له حازم كلماته، شيء داخله قد انهار تجاه هذا الحب. نفى ذلك بينه وبين نفسه، ولكن الآن وهو يواجه الحقيقة يشعر فعلًا أن هناك شيئًا انهار داخله،

وتمنى في تلك اللحظة أن تكون معادلة حازم عن الحب دون زواج صالحة للاستمرار بهذه العلاقة. أصبح أمام استحقاق أجّله كثيرًا ولم يعد قابلًا للتأجيل، فهو لم يعد مرتبطًا بمساعدات أهله، وأصبح مستقلًا، ويعرف أن حجته بعدم ملكيته لمنزل يليق بها، حجة واهية، وهي تعرف ذلك، وهو يعرف أنها تعرف. شعر أن إسلامه سيكون طعنة لأهله لم يكن يريدها، لكنه تأخر كثيرًا. لم يعرف كيف يقول ذلك لأمه وأبيه؟ كيف سيواجههما؟ كيف سينظر في عيونهما؟ أي حجج سيسوقها لإقناع أمه التي تنتظر أن تفرح به بالفتاة التي تريد، والتي كانت تقول له في السنوات الأخيرة، إنه لم يعد يملك الحجة في تأجيل زواجه أكثر وترجوه: «أريد أن افرح فيك». وتستعرض معه العروس المحتملة «ما رأيك في جورجيت؟... ما رأيك في أنطوانيت؟... ما رأيك في نجوى؟...». كان يرد عليها: «لم يحن الوقت بعد». وعندما تسأله: «ألم تجد فتاة تليق بك في دمشق؟». ينفي أن تكون هناك فتاة تشغل قلبه، وعندما تصل أمه إلى هذا الحديث يشعر بضيق شديد. رغب أن يحدثها عن هالة وحبه لها، حب لم يشعر به من قبل، ولا يعتقد أنه سيشعر بمثله في المستقبل، عندما يصل الكلام إلى طرف لسانه يبلع غصته ويسكت. الآن عليه أن يتكلم فلم يعد الصمت ممكنًا. ما الذي سيقوله لأبيه؟ ماذا يقول

للرجل الذي انتظر طويلًا أن يرى ولده محاميًا؟ الرجل الذي قدّم له كل ما يستطيع تقديمه ليرى ولده عالي القامة، نجح في ذلك، ولكن... لم يستطع أن يكمل فكرته، عليه أن يجد مدخلًا ليقول ما عنده، تمنى لو أن حازم أراحه من هذا الهمّ وقال لأهله إنه واقع في حب مسلمة، التزم حازم الصمت تجاه الموضوع، كما رغب في وقتها، تمنى لو لم يفعل حازم ذلك. الآن عليه أن يواجه المشكلة بنفسه، ولن يستطيع الاستعانة بحازم هذه المرة، عليه أن يحمل أثقاله وحده. فكّر أن يخبر أهله بالهاتف، لكنه يعرف أن مثل هكذا موضوع لا يصلح حله عن طريق الهاتف. حزم أمره وزار مشتى الحلو، قرّر أن يخبر والديه بما سيقدم عليه.

طوال الطريق فكّر بكيفية تقديم الموضوع لوالديه بطريقة تجعلهما يقبلانه، فكّر في بعض الأوقات أنهم سيتقبلون الموضوع ببساطة كفلاحين، وعندما يتذكر ردّة فعل حازم يعرف أن ما يفكر فيه مجرد أوهام. عرف في أعماق نفسه أن من المستحيل أن يقبل والداه ما سيقدم عليه. لو أراد فعلًا أن يتزوج بهالة، لما ذهب إلى بلده ولما سأل أهله وهو يعرف موقفهم سلفًا، لكان تزوجها وذهب ليقول لهم إن الموضوع انتهى بصرف النظر عن التبعات.

عندما وصل بيتهم وجد الباب مفتوحًا، كأنهم فتحوه بانتظاره، كانت والدته تجلس على كرسي قديم في صدر المنزل، تخيط شيئًا ما بيدها، عندما شاهدته يدخل من الباب توقفت عن العمل، قبّل يدها وعانقها، جلب كرسيًا مشابهًا للكرسي الذي تجلس عليه، وضعه إلى جانبها وهو يسألها عن أحوالها وعن والده، قالت: إنه لم يعد من عمله بعد، وإنه سيذهب بعد العمل لزيارة صديقه أبي ابراهيم لأنه مريض. شعر بالراحة لعدم وجود والده، ولأنه طوال حياته كان قادرًا على التفاهم معها أكثر من التفاهم مع والده. اعتبر نفسه محظوظًا، لأن تأثيره قويّ على والدته، إذا استطاع إقناعها بالتأكيد، ستكون قادرة على إقناع والده. لم ينتظر أن تسأله متى سيتزوج، فقد بادر هو وقال: «ألا تريدين أنْ تفرحي بي؟». فاجأها السؤال، وتلون وجهها بإشراقة جميلة، شعرت بسعادة لم تعرفها من قبل، أمسكت يده وقالت: «وجدت العروس المناسبة، من البلد ولا من الشام؟». قال: «لا من هنا ولا من هناك، إنها من حماة». ضحكت وقالت: «من أين هي؟ أقصد من أي مكان في حماة؟»، كان مشغولًا بما يدور في رأسه فقال: «إنها مسلمة». تراجعت فرحتها، قالت: «أنت دائمًا تحب المزاح، هذا يعني أنه لا يوجد عروس ولا من يحزنون». قال: «أنا لا أمزح، العروس مسلمة». أراد أن يضيف إنها محجبة أيضًا، لكنه بلع الكلمة.

لـم تسـتوعب أمـه مـا يقـول وعلقـت قائلـة: «أنـت تعـرف أني لا أحب هذا المزاح». قال: «وأنـا فعـلًا لا أمـزح، لقـد وجـدت عروسًـا مسـلمة». تجهـم وجههـا الـذي ظهـر أكثـر تجعُّـدًا منـه عنـدما كانـت فرحـة، نظـرت في عينيـه مباشـرة، وسـألته: «هـل مـا تقولـه لـيس مزاحًـا؟». قـال: «صـحيح، مـا المشـكلة؟». قالـت: «ألا تعـرف مـا المشكلة، ألا تعـرف مـن أنـت... يـا خسـارة الـبطن اللـي حملـك... اذهب وتزوج من تريد، لا أنت ابنـي ولا أعرفـك، يـا خسـارة التربيـة فيك، يا خسارة الحليب اللـي رضـعته مـن صـدري. لا أريـد أن أراك بعد اليوم... قمْ واخرج من بيتي، ماذا تفعـل هنـا؟!». قالـت كلماتهـا الأخيـرة وهـي تصـرخ بـأعلى صـوتها، حـاول أن يقـول كلمـات لتهدئتها، لم تسمح له. وضعت يديها علـى أذنيهـا وأخـذت تصـرخ: «اخرج من بيتي... اخرج من بيتـي... اخـرج مـن بيتـي...». لـم يعـد أمامه أي خيار، بدأ الجيران يتجمعون في ساحة بيتهم على صراخها. شعر بنفسه غريبًا، غادر البيت وهو يسمع جارتهم أم جوزيـف تسـأل أمـه: «طـولي بالـك يـا أم عـامر، مـاذا حصـل؟!». كانـت أمـه تلطـم وجهها وتصرخ: «ابني عامر مات يا أم جوزيف». قالت أم جوزيف: «لا لزوم لهذا الكـلام يـا أم عـامر، عـامر خـرج الآن». زاد صـراخها: «عامر مات يا أم جوزيف». كانـت هـذه آخـر كلمـات سـمعها عـامر،

بقيت تتردد في أذنيه طوال الطريق إلى دمشق «عامر مات يا أم جوزيف».

اعتقد أن أمه ستكون متفهمة، لم يتوقع ردّة فعلها، كان مذهولًا وخائفًا جدًا عليها طوال الطريق، لم يرها بهذه الصورة الهستيرية طوال حياته، صرخت وكأنه مات فعلًا، شاهد حزنها على موته أمامه. شعر بالاحتقار لنفسه، سأل نفسه: «كيف أسبب كل هذا الألم لأمي الطيبة؟! ما الذي فعلتْه لي هذه المرأة لأدمي قلبها؟!». توقع أن ترفض خياره، لكنه لم يخطر له أنها ستنهار وتفتح عزاء مبكرًا على جثته التي تسافر إلى دمشق، شعر أن شيئًا في داخله قد انكسر. عندما وصل الخبر إلى أبي عامر في بيت المريض الذي يزوره، ترك كل شيء وعاد إلى بيته مسرعًا، وعندما وصل إلى البيت كان الجيران قد أحضروا الطبيب لمعاينة أم عامر. «خير... خير يا أم عامر، حماك الرب، حمتك العذراء». ما إن شاهدت زوجها حتى عادت إلى البكاء قالت: «تعال يا أبا عامر لترى حالي بعد الذي فعله ابنك عامر، كسر ظهري». لم يفهم أبو عامر ما الذي تعنيه قال: «ما الموضوع يـ...». قاطعه الطبيب وقال: «يجب أن ترتاح»، قال كلماته وهو يحضر حقنة مهدئة، ليحقن بها أم عامر. طلب من أم عامر أن ترفع عن يدها، وبعد أن تناولت الإبرة المهدئة طلب

الطبيب من الجميع أن يخرجوا. خارج الغرفة سأل أبو عامر: «ماذا بها يا دكتور». قال الطبيب: «انهيار عصبي يا أبو عامر». قال أبو عامر: «كيف أصيبت بانهيار عصبي؟». قال الطبيب: «إنه الزعل يا أبو عامر». كتب وصفته الطبية وغادر بعد أن أوصى بأن يتركوها ترتاح، لأن الإبرة التي حقنها بها ستجعلها تنام. عندما غادر الطبيب، سأل أبو عامر الجيران، لماذا حصل هذا؟ وما علاقة عامر في الموضوع. لم يجد جوابًا عند الجيران، كل ما عرفه أنهم دخلوا عليها وهي تصرخ، وكان عامر في البيت، وعندما دخلوا غادر هو، فلم يعرفوا السبب الذي جعل أم عامر تصرخ بهذه الطريقة التي لم يعرفوها منها من قبل، ولم يعرفوا لماذا غادر عامر البيت بعد أقل من نصف ساعة من وصوله.

اتصل أبو عامر على موبايل عامر فوجده مغلقًا. كان في غاية الارتباك، لم يكن قادرًا على تفسير ما يجري، كيف لعامر أن يزعج أمه لدرجة أن يسبب لها انهيارًا عصبيًا وهو الشخص الوديع واللطيف، الذي لم يزعج أحدًا في حياته، حتى أنه لم يكن يزعج من يزعجه. ما الذي حصل حتى انقلب العالم وفعل عامر ما لم يفعله في حياته كلها؟! وما الذي يجعل أم عامر تقول: إن عامر قد مات، أيَّ جريمة ارتكب حتى تنكره أمه، هذه المرأة الطيبة؟!

كانت الأسئلة تحرقه دون أن يجد جوابًا عليها. تلبَّسه الفضول والقلق، كان متأكدًا أن شيئًا غير عادي قد حصل حتى وصلت الأمور إلى هذا الحد من انهيار أم عامر. لكن ما هو هذا الشيء، ومن الذي سيقول له ما حصل؟ لم يكن أمامه خيارات كثيرة، إما أن يذهب إلى دمشق، ليفهم ما جرى من عامر، أو أنه يبقى حتى تسترد أم عامر عافيتها، ليعرف ما جرى، لكنه لم يكن قادرًا على الصبر ولم يكن قادرًا على ترك زوجته لوحدها مع انهيارها. قرّر أنه سيبقى وينتظر وسيعرف في نهاية المطاف، قال لنفسه هذه الكلمات، كان يغلي في داخله حتى يعرف ما الذي جرى بين عامر وأمه.

عندما أفاقت زوجته أخبرته ما جرى بينها وبين عامر، لم يصدق ما يسمع، عامر يفعل ذلك؟! لم ينتظر، غادر فور سماعه إلى دمشق، لم يعرف ما الذي سيفعله مع عامر؟! أراد أن يسمع منه وكأنه لم يصدق ما قالته زوجته. عندما وصل إلى بيت ابنه، فاجأه وهو يقف أمامه في غرفته في الدويلعة. لم يتوقع عامر أن يأتي أبوه إلى دمشق من أجل هذا الموضوع، لكنه أتى وها هو يقف أمامه وجهًا لوجه، ارتبك ولم يعرف ماذا يفعل، قال لأبيه بارتباك: «تفضل... تفضل...». بقي والده جامدًا في مكانه وقال: «سؤال واحد، هل ما قالته أمك صحيح، ستتزوج مسلمة؟». عندما قال عامر: «هذا

صحيح». تمنى والده أن يسمع كلمة غيرها، عرف عندها أن ما فعلته زوجته أقل شيء يمكن أن تفعله أمام خسارتها لولدها، تمنى أن تكون زوجته تكذب في ما قالت، لكنه ها هو يسمع الجواب من فم عامر. وجد نفسه يصفعه بقوة، ويخرج دون أن يضيف أي كلمة أخرى. بقي عامر مذهولًا ممّا فعله والده، فهو لم يضربه في يوم من الأيام، بقي في مكانه ينظر في الفراغ، لم يسمع حتى الباب الخارجي الذي صفقه والده بقوة وهو خارج.

عندما عرف من حازم من تكون تلك المسلمة التي ينوي الزواج منها، اتصل فورًا بصديقه وزوج أختها المحامي محمد، سأله: «ما هذا يا أستاذ محمد؟». قال محمد: «خير يا أبا عامر؟». أجابه: «معقول ما فعلته أخت زوجتك؟». محمد: «لم أفهم قصدك يا أبا عامر، ما الذي فعلته هالة؟». أبو عامر: «معقول لا تعرف، كل هذا يجري من ورائك؟». قال محمد بضيق: «ما الذي جرى من ورائي؟!». أبو عامر: «لم تجد أخت زوجتك المُتدينة المتحجبة رجلًا تتزوجه غير ابني عامر، لم يعد هناك رجال مسلمون حتى ترمي نفسها عليهم، لم يعد هناك سوى ابني المسيحي». كانت الدهشة واضحة بلهجة محمد عندما قال: «ما الذي تقوله يا أبا عامر، غير معقول ما تقوله». أبو عامر: «أنا متأكد ممّا أقول، سمعت

الكلام من عامر نفسه، لقد رمى الخبر أم عامر في الفراش مريضة».. محمد: «والله، يا أبا عامر لم أكن أعرف أي شيء عن الموضوع، هذه أول مرة أسمع به». أبو عامر: «لقد خسرنا الولد يا أستاذ محمد، أرجوك أن تبعد أخت زوجتك عن ابني، نحن لا نستطيع تحمّل هذه الخسارة».

سمع محمد صوت بكاء أبو عامر على الجانب الآخر، قال: «هدئ أعصابك يا أبا عامر، كل مشكلة ولها حل». عندما أغلق هاتفه، كان محمد مندهشًا مما سمع، هل يعقل ما سمعه، كل ذلك حصل أمام عينيه ولم ينتبه، سأل نفسه: «معقول أني كنت أعمى إلى هذه الدرجة؟!».. كان منزعجًا وغاضبًا لأنه لم ينتبه، ولأنه شعر أن هالة خانته بهذه العلاقة التي لم يكن يتخيلها، «هالة المتدينة تحب عامر المسيحي؟ وفي مكتبي!». قال لنفسه وضرب كفًا بكفٍ. أصبح محمد يملك سرًا استطاعت هالة إخفاءه. أشعره غضبه بحاجته للانتقام منها لأنها لم تتجاوب معه، في الوقت الذي تجاوبت فيه مع المسيحي. لم ينتظر، اتصل فورًا بزوجته في البيت، وقال ساخرًا: «هل تعرفين ماذا تفعل أختك المتدينة، الغارقة في العبادة؟». قالت هدى: «لماذا تقول هذا الكلام عن هالة؟». محمد: «لأن كل ما تفعله كذب وادعاء لا أساس له، واحدة متدينة عاشقة لمسيحي

كافر، أليس هذا ما تقوله عن المسيحيين؟!». صرخت هدى: «ما الذي تقوله، لماذا تلفق لها هذه الاتهامات؟». محمد: «لماذا ألفق لها!! منذ قليل أتصل أبو عامر وقال لي أَبعدْ أخت زوجتك عن ابني، أختك يا هانم طوال الوقت في مشاوير معه». قالت هدى: «هذا غير معقول... غير معقول...». قال محمد بلهجة شامتة: «اسأليها؟». قالت: «سأسألها... سأسألها...».

أغلقت الهاتف وأعادت الاتصال بهالة، قالت بلهجة حادة: «لم أصدق ما سمعته، وأريد أن أسمع ذلك منك، هل هناك شيء بينك وبين المسيحي؟». فاجأ السؤال هالة، وجدت نفسها خائفة من السؤال، أخذت تُتأتئ وهي تقول: «ما الذي تتحدثين عنه؟». قالت هدى بحزم: «كلامي واضح، قال محمد إن والد عامر يقول إن هناك علاقة بينك وبينه، هل هذا صحيح».. قالت هالة بارتباك: «أعوذ بالله، ما هذا الكلام! أنا أحب مسيحي! لماذا؟ هل انتهى الرجال المسلمون من العالم؟!». قالت هدى: «وإذا كان هذا هو الوضع لماذا تخرجين معه؟». قالت هالة: «أنا لا أخرج معه إلا من أجل العمل، فعلاقتي به علاقة زمالة وكان زوجك وراء هذا الخروج، منذ كنا في مكتبه». قالت هدى: «والله يا هالة لا يعجبني هذا الكلام، أن شاء الله يكون ما تقولينه هو الحقيقة، لأنه لا دخان من غير نار».

عندما أغلقت هالة الهاتف استغربت من نفسها ومن جُبنها الاعتراف بأي علاقة مع عامر. منذ اللحظة التي سألتها هدى عرفت أن عامر تحدث بالموضوع مع أهله، لكنها لم تكن تعرف ما هي النتيجة، وطالما أن عامر لم يتصل بها ولم يخبرها ما جرى مع أهله، فهي ليست واثقة من أنه سيسير في الطريق إلى نهايته، هكذا بررت لنفسها عدم اعترافها بأي علاقة معه. وتذكرت تعهدها لنفسها، بأنها لن تعترف بأي علاقة معه قبل أن يتم كل شيء بشكل رسمي، وإلى الآن ليس هناك ما يدل على أن الأمور تسير بهذا الاتجاه. لم تكن منزعجة لأنها كذبت، على العكس هذه المرة شعرت بالارتياح، رأت أن لنفيها هذه العلاقة ما يبرره، فمنذ سمعت لهجة أختها هدى عرفت أي مشاكل ستواجه، ولتُجنب نفسها المشاكل كذبت ونفت. تذكرت معاناة فداء القوية في هذا الموضوع، فكيف سيكون حالها وهي الضعيفة، تذكرها لمأساة فداء جعلها تصرّ أكثر في نفيها لأي علاقة مع عامر. فهي لا تريد أن تشعر بالوحدة أكثر ممّا تشعر بها دون قصة من هذا النوع، فاعترافها بقصة من هذا النوع سيجعل حياتها مستباحة من إخوتها وهي لا تستطيع تحمّل ذلك. عندما يقوم عامر بكل الإجراءات التي اتفقا عليها منذ سنوات، تعترف بهذه العلاقة. تملّكها إحساس داخلي يقول إن عامر لن يكمل هذا

المشوار، كل سلوكه في الأشهر الأخيرة يقول ذلك والبرود الذي اعترى العلاقة لا تخطئه العين. كانت تعتقد أنه يحتاج إلى ذريعة، وأنه في النهاية سيوفرها لنفسه بأي طريقة من الطرق، لم تعرف لماذا كانت واثقة من هذه القناعة. استعرضت تاريخ العلاقة وأدركت أن عامر يتهرب طوال الوقت من أن يُقدم على خطوة مهما كانت صغيرة، لذلك لم تتوقع أن يُقدم على هكذا خطوة وإذا أقدم فلن يكملها، فهو أضعف منها تجاه أهله، ولأنه كذلك، فالمصير معروف، سيخضع للضغوط، فلم تعرف عنه التحدي، كان دائمًا مسالمًا، ولن يغير طبيعته من أجلها، فكّرت بعقل بارد لم تتعود عليه من قبل، بكل حيادية سلسلت حياتها وكأنها تسلسل حياة شخص آخر. وعندما انتهت من تفكيرها الحيادي، عرفت أنها خسرت عامر، فغرقت في البكاء.

في اليوم التالي، بحث محمد عن هالة في القصر العدلي، وتقصّد أن يلتقي بها، وعندما شاهدها ألقى عليها التحية، بادر فورًا إلى سؤالها وهو يدقق في ملامحها: «صحيح أنك ستتزوجين عامر؟».. لم تستغرب هالة سؤاله وقد تعاملت معه ببرود تدرّبت عليه طوال الليلة السابقة، فقد توقعت أن يسألها هذا السؤال بعد أن نقلت لها هدى ما يقوله زوجها. قالت: «من قال لك هذا الكلام

الفارغ؟».. قال بتهكم: «ليس أحد غريب، إنه عمك المقبل، أبو عامر».. قالت هالة مقلدة تهكمه: «ليس لي عم مقبل. ليقول ما يقول، أنا أعرف نفسي... عن إذنك». أدارت ظهرها وتركته وحده وسارت مبتعدة، دُهش محمد من سلوكها، كان في غاية الغيظ، لكنه لم يستطع أن يقول لها شيئًا، ولم تسمح له بذلك لأنها ابتعدت مسرعة. في تلك اللحظة قرّر ما الذي سيفعله للانتقام منها. لم يترك أحدًا من معارفه أو معارفها، إلا وقال له ما دار بينه وبين أبو عامر من حديث، مع التأكيد على مسيحية عامر للجميع، حتى لا يخدعهم اسمه الذي لا يدل على ذلك. توقعت هالة أن يسعى زوج أختها لفضيحة، لكنها لم تتوقعها بهذه الاتساع، انهالت عليها الاستفسارات، ردت بالنفي. لتقديرها أن عامر لن يستطيع أن يمضي بهذه العلاقة إلى نهاياتها، تمنت أن يقول لها: «تعالي نضع حدًا لهذه الأقاويل». لكنه لم يتصل بها، وكان يتجنبها، ولم تستطع أن تقول له ذلك، لقد قالت ما عندها وعليه هو أن يتصرف.

فرض عامر على نفسه عزلة قاتلة، فكّر ما الذي فعله بنفسه وبأمه وأبيه؟ شعر بنفسه غريبًا عن نفسه وعن العالم، فكّر كثيرًا دون أن يجد ما يستطيع فعله. وجد نفسه غير قادر على السير بأي اتجاه، شعر أن شيئًا ثقيلًا يربض على صدره، لا يعرف كيف يتخلص منه.

الحب الذي حمله لهالة توارى في زاوية خفية، رأى عمره يجري أمامه، أمه، أبيه، أخوته، أقاربه، أصدقاؤه... يسكنون مفاصل حياته كلها، مشتى الحلو التي كرهها رآها في غاية الجمال، عاد الطفل داخله ليدلّه على تجاويف شجرة الزيتون التي خبّأ فيها أسرار طفولته، خيالات الوادي، حكايات الجدة، تراتيل الكنيسة، العيد، جمال المسيح، وداعة مريم العذراء، الإنجيل الذي لم يجد فيه سوى التسامح.. هو عامر الذي يفعل ما فعله بأمه، كيف استطاع أن يتركها بتلك الحالة ويخرج من البيت، أين كان قلبه؟ فكّر وقال لنفسه: «لماذا لم أحتضنها، وأقول لها إن ما قلته مجرد مزاحّ، أي قلب أحمله لأستطيع أن أترك أمي وأغادر البيت وهي في الحالة المنهارة التي كانت عليها وكأنها شخص لا أعرفه ولا يعنيني؟!».

عندما تذكر وجه أمه المحتقن التي تصرخ بأعلى صوتها: «اخرج من بيتي».. ارتعش جسده وأخذ بالبكاء لذلك المشهد الذي تبلّد حسه عندما شاهده مباشرة كأنه مشهد في فيلم لا يؤثر فيه من قريب أو بعيد. وجد عالمه يتفكك، لم يدرك من قبل كم هو عالق في العلاقات التي اعتقد أن بإمكانه التخلص منها بسهولة، لكنه اكتشف في أزمته أن علاقاته هي التي تصنعه، وأن التفكير في الأمور شيء، وإمكانية تنفيذها في الواقع شيء آخر. كان يعرف أن تفكيره بهذه

الطريقة هو تفكير تراجعي. فكّر بكيفية التصالح مع عالمه الذي اكتشف أنه لا يستطيع الخروج منه. عرف أنه يفكر بطريقة مختلفة عن الطريقة التي كان يفكر بها عندما أراد الارتباط بهالة بقوة. وقتها شعر أنه يستطيع أن يطيح بكل طريقة التفكير البالية التي يحملها، التي عاد ليفكر بها عندما أراد التراجع، عندها وجد نفسه يجبن عن إكمال الطريق، شعر أنه غير قادر على الاستمرار، وأن هناك آلاف الروابط التي تشده إلى ما ينتمي إليه. شعر أن طريقة التفكير السابقة تنتمي إلى فترة سابقة في حياته، فترة بعيدة. أخذ يفكر بهالة كأنها طيف حب يأتي من الماضي البعيد، طيف جميل يستطيع أن يزين حياته، لكنه لن يستطيع أن يصنعها له. أصبح كل تفكيره يدور حول كيف يمكن أن يرمّم حياته التي هدمها بيده؟ كان الجواب بسيطًا، هو أن يعود إلى ما حاول التمرد عليه، وأن يضع نفسه في المكان المتوقع منه، وهذا ما كان. اعتذر لوالديه عمّا فكّر به، قبّل أيديهم، وحتى لا يعود إلى التفكير في الموضوع، كانت الضغوط كبيرة عليه من أجل الزواج، سرعان ما استجاب للضغوط وتزوج. قام بكل ذلك كأنه منوم مغنطيسيًا، لا يعرف هل هو راضٍ أم لا؟! كأن شخصًا آخر هو من يقوم بأفعاله، عندما انتبه كان كل شيء قد انتهى، وبات يعيش حياة أخرى، شعر بقوة أنها ليست حياته.

عاشت هالة وسط لهيب يحرقها يأتي من جميع الاتجاهات، الجميع يسأل عن حقيقة العلاقة التي تجمعها بعامر، والذين لا يسألون بألسنتهم، كانوا يسألون بأعينهم، وهي تقرأ تلك العيون. كانت تحترق من الداخل، رغم نفيها المطلق لأي علاقة بينها وبين عامر، شعرت أنه حتى لو صدّقها الآخرون، فإن ذلك لا يحل مشكلتها، فالفضيحة قد وقعت. والأهم من ذلك، هي تعرف أن نفيها لا يغير من حقيقة العلاقة بينها وبين عامر، فهي لن تصدق كذبتها في النهاية. شعرت بجرح عميق وهي تكذب، لو أنها عرفت أن عامر سيكون وفيًّا لوعده لتخلت عن قرارها السابق بنفي أي علاقة معه. شعرت بضغط هائل لم تشعر به من قبل، كأن الرياح تتلاعب بها وتحتاج إلى من يضع حدًا للعاصفة التي وجدت نفسها فيها، لأنها لا تستطيع أن تخرج منها وحدها، لكن المنقذ الذي تنتظره لا يريد أن يلعب هذا الدور. تمنت وحلمت أن يأتي عامر ويقول لها: «لنضع النهاية الصحيحة لهذا الحب». لكنه لم يأتِ. قدّرت أنه يعرف أي وضع تعيش فيه، وكان هذا يدمرها. رغم كل أوجاعها، بنَت الأمل بأن يتحمل عامر المسؤولية، ويجنّبها دويّ الفضيحة التي تسبب بها والده، إذا كان لا يريد أن يتحمل مسؤولية الحب الذي اختاره بمحض إرادته. كانت تتخبط، عرفت أن عامر

خرج من حياتها نهائيًّا، لكنها تمنت أن يكون إحساسها وتقديرها في هذا الموضوع خاطئًا، وأن يخذل عامر توقعاتها السلبية ويقوم بما لا تتوقعه منه هذه المرة، يقوم بالخطوة الوحيدة التي تعيد لها اعتبارها. لم تذهب أمانيها أدراج الريح فحسب، بل انهارت وسقطت صريعة المرض أيضًا. شعرت أنه خيب أمنياتها وذبحها بأسوأ طريقة ممكنة. لم تتوقع أن يصفعها عامر بهذه الطريقة المهينة، عندما عرفت أنه تزوّج لم تجد أي تفسير لهذا السلوك الذي اعتبرته سلوكًا حقيرًا، سوى الإمعان في إذلالها. لم تفهم أي خطأ أو أذى تسببت به له، حتى يعاقبها بما قام به، شعرت أنها لم تكن سوى درجة لا معنى لها في سلم حياة هذا الرجل الذي ادعى أنه يحبها لدرجة العبادة. شعرت تجاهه باحتقار شديد، لكنها كانت تعرف أنها عاجزة عن أن تفعل شيئًا لمُعاقبته على ما فعل. كانت متأكدة أنه لو وُجد أمامها لكانت قتلته، ليس لأنها تحبه وتغار عليه، بل من أجل الكأس الأكثر مرارة في حياتها التي سقاها لها. ترتجف كلما تذكرت وتشعر بالمرارة والاهانة والخيانة والخذلان. شاهدت حياتها مطحونة تحملها الرياح في كل اتجاه خاطئ. فكّرت بالانتحار لأنها لا تستطيع أن تتحمل الذلَّ الذي شعرت به. لم تفتقد الشجاعة للإقدام على هكذا خطوة، لكن إيمانها الذي يُحرّم الانتحار أبعد الفكرة

كلما خطرت في بالها. شعرت أنها وحيدة وضائعة ومتروكة، كل شيء يدفعها إلى الانهيار، فانهارت. أطبقت الدنيا عليها، لم تعد ترغب في شيء، أصبح كل شيء بلا طعم، شعرت أنها تعيش بعار الفضيحة، وترى الاتهام في عيون الآخرين. سمعت من الآخرين كلامًا لم تتوقعه «لقد أخذ منها كل شيء وتركها كـ...». لم تكن قادرة على لفظ الكلمة، لم تعد قادرة على رؤية وجهها في المرآة، لم تعد قادرة على الخروج من البيت، ولم تكن قادرة على أن تقول ما بها لأي أحد من حولها، كان سرًّا مفضوحًا، لم ترغب أن تعترف به حتى لأقرب الناس لها. تماسكت أمام الآخرين، وعندما يذهبون تجد نفسها منهارة. بررت غيابها عن عملها بالمرض، كلّفت صديقتها أن تتابع أعمالها، حتى تتجاوز وعكتها. جارتها سعاد كانت الشخص الوحيد الذي يعرف مصابها دون أن تعرف التفاصيل، عرفت أنها منهارة لأن حبيبها تركها وتزوج أخرى. كانت تعرف حساسية هالة، لذلك قرّرت أن تقف معها كما وقفت معها في مِحَنها.

كانت سعاد ممنونة لهالة لأنها هي من وقف معها في محنتها، وكتمت سرّها الكبير، سرّها الذي لم تكن قادرة على البوح به لأحد، ولم تكن قادرة على الاحتفاظ به في الوقت نفسه. كان السرّ

يثقل صدرها، لم تكن قادرة على قول ما في قلبها لأحد، لأن قوله فضيحة. لم تنوِ قول أي شيء حتى لهالة، اعترافها كان أقوى منها. عندما دقت سعاد بابها، ودخلت باكية، قالت لها هالة: «تفضلي، ما بك؟ لماذا البكاء؟!». لم تتوقع هالة وقتها أن تقول لها سعاد ما قالت، ولم تتوقع أن تقع في مثل هذه الورطة. تدفق الحديث بلا رابط، لم تفهم هالة كلامها، احتاجت بعض الوقت حتى تستوعب ما تقول سعاد التي بدأت حديثها: «لماذا أنا من بين كل هذا الخلق... لماذا أنا التي عليها أن تقع في هذه الورطة... أنا لا ينقصني... لم أعد قادرة على الاحتمال... ماذا عليّ أن أفعل قولي لي؟! والله ليس بيدي، كل ما حصل ليس بيدي. ماذا أفعل؟ أنا أحب أولادي وأحب بيتي، لكن هناك شيء أقوى مني، أشعر نفسي مسحورة، شيء أقوى مني يدفعني دفعًا إليه، لقد ذهبت إلى الشيخ عبد القادر لأفك هذا السحر، لم ينجح الأمر. ذهبت عند الحاجة كوكب في غباغب، لم أستفد شيئًا. أريد أن أَخلص من هذا الموضوع لكني غير قادرة. عندما أسمع كلماته، أذهب لأرمي نفسي في حضنه، ومستعدة أن اقبّل قدميه، أن أفعل له ما يشاء، ومستعدة أن أعمل كل شيء ليبقى معي، مع أني حاولت كل ما أستطيع لأبتعد عنه، دون أن أنجح، على العكس كلما حاولت أن

أبتعد عنه أجد نفسي أكثر تعلّقًا. لم أعد أطيق زوجي، لم أعد أطيق أولادي، لم أعد أطيق نفسي، لا أحب أن أكون عبدة أحد، لكني كذلك رغمًا عني. يصغرني بخمس سنوات، وهو ليس أفضل حالًا مني، هو مجنون بي أيضًا، أعرف ذلك، أشاهد ذلك في عينيه، في لهفته، في بكائه المجنون، كل مرة نبكي ونتفق أن ننفصل نهائيًا، ولكن عندما نفترق، يفقد كل شيء معناه، وتصبح الحياة لا طعم لها، عندما يتصل بي أذهب له كالمجنونة، أو عندما أتصل يأتي كالمجنون. لم أعد قادرة على العيش بدونه، أعرف أن الفضيحة قريبة وقريبة جدًا، أعجز عن منع نفسي، أني أحبه، اعشقه، أعبده. أخاف من الفضيحة عندما أفكّر بعقلي، وعندما أسمع صوته أنسى كل شيء، فلتكن الفضيحة وليكن آخر يوم في حياتي، ليس مهمًا، أراه وأموت، ليس عندي مشكلة. وعندما ينتهي اللقاء الملعون، أرجع إلى عقلي وأقول ما الذي أفعله بنفسي وبأولادي؟! أعرف أن القصة ستقتلني في النهاية. لكني عاجزة عن فعل أي شيء تجاهها. أنت لا تعرفين من أقصد، لم أعد قادرة على الصمت، سوف أموت، إنه ابن أخِ زوجي».

عندما سمعت هالة الجملة الأخيرة شهقت، فتحت عينيها على وسعهما، وضعت يدها على فمها لكتم صوت الشهقة. لم تكن

تتوقع أن سعاد الوديعة والهادئة يمكن أن تقع في هكذا مطب، كانت صدمة بالنسبة لها، صدمة لم تتوقعها من جارتها المؤدبة، المتدينة، التي لا تُهمل أي تفصيل في بيتها أو حاجة لأولادها. كانت مصدومة وهي ترى سعاد تبكي من ألمٍ أعمق مما تصورت أن يكون هناك حب يسبب مثل هذا الألم وبعمقه. عرفت وقتها أن الحب المحرّم الذي يذبح بالطريقة التي شاهدت سعاد عليها، لا بد أنه أقوى من أي حب آخر، حتى يجعل البشر يتحملون الألم الرهيب الذي يشعرون به وهم يخوضون هذه التجربة العاصفة. لم تكن قادرة على قول أي شيء لسعاد، اقتربت منها، احتضنتها، ورمت سعاد رأسها على صدر هالة وأخذت تشهق بالبكاء، شعرت هالة أن سعاد لن تتوقف عن البكاء بقية عمرها. نامت بعد قليل من إنهاك البكاء، مددتها على الأريكة في الصالة، عندما أفاقت سعاد من نومها بعد حوالي ساعتين، استغربت أنها تنام عند هالة، تذكرت ما جرى دون أن تتذكر كيف غرقت في النوم. نظرت إلى هالة خجلة ممّا اعترفت به، توقعت أن تسألها عن الكلام الذي قالته قبل أن تهرب إلى نومها، لكنها لم تفعل. سألتها: «كيف حالك؟». قالت سعاد وهي تمسح وجهها بيديها من دموع ما تزال تشعر بها على وجهها: «أنا بخير». لم تسألها شيئًا آخر. أعدّت هالة القهوة، شربتا، لم تعلق على ما

قالته، رغم ما قرأته سعاد من صدمة على وجهها قالت هالة: «أنا أختك وتستطيعين أن تقولي لي أي شيء والبيت بيتك». فهمت سعاد أن هالة رغم صدمتها لم تغير موقفها منها، وأنها لن تقيم لها محكمة عن السلوك الصحيح والخاطئ. كانت خجلة ولكنها مرتاحة لأنها استطاعت أن تُنزل الثقل الضاغط على صدرها، تروي حكايتها وتبكي نفسها، كانت بحاجة لذلك حاجتها إلى دواء لا غنى عنه. ممنونة لهالة، لولاها والمتنفس الذي صنعته لها وحفلات البكاء التي بكتها على صدرها لما تجاوزت أزمتها، ولما احتملت أن يهرب حبيبها إلى ألمانيا. كانت ما تزال تحبه، وستبقى تحبه، لكنها متأكدة أن هذا الحب سيقتلها لولا هروب الحبيب وصدر هالة الذي بكتْ عليه المرة بعد المرة.

لم تكن سعاد بحاجة إلى سماع قول الطبيب حتى تعرف أن هالة سقطت من جديد صريعة انهيار عصبي. كانت تعرف هذه الحالة جيدًا فقد شاهدتها تمر بها من قبل. لكنها لم تعرف أن الانهيار يمكن أن يحصل على هذه الدرجة من القوة. طلبت هالة منها ألا تخبر أحدًا حتى أهلها بما تمرّ به، عرفت سعاد أيّ ألم تشعر به. قرّرت ألا تتركها، صحيح أنها أصيبت بانهيار عصبي من قبل، لكن لم يكن بهذه القسوة. طلبت من زوجها أن تنام عند هالة في أيامها

العصيبة، لم يمانع، كانت تقوم بكل واجباتها تجاه بيتها نهارًا، وتذهب بين الحين والآخر لتطمئن على هالة. في الليل، تنام عندها، المهدّئ الذي كتبه الطبيب ساعد هالة على النّوم، لكنها في الكثير من الأوقات كانت تهذي بكلمات وأسماء لم تكن سعاد تعرف الرابط بينها، الحرارة تفعل فعلها، فتخرج الكلمات دون ترابط. سمعتها تقول: «من الذي أتى بي إلى هنا... لا أريد الذهاب إلى حماة... فداء لماذا تركتني لوحدي؟!... من أين جاء هذا الدم؟!... لا ترموني في النهر... بخاف من الليل... من أدخلني لهذه المغارة؟!... يا حقير لماذا فعلت هذا بي؟! من أين يأتي صوت القرآن؟... أين أبي؟.. أين أمي؟ الحقّ عليك لماذا تركتني؟... لا أريد أن أراك... أنت مجرم... لقد ذبحتني... أبعدوا القطط عني... عفاريت... عفاريت... حسني... حسني... حسني... لماذا تركتني أغرق في النهر... لماذا تزوجت محمد الحقير؟!... من عرّفني على عامر؟ من يكون عامر؟!... أريد أمي... أين أمي... أنا خائفة... عبد الله يريد أن يذبحني... تركتني وهربت إلى أميركا... غطّوني أشعر بالبرد... من أنت؟!... من أين أتيت؟!... أين أنا؟!...».

لم تفهم هذياناتها، دمعت عينا سعاد وهي ترى هالة على هذه الحالة، لم تكن قادرة على فعل شيء لها، في الكثير من الأحيان

نامت معها في سريرها وهي تحتضنها، ما خفّف عن هالة وأشعرها بالدفء والأمان. بعد ثلاثة أيام أخذت هالة تخرج من حالتها، وبدأت تعي ما يحصل حولها، عرفت من سعاد أنها على هذه الحالة منذ ثلاثة أيام، وأنها كانت تهذي طوال الوقت وحرارتها عالية، وأن الطبيب قال: «إنها صدمة أدت إلى انهيار عصبي، زعلانة كثير». أخبرتها عن عيونها الزائغة طوال الوقت، تنظر ولا ترى، تأكل ولا تعرف لماذا. كانت سعيدة بتحسن هالة، لم تتعافَ تمامًا، ولكنها بدل الهذيانات، أخذت تتذكر، تتكلم وتبكي، وسعاد تحتضنها عندما تشعر بالحاجة للبكاء، مثلما احتضنتها عندما مرّت بأزمتها. أراح الاحتضان هالة التي تشعر بالوحدة والقهر، التلامس مع جسد آخر خفف عنها قهرها الداخلي. قالت سعاد لها: «أعرف أن مصابك كبير، أنت مؤمنة، وتعرفين أن الحياة اختبار للمؤمن، وأنت أقوى من ذلك... احمدي ربك أن صحتك جيدة، وأوضاعك جيدة، هذه نِعَمٌ لا نشعر بها إلا عندما نفتقدها... ارمي كل شيء وراء ظهرك، ليس هناك رجل يستحق هذه الدموع... أنت صبية جميلة، وألف من يتمناك، لماذا الحزن على شخص لا يستحق؟ اتركي كل شيء للأيام، الله سيعوّضك بالتأكيد، قومي صلّي وستشعرين بالراحة». استجابت لطلب سعاد، صلّت، شعرت فعلًا

بالراحة أثناء الصلاة، وعندما قرأت بعض السور من القرآن، شعرت براحة أكبر.

كلمات سعاد أخذت تحفر ببطء في عقل هالة، تخفف عنها فعلًا وتخرجها ببطء من الحالة التي تعيشها، مع الأيام تحسنت هالة، وشعرت أن ما حدث بات أبعد وأقل تأثيرًا عليها. عندما ضحكت على تعثر سعاد بسجادة الصالة، عرفت سعاد أنها تجاوزت الحالة، وأنها مسألة وقت لتعود الى حياتها الطبيعية. طلبت منها أن تخرجا، قالت هالة: «أشعر نفسي غير قادرة». قالت سعاد: «لن نبتعد كثيرًا، هنا إلى الحديقة».، ألحّت سعاد فقبلت هالة، غيرت ملابسها بمساعدة سعاد. وضعت حجابها، اتكأت على سعاد، نزلتا الدرج إلى الحديقة التي لا تبعد عن منزلهما سوى بضعة أمتار.

كان صباحًا ربيعيًا، الشمس دافئة، والحديقة تعجّ بالحياة، أحسّت أنها لم تدخل الحديقة منذ سنوات، وأنها أجمل مما شاهدتها من قبل، الأشجار، ومروج العشب، الأطفال الذين يمرحون في منطقة الألعاب، الأزهار بألوانها الحمراء والصفراء والبنفسجية. جلسَتا مقابل بركة الماء التي تتوسط الحديقة، كانت مسحورة بالبَطّ الملوّن الذي يجوب البركة برؤوسه الخضراء الغامقة أو السوداء، والإوزّ ببياضه الناصع، تتحرك في بركة المياه

بهدوء، تنتظر أن يرمي طفل لها بعض المأكولات التي سرعان ما تلتهمها. عدلت الحديقة التي تعج بالحياة من مزاجها، تأملت الأطفال الذين يتراكضون هنا وهناك، يضحكون ويصرخون، هذا الذي يبكي لأن أخاه أخذ منه شيئًا، وذاك يبكي لأنه وقع وهو يركض، وسرعان ما يعودون للضحك واللعب. راقبت كل حركة حية في الحديقة، وكأنها تتعرف على الحياة من جديد، في البيت لم يكن هناك ما يتحرك سوى سعاد، وكل شيء آخر كان جامدًا، في الحديقة راقبت كل شيء يتحرك. فكّرت ماذا يعني حزني وألمي لكل هؤلاء؟! لم تحاول أن تجيب على السؤال، ولكن السؤال ذاته أراحها، لأنها عرفت أن الحياة لا تنتظر أحدًا. التفتت إلى سعاد التي تنظر إلى البِركة، وقالت: «لا أعرف ما الذي كان سيحصل لي من دونك». ردّت سعاد: «ما هذا الكلام أنا لم أفعل أي شيء، نحن أختان، أريد أن أخدمك بالأفراح». قالت هالة: «وقوفك إلى جانبي لن أنساه طوال حياتي، أنت أكثر من أخت». قالت سعاد: «لا تُخجليني، غيّري الموضوع... متى ستعودين إلى عملك؟».

عندما سمعت السؤال تذكرت عامر وما فعله بها، وجدت نفسها تغلي من الداخل، فعودتُها إلى العمل تعني ببساطة أنها قد تلتقي به، وهو ما لا ترغب فيه على الإطلاق، حتى إنها لا ترغب أن تراه من

بعيد. قالت: «لا أرغب بالعودة له نهائيًا». قالت سعاد: «صحيح أني لا أعمل ولكني أعرف أن العمل يساعد على الخروج من الأزمات، ومهنتك ليست ملك أحد، فما تخافين منه ستواجهينه اليوم أو غدًا». عرفت سعاد أن من تسبب بكل هذا الألم هو زميل لها في المهنة، لذلك قالت كلماتها الأخيرة. قالت هالة: «لست جاهزة للعودة للعمل». قالت سعاد: «تعودين عندما تجدين نفسك جاهزة». أخذت سعاد بيدها يومًا بيوم، كانت سعيدة من أجل هالة ومن مقدرتها الذاتية على إخراجها من الحالة التي بدت في كثير من الأوقات أنها لن تخرج منها أبدًا، شعرت بحب غامر تجاهها، شعرت في تلك الأوقات أنها أقرب إنسان إليها، أقرب حتى من زوجها وأولادها.

خلال تلك الأسابيع التي عانت هالة انهيارها العصبي، لم تكن ترى سوى سعاد، والآخرون تتواصل معهم على الهاتف، لم ترغب في رؤية أحد، خافت أن ينفتح جرحها من جديد. شعرت أنها تتحسن بسرعة، أخذت تتوسع مسافات خروجها المشترك مع سعاد من المنزل، من الحديقة إلى سوق الحمراء وسوق الصالحية القريبين من المنزل، إلى دمشق القديمة، إلى وادي بردى. راقبت سعاد تحسنها كل اليوم من خلال انعكاسها في ضحكاتها، ولون

وجهها، ولمعة عينيها. صحيح أنها عانت انتكاسات بين فترة وأخرى، ولكنها في كل مرة تأتي أخف من المرة السابقة، وهو ما اعتبرته سعاد دليل شفاء، فهي تعرف أن الشفاء من الحب هو أصعب أنواع الشفاء. وجدت هالة نفسها متعلقة بسعاد بشدة، كانت تنتظر طلتها طوال الوقت، شعرت بأنها غير قادرة على الاستغناء عنها، وأن هناك شيئًا قويًا يربطها بها، شيء لا تعرف ما هو، لكنه شيء يستلبها تجاه سعاد، ليس لأنها وقفت معها في أزمتها، إنّ هناك شيئًا قويًا وعميقًا يجعلها تتعلق بسعاد، شعرت بالراحة كلما رمت نفسها على صدر سعاد وأخذت تبكي، راحة لم تكن تشعر بها عندما تبكي وحيدة.

أخذت تحس بالمتعة وهي تضع رأسها على صدر سعاد اللدن، وحركة يد سعاد على ظهرها تُشعرها بالإثارة، لم تفهم ما الذي يحصل معها، ومن أين تأتيها هذه المشاعر. كانت تُكذّب أحاسيسها، وعندما تتكرر الحالة تعود لتشعر بالمتعة والإثارة، حتى أن جسدها بات يرتعش وهي على صدر سعاد. بذلت جهدًا كبيرًا لإخفاء ما تشعر به، اعتقدت أن سعاد لم تنتبه. أحست سعاد بكل ما ينتاب هالة، وبما تشعر به من ارتعاش جسدها، ومن حركة خديها المتكررة يمينًا ويسارًا على ثدييها، تسربت الإثارة إلى سعاد

وحركت رغبتها أيضًا، لكنها لم تتجرأ على تجاوز هذه الاحتكاكات المثيرة التي تمنحها المتعة، وخافت إذا ما توغلت أكثر، أن تجفل هالة وتخسر متعها الصغيرة التي أحبتها، لم تعد سعاد تكتفي بهذه المتع الصغيرة، رغبت بشدة في اختبار متعٍ أعمق.

رفضت هالة طوال فترة مرضها، أن تقوم سعاد بمساعدتها على الاستحمام، حتى أنها كانت تغلق الباب على نفسها، وتطلب من سعاد أن تنتظرها لتنهي حمامها، خوفًا من أن يحصل معها أي طارئ في الحمام. لم تفهم سعاد لماذا ترفض هالة أن تساعدها في الاستحمام، لم تلح على ذلك، تركتها على راحتها. كانت هالة تحسّ أن هناك مكانًا في ظَهرها لا تستطيع الوصول إليه، وتحتاج أن تفركه وتحكه، استعانت بليفة ذات يد، لكنها لم تستطع أن تضغط بالقوة التي تريحها على المكان الذي يستعصي على يديها الاثنتين، إنه المكان الأبعد عن الأيدي. لم تطلب من أحد سابقًا أن يفرك لها ظهرها، حتى أنها رفضت أن تقوم أختها فداء بذلك قبل أن تغادر إلى أميركا. شعرت أن حاجتها لحك ذلك الجزء من ظهرها ملحّة أكثر من أي وقت مضى، عندما أخبرت سعاد بذلك، لمعت عينا سعاد في تلك اللحظة. قالت لها: «ما المشكلة؟! عندما تستحمين أنا أفرك ظهرك». قالت ذلك وهي تعرف أن هالة طوال الأسابيع الماضية وفي فترة مرضها الأشد رفضت أن

تساعدها في الاستحمام. لم تتوقع أن تقبل، استغربت سعاد عندما قالت هالة: «أكون ممنونة لك». كانت هالة سعيدة بأنها ستحصل على ما يُلح عليها منذ زمن بعيد، لكنها لم تميّز ما الذي يُلح عليها رغبتها أم حكُّ ظهرها. شعرت أن ذلك سيكون مريحًا لها، لا لإزالة الأوساخ الخارجية فحسب، بل لتزيح شيئًا ما في داخلها أيضًا. لم تتوقع ما ينتظرها، وكلما خطرت لها الفكرة، أبعدتها سريعًا ونفضت رأسها لطردها. قالت هالة بحماس: «أنا جاهزة».. لم تنتظر، فهي لم تكن بحاجة إلى إشعال حمّامها لتسخين المياه، في الصيف تتكفل الشمس بتسخين الماء الذي تستحم به في ذلك الوقت من السنة. قالت لجارتها: «سأحضر ملابسي، وسأناديك عندما أحتاجك لفرك ظهري»..

جلبت هالة ملابسها من الخزانة، ابتسمت لجارتها سعاد وهي ذاهبة إلى الحمام. أغلقت الباب دون أن تقفله حتى تتمكن سعاد من الدخول عندما تناديها. كانت سعاد في غاية الاضطراب، عندما خطرت لها الفكرة، وهي المرأة المتزوجة، شعرت بنفسها ترّتعد، مع أنها كثيرًا ما خطرت لها، وكلما زادت إصرارًا على تنفيذها، أصبحت أكثر اضطرابًا. عندما سمعت صوت هالة يناديها كانت ترتجف تمامًا. هي المرّة الأولى التي ستُقْدم فيها على هكذا فعل، ولا تعرف ماذا ستكون ردّة فعل هالة، حسمت أمرها بأنها ستقوم

بما قرّرته مهما كانت النتائج، حتى لو خسرت هالة. هذا الحسم لم يجعلها أقل اضطرابًا بل أكثر. دخلت الحمام، هالة تقف تحت الدوش، تدير ظهرها لها وترغي الصابون على الليفة في يدها. نظرت سعاد إلى هالة مندهشة، نظرت إلى ظهرها العاري الذي تراه لأول مرة، كان خصرها ساحرًا، وتكوّر ردفيها مثيرًا، وانسكاب فخذيها متناسقًا بشكل رائع مع الردفين اللذين يرتكزان فوقهما كثمرة ناضجة، أحسّت وهي تنظر إلى شعرها المبلول وإلى التناسق الذي أمامها، أنها تنظر إلى حورية خارجة لتوّها من البحر، لم تعرف من قبل أن جسد هالة بهذا الجمال. شعرت سعاد بإثارة عارمة، التفتت هالة إليها وقدّمت لها الليفة دون أن تقول أي كلمة، أمسكت سعاد الليفة بيد مرتجفة وأنفاس متقطعة، أخذت تمر بها ببطء على ظهر هالة، في المكان الذي طلبت هالة أن تفركه. أمسكت بيدها الثانية كتفها، أخذت توسِّع من مكان مرور الليفة على الجسد الذي بهرها، إلى أعلى الظهر وإلى الأسفل وصولًا إلى الردفين، أحست بالإثارة من انزلاق الصابون على الجسد اللدن، وعندما تنهدت هالة تنهيدة خفيفة، عرفت أنها تحس بالإثارة أكثر منها. فجأة، أسقطت سعاد الليفة من يدها. لم تنحنِ لالتقاطها، بل استمرّت تفرك ظهر هالة بيدها العارية، استغربت هالة، لكنها لم تطلب منها

التوقّف، ولم تنبس بأي كلمة. أخذت سعاد توسّع من حركة يدها على ظهر هالة التي شعرت بالكثير من الاضطراب والإثارة، لم تعرف ماذا تفعل، شعرت أنها مشلولة تمامًا، وعندما لمست سعاد مؤخرتها، أصبح اضطرابها وإثارتها غير محتملين. عرفت سعاد أن هالة استسلمت ولم تعد تملك القدرة على الرفض، فراحت تغوص في جسد هالة، ما جعلهما كلتيهما في حالة من الغليان والنشوة.

تقصّفت رُكبتا هالة ونزلت عليهما على أرض البانيو، فنزلت سعاد معها وهي ملتحمة بها ولم تكن رُكبتاها أقل تقصفًا.. الحمام الصغير لم يعد قادرًا على احتواء الرغبات المتأججة. نشّفتْ سعاد هالة ونشّفتْ نفسها وأسندت نفسها وهالة وخرجتا من الحمام.

استلقت هالة على السرير، وكانت سعاد تتأملها بالشبق ذاته، ثم انقضّت عليها مستبيحة جسدها كله. وما هي إلا لحظات حتى ارتجّ جسد هالة بقوة وصرخت صرخة المتعة المدوية التي هزت جدران الغرفة، في الوقت ذاته تقصفت ركبتا سعاد وارتجف جسدها وسقطت على وجهها منهكة فوق هالة.

صُدمت هالة من استسلامها، لكنها لم تشعر بالضيق أو بالنفور من سعاد. تركتها التجربة ذاهلة لعدة أيام، لم تعرف كيف تفجَّرَ جسدُها بهذه الطاقة من المتعة التي لم تعرفها يومًا، اكتشفت قدرة جسدها على

الانتشاء في كل مكان لمسته سعاد، كأنها تتعرف على جسدها من جديد، لم تعرف أن الجسد يمنحها كل هذه المتعة، وكل هذا الاسترخاء الجميل. لم تفكر هل ما حصل صحيح أم خاطئ، لم تفكر إذا كان حلالًا أو حرامًا، كانت مأخوذة بجسدها الذي خرج عن رقابتها وعبّر عن نفسه في أول احتكاك كامل مع جسد آخر. لم يمسّ أحد جسدها قبل أن تستبيحه سعاد، كانت قد جربت بعض الاحتكاكات بالصدفة مع رجال شعرت بالإثارة، حتى أنها بللت نفسها بسوائلها في بعض المرات، خاصة تلك المرات التي احتك جسدها بجسد حسني فاضل، والتي بقيت تتذكرها حتى بعد أن حصلت بوقت طويل. غير ذلك، لم يقترب أي إنسان آخر، رجل أو امرأة من جسدها طوال السنوات الخمس وثلاثين من عمرها بعد أن تجاوزت طفولتها، حصنت جسدها، وربت ذاتها على احتقار الجنس، والقرف منه، وقد نجحت خلال السنوات المنصرمة من عمرها. لم تتوقع أن تسقط كل التحصينات دفعة واحدة تحت ضربات أصابع سعاد وشفتيها اللتين اجتاحتا جسدها كاملًا، شيء لم يحصل معها من قبل، ولم تشعر الشعور الذي عرفته في تلك الظهيرة الصيفية، لقد فتحت لها تلك التجربة نفق الجنس الممتع، عرفت من خلاله أنها امرأة شبقة، وهو الشيء الذي احتقرته في النساء الأخريات.

لم تكرر تلك التجربة مع سعاد، ولكنها لم تعد بعدها مثلما كانت قبلها، هناك شيء داخلها قد تغير مرة واحدة وإلى الأبد. لم تكن سعاد أقل صدمة من نفسها، لقد كانت متعة غير متوقعة وغريبة. لم تعرف سعاد لماذا قامت بذلك، هل لأنها شاذة؟! فهي لم تكن يومًا كذلك، ولم تملك مَيلًا تجاه النساء يومًا، تزوجت وهي في الخامسة عشرة من عمرها، لم تكن قد عرفت الحب بعد، مارست الجنس بألم في البداية، وكعادة بعد ولادتها الأولى، لكنها لم تشعر بحريق الجنس إلا عندما وقعت في الحب المحرم، الحب الذي لا يزال يحرقها. فهي لم تشعر بمَيلها إلى النساء مع أنها في منتصف الأربعينات من عمرها، لو كانت كذلك، لظهر عليها شيء من ذلك سابقًا. فسّرت الأمر بأنه الرغبة في التجريب في هذه المرحلة من سنها القلقة، السن الذي يُسمَّى عند المرأة «سن اليأس». شعرت أنها أرادت تجديد حياتها عبر هذا التجريب، لكنها ما كانت لتُقْدم على ما أقدمت عليه، لو لم تشعر بالحب تجاه هالة، مشاعر حب غريبة، حب ليس بعيدًا عن الرغبة الجنسية، التي بدأت تشعر بها عند احتضانها لهالة في أزمتها، والتي شاهدت ما يشبهها عندها، كل شيء دفعها إلى تجريب ما خطر لها. كانت تجربة ممتعة بالنسبة لها، ولم تقلَّ متعتها عن أجمل حالات التألق الجنسي التي

شعرت بها في حياتها. لم تندم على ما فعلته، لكنها قرّرت ألّا تكرر ما فعلت مرة أخرى، لا مع هالة ولا مع غيرها. أصيبتا بإحساس الخجل تجاه بعضهما، وتوقّعت كل منهما أن يؤثر ما جرى على علاقتهما التي كانت في أحسن حالاتها. لكن عندما تجرأت سعاد وعادت إلى بيت هالة في اليوم التالي، خفضت رأسها لتنظر إلى الأرض. عندما فتحت هالة الباب وشاهدت سعاد، خفضت هي الأخرى رأسها، رفعتا رأسيهما، نظرتا إلى بعضهما، ابتسمتا، دخلت سعاد بكل حيويتها، وكأن ما جرى لم يكن سوى حلم حلِمته كل واحدة منهما وحدها، لم تتطرقا إلى ما جرى، كأن شيئًا لم يكن. عادت العلاقة إلى سابق عهدها، لكن هالة تغيرت.

عادت الحياة إلى طبيعتها، رغم الانكسار والتحول الذي أصابها. كانت وحيدة، وعرفت أن لا أحد يشعر بها، سوى جارتها سعاد. لقد مرت أزمتها التي كادت تودي بحياتها، دون أن يشعر أحد من أهلها. عرفت أن البشر مُنشغلون بأنفسهم، لم يعد أحد يهتمّ بأحد. صحيح أن أختها هدى كانت تتصل بها، بل تزورها، لكنها لم تنتبه إلى معاناة هالة من انهيار عصبي وأزمة نفسية لم يكن يظهر لها نهاية. أخفت هالة ما هي عليه، لكنها لم تكن ناجحة في هذا الأمر دائمًا، ساعدتها سعاد في ذلك، لكن لو نظرت هدى إلى وجه أختها

وعينيها الحزينتين، لعرفت ما بها دون أن تقول أي كلمة. كانت تأتي مسرعة من مدرستها القريبة من بيت هالة لعدة دقائق، وتركض مسرعة إلى أولادها الصغار في بيتها في ركن الدين. تقوم بزيارتها بدافع الواجب، وهي مشتتة لا ترى أي شيء، ولم تنتبه إلى مرض هالة. كانت راضية عمّا تقوم به، ولم تكن هالة تُنبهها. كانت تعرف هموم أختها، وتعتبر أنها ليست بحاجة لأن تزيد عليها همومها.

شغل حسني فاضل بال هالة في أزمتها أكثر من أي شيء آخر، فكّرت به طوال الوقت، ألح عليها بطريقة غريبة. تمنت لو أن الخلاف والقطيعة بينهما لم يحصلا، لقد شعرت أنها بحاجة له كما لم تكن بحاجة إلى شخص آخر. فكّرت كثيرًا في الاتصال به، ولكنها لم تستطع، لأنها هي من تسببت بالقطيعة، فعلت ذلك لأنها شعرت أن استمرار العلاقة مع حسني سيُؤثر على علاقتها مع عامر، حتى بعد أن أعلن لها عامر عن حبه، ووافقته عليه، كانت تقضي وقتًا طويلًا مع حسني، ولم تشعر بنفسها قادرة على قطع علاقتها معه. شعرت أنها بحاجة له، كرّرت له: «أنت شخص مهمّ بالنسبة لي». كان حسني يضحك من التعبير ولا يفهم ماذا تقصد بمُهم، ويشعر أنها كلمة بلا معنى، يسمعها ويتجاوزها وهو يهز برأسه. عندما افتعلت المشكلة معه، كانت بين خيارين، أن تقطع العلاقة

معه، أو أن تقول له إنها على علاقة مع عامر، أرعبها الخيار الثاني وشعرت أن قلبها يقع من مكانه، وشعرت أنها تحتمل أن يعرف كل العالم، ولكنها لا تحتمل أن يعرف حسني، هناك ما يحرّك مشاعرها تجاه حسني، وهناك ما يحرّك مشاعره تجاهها، كانت تعرف ذلك كله، وتشعر أن اعترافها لحسني بعلاقتها بعامر هو خيانة لهذه المشاعر التي لا ترغب في اختفائها. كانت تعرف رغم مشاعر الحب تجاه عامر، أن جزءًا أساسيًا من هذه المشاعر اخترعته من أجل الهروب من حسني نفسه. شعرت بالندم لأنها افتعلت معه تلك المشكلة التي أدت إلى القطيعة، لأنها لا تريد أن تشعر أن حسني له علاقة من بعيد أو من قريب بنهاية أزمتها مع عامر، بصرف النظر عن المصير الذي ستكون عليه هذه العلاقة. تمنت لو كان معها في أزمتها، فهو الوحيد القادر على إخراجها من حالاتها الصعبة. أرادت ذلك، لكنها ندمت عليه، فهي حافظت على علاقتها مع حسني طوال علاقتها مع عامر، حتى عندما احتج عامر على تلك العلاقة، قالت له بوضوح: «هذه العلاقة خارج النقاش». قبِل ذلك على مضض، لم يفهم سرّ هذه العلاقة، لم يشكّ في حبها له، وظلّ يعتبر تمسكها بعلاقتها مع هذا الرجل الذي لا يجمعها معه أي جامع، لا في الطبيعة ولا في القناعات، مسألة في غاية الغرابة، لم يوافق عليها،

لكنه لم يعد يتطرق لها. عندما يراهما معًا، يغلي ويكتم مشاعره، رغم أنهما التقيا كثيرًا، عندما يكون أحدهما مع هالة، إلا أنهما لم يُنمّيا هذه العلاقة على الإطلاق.

ندمت هالة على المشكلة التي افتعلتها مع حسني بسبب كلمة قالها حول المحجّبات، كأنها انتظرته على هذه الكلمة أو غيرها لتفتعل ما افتعلت. كانا معًا في سوق الصالحية، يشاهدان عروض التنزيلات، منذ تعمقت علاقتهما تحب أن يختار حسني لها ملابسها، حتى في أفضل أوقات علاقتها مع عامر، كان حسني هو من يختار لها ملابسها. كانت تحب أن تُجرّب الملابس أمامه وتقول له ما رأيك؟ وتحب أن ينظر إليها، يتفحصها، وتكون سعيدة ومستثارة عندما يقول لها: «دوري». حتى ينظر إلى جسدها من خلال قطعة الملابس التي ترتديها، كان ينظر لكل قطعة من جسدها، هي تعرف ذلك وتحبه، وتعطي تجربة الملابس الجديدة المبرر لهذه النظرات. كانت تدور أمامه وهي سعيدة وهو يتأمل جسدها، تستمتع بعينيه تفترسان جسدها، وكثيرًا ما تُجرب الملابس في المحلات من أجل أن ترى عينيه تتأمّلان جسدها وتلتهمانه، وجسدها ينتشي بهذه النظرة التي تشعر أنها تُعريّها. عندما ينظر إليها تشعر أن ملابسها تختفي، ويصبح جسدها عاريًا. كان جسدها

عطشًا لتلك النظرات، ولأكثر منها، أما جسده فكان عطشًا للمسات، وهو ما كان يحصل عندما يخرجان من المحل، حيث تزداد احتكاكات الصدفة بين جسديهما، ما يزيدها إثارة ومتعة. كانت سعيدة بذلك الطقس، حتى أن الذهاب إلى السوق وتجربة الملابس بصحبة حسني أصبح تقليدًا أسبوعيًا. يخرجان من القصر العدلي سويًا، يتسكعان في السوق ساعتين إلى ثلاث، يأكلان سلطة الفواكه عند محل «أبو شاكر» في الصالحية، أو عند محل رامز في شارع بغداد، إذا رغبا بأكل شيء خفيف. أما إذا رغبا بوجبة طعام، فيذهبان إلى مطعم الشاميات أول شارع أبو رمانة، أو إلى المطعم الصحي في الصالحية. بعد ذلك يوصلها إلى بيتها مشيًا عندما يكونان قريبين منه، حتى أنهما في الأجواء المناسبة، كانا يذهبان إلى السوق منه إلى بيتها مشيًا على الأقدام، ليبقيا معًا أطول فترة ممكنة.

في ذلك اليوم، فكّرت بعلاقتها بعامر، والأزمة في ذُروتها، فكّرت بافتعال مشكلة مع حسني منذ أيام، وهي تنتظر الفرصة، في ذلك اليوم كانت سارحة طوال الوقت، سألها في القصر العدلي: «ما بك؟». قالت: «متعبة قليلًا». قال: «أوصلك إلى البيت، إذا كنت ترغبين؟». قالت: «لا أريد الذهاب إلى البيت، لنذهب إلى السوق، إذا لم تكن مشغولًا». وافقها، سارا مشيًا إلى سوق الصالحية، عرف

أنها ليست على ما يرام، سألها مرة أخرى عمّا بها، قالت: «لا شيء». ولم يكرر السؤال، انتبه أنها تنظر إلى واجهات المحلات بعيون غائمة ولا تراها. حاول أن يخرجها من صمتها، كان السوق يعج بالمحجبات، نظر حوله، قال: «كلما زاد عدد المحجبات، زاد عدد العاهرات، أصبح الحجاب أداة لإخفاء مهنة الدعارة، أغلب العاهرات يضعن الحجاب».

كانت تعرف أنه يصف واقعًا، وأنه لا يقصدها بأي شكل من الأشكال. استغلت كلامه، انتفضت، تغير لونها وقالت: «ماذا تقصد؟! المحجبات عاهرات؟ هذا يعني أني عاهرة». قال: «اهدئي، ماذا أصابك، أنت تعرفين أني لم أقصد ما تقولين. قلت أغلب العاهرات أصبحنَ محجبات، ولم أقل إن أغلب المحجبات عاهرات». قالت بحدة: «تريد أن تتراجع عن كلامك». قال: «لا، لا أريد أن أتراجع عن كلامي، وأنا مقتنع بما قلت». قالت بسخط: «يعني أنت مقتنع أني عاهرة». قال محاولًا تهدئتها: «لا حول ولا قوة إلا بالله، لم أقل هذا الكلام، ولم أقصده، ونحن لا نناقش موضوعًا شخصيًا». قالت محاولة استفزازه: «أنت تتهرب من الموضوع». عرف أنها تُماحكه، وأن الحوار بينهما، حوار طرشان، قال لها: «ما بك، خلص، مثلما تريدين، فالكلام معك غير مفيد». قالت وقد

علت وجهها تكشيرة وغضب: «لا يكفي أني عاهرة، ولا أفهم أيضًا، هكذا أنا بالنسبة لك... الحق عليّ أنا، أنا رايحة». طفح الكيل عند حسني، قال بنفاد صبر: «الله معك».

سارت في طريق بيتها القريب باتجاه ساحة عرنوس، وسار هو بالاتجاه المعاكس، المؤدي إلى ساحة يوسف العظمة. وخلال الأشهر اللاحقة، لم يتصل أحدهما بالآخر، ولم تجمع بينهما الصدفة في القصر العدلي، اشتاقت له واحتاجت له في أزمتها، فكّرت كثيرًا أن تتصل به، حملت الهاتف الأرضي عشرات المرات وكادت أن تتصل، وتفقدت هاتفها المحمول عشرات المرات بحثًا عن اتصال منه. عندما يرنّ هاتفها الأرضي أو المحمول تتمنى أن يكون هو المتصل، كل مرة كانت تصاب بالخيبة. لم تجرؤ على الاتصال به، رغم أنه يلح عليها، تركت الأمر للصدفة. حاولت أن تصنع هذه الصدفة بعد أن تحسنت صحتها، وتجاوزت أزمتَها لحد كبير، عادت إلى عملها، وباتت تنتظره، كثيرًا ما تقف بالقرب من الباب الرئيسي للقصر العدلي وتنظر في وجوه الداخلين لعلها تجد حسني بينهم، لكن ذلك لم يُجْدِ نفعًا، وجدت نفسها تُصادف كل من لا تنتظر.

كانت تبحث عن حسني عندما شاهدت عامر يدخل القصر العدلي، انتفض جسدها، شعرت برغبة في التقيؤ، لم تعد قادرة على

الوقوف، استندت على صديقتها، وقالت: «أشعر بالدوار». أسندتها صديقتها، قالت هالة: «أرجوك، أوصليني إلى التكسي». قادتها صديقتها وهي تقول لها: «ما بك؟! ما الذي جرى؟! منذ قليل لم يكن فيك شيء، هل آخذك إلى الطبيب؟». قالت هالة: «لا أريد الطبيب، أريد أن ارتاح لا غير». قالت صديقتها: «سأوصلك إلى البيت». قالت هالة وكانتا قد أصبحتا أمام القصر العدلي: «لا، اذهبي إلى عملك وسأكون بخير عندما أرتاح». ما أن صعدت إلى السيارة وأصبحت وحدها، حتى انفجرت في البكاء، حاول السائق تهدئتها من دون فائدة. وصلت إلى بيتها وهي ما تزال تبكي، دخلت وصفقت الباب وراءها. سمعت جارتُها سعاد صوت صفق الباب من شقتها. استغربت، فليس هناك سوى شقتهم وشقة هالة في الطابق، وهالة غادرت منذ حوالي الساعة، وليس من عادتها أن تعود بهذه السرعة، فقد شربتا القهوة معًا منذ قليل، وقالت إنها ستتأخر.

وضعت سعاد حجابها على رأسها، حملت مفاتيح بيتها، وخرجت لتقرع جرس بيت هالة. عندما سمعت هالة صوت الجرس قرّرت ألّا تفتح الباب، ولكن أمام إلحاح الواقف على الباب، قرّرت هالة أن تنظر في العين السحرية، لترى الطارق. شاهدت سعاد فسارعت لفتح الباب، وألقت بنفسها على صدر

سعاد وهي تقول: «لقد شاهدته ولم أحتمل». ربتت سعاد على كتفها وقالت: «لا بأس عليك، طبيعي أن تشاهديه، وإن لم تشاهديه اليوم سوف تشاهدينه غدًا، لا داعي لكل ذلك». عرفت سعاد أنها قد تجاوزت أزمتها، صحيح أنها تبكي، لكنها اعتبرت بكاءها دليلَ شِفاء، مقارنة بالحالة التي كانت عليها في ذروة أزمتها. هدأت هالة قليلًا، أبعدت جسدها عن سعاد، دخلتا لتجلسا في الصالة، وهالة ما تزال تشهق بفعل بكائها. كانت المرة الأولى التي تتلامسان فيها جسديًا بعد ذلك اليوم الذي جرى فيه ما جرى. في هذه المرة لم تشعر أي منهما بالإثارة التي شعرتا بها قبل ذلك اللقاء العاصف. لم تناقشا ما جرى، اعتبرتا أن ما جرى أصبح خلفهما، هذا ما تأكد لهما في هذه الملامسة التي لم تكن سوى ملامسة تضامن عاطفي.

عادت هالة إلى القصر العدلي لتنتظر صدفة أخرى تجمعها بحسني، وهي متأكدة أن هذه الصدفة ستأتي، تستعجلها لأنها تحتاجها أكثر من أي شيء آخر. طال انتظارها أكثر مما ينبغي، لامته لتأخره في الظهور في حياتها، وعادت للَوم نفسها على ذلك اليوم الذي افتعلت فيه تلك المشكلة التي تسببت في هذه القطيعة الطويلة. عندما ملّت من الانتظار وأخذتها أفكارها بعيدًا، لعله أصابه مكروه خلال أشهر القطيعة، خافت عليه، خافت أن تكون قد

خسرته نهائيًا، فكّرت في كيفية الاطمئنان عليه، لم يكن هناك أصدقاء مشتركون، فقلقت أكثر، لم تنتبه إلى ذلك في السابق، ولن تستطيع أن تذهب إلى بيته لتطمئن عليه، فهي غير قادرة على الاتصال تلفونيًا، وخائفة من ذلك، فكيف تذهب إلى بيته، عرفت كم هي جبانة، ولا تستطيع أن تقوم بما عليها أن تقوم به خوفًا من أن يصدّها. كانت أفكارها مشوّشة بشأنه. عندما شاهدته يدخل القصر العدلي، قفز قلبها من مكانه فرحًا، وانفجرت أساريرها، وكادت تركض باتجاهه. لكن عاد قلبها ليخفق خوفًا، ماذا لو تجاهلها؟ ماذا لو لم يرغب في الحديث معها؟ ماذا لو كان قد حذفها من حياته بفعل حماقتها؟ فكّرت بألفِ ماذا؟ وهو يقطع الخطوات باتجاهها، تأمّلته قبل أن يشاهدها، وخافت من ألّا يبادر إلى الحديث معها، وهي لم تفكر أن تبادر إلى الحديث معه. تتأمله وكأنها لم تره منذ سنوات طويلة، اشتاقت له كثيرًا، خفق قلبها كما لم يخفق من قبل، خفق بين سعادة اللقاء وخوف الصد، رغبت في الركض باتجاهه وإلقاء نفسها على صدره، لم تفعل ذلك ولم تكن تستطيع أن تفعل. لم يَطُلْ انتظارها، عندما شاهدها، ارتبكت، وأخذت تعدّل حجابها على عادتها بفعل هذا الارتباك. مشى اتجاهها، زاد خفقان قلبها، لم تطمئن حتى عندما شاهدت تلك الالتماعة في عينيه، وخافت أن

يكون ما تشاهده مجرد وهْم. عندما عرفت أنه يتجه نحوها، ابتعدت قليلًا عن صديقاتها اللواتي تقف معهن حتى يعرف أنها لا تتجاهله. عندما وصل عندها، قال مباشرة حتى لا يُفوّت الفرصة التي تأخرت: «كيف حالك؟». قالت وهي ما تزال تعدل حجابها ارتباكًا وقد ظهر احمرار الخجل على وجهها: «الحمد لله». قال: «هناك عمل صغير أقوم به، وسنخرج معًا، إذا لم يكن عندك ارتباط».

كانت مستعدة للتحلُّل من أي ارتباط في حال وجوده، كان هو في تلك اللحظات ارتباطَها الوحيد، قالت: «أنتظرك هنا حتى تنتهي». قال: «لا، تعالَي معي». لم تُعلق، لم تعترض، لم تتمنع، وجدت نفسها تسير إلى جواره منقادة، مهما كان ما سيقول لها في تلك اللحظات، لم تكن لتقول له «لا». شعرت بالسعادة وهي تسير إلى جواره، منذ أشهر لم تشاهده، لقد اشتاقت إليه كثيرًا، افتقدته كثيرًا، وها هي تجد نفسها إلى جواره تسترق النظر إليه، بعد أن كادت تفقد الأمل. خلال دقائق انتهى من عمله، ولو لم ينتهِ، لتركه ومشى. قال لها: «هيا بنا». سارت إلى جانبه، خرجا من القصر العدلي إلى الكراج القريب حيث سيارته. عندما صعدا إلى السيارة سألها: «إلى أين تريدين الذهاب؟». قالت: «ليس مهمًا، إلى أي مكان تريد». احتار أين يذهب، لكنه أراد أن يذهب بها إلى المكان الذي يعرف

أنها تحبه أكثر من غيره، إلى ذلك المكان الذي كان كلما ذهبا إليه تقول له: «هناك بيتي، عند تلك البناية العالية مديرية مالية دمشق، بعدها بخمسين متر». هكذا قالت أول مرة وهي تشير إلى بيتها، وفي المرات التالية اكتفت بالقول: «هناك بيتي». وهو يهز رأسه موافقًا ومؤكدًا معرفته لبيتها.

في الطريق إلى جبل قاسيون المُطلّ على مدينة دمشق، استرقت هالة النظر إلى حسني أكثر من مرة، دون أن تنظر إليه مباشرة. وعندما ضبطها تنظر إليه، ارتبكت وأشاحت بوجهها جانبًا، ابتسم واستمر بالقيادة. لم يتبادلا الكثير من الكلمات في الطريق. عندما وصلا كان عدد الموجودين في الجبل قليلًا، فهي أول مرة يأتيان إلى المكان نهارًا، غالبًا ما جاءا ليلًا. في ذلك اليوم الشتائي الغائم، لم تمطر، كان البرد خفيفًا. عندما نزلا من السيارة أحست هالة بلسعة برد لذيذة على وجهها، لم تكن تريد شيئًا في العالم سوى البقاء معه، يكفيها أنهما تصالحا، رغم أنها لم تكن متأكدة من ذلك، فقد كانت طوال الوقت خائفة من اللوم الذي سيوجِّهه لها، ولم تكن تعرف بماذا تجيبه سوى الاعتذار عمّا بدر منها، أمِلَت أن يقبل اعتذارها. لم تكن تريد أن يعاتبها، كانت خائفة من العتب الذي قد يُفجر العلاقة من جديد، تنتظر الكلمات التي سيقولها بفارغ الصبر. نزلا

من السيارة، وقفا ينظران إلى مباني دمشق الممتدة تحتهما كرقعة شطرنج واسعة. كانا يحبان المدينة ويحبان الجو الشتوي الذي يغمرهما، ويحبان تفقُّد مدينة دمشق من هذا المكان بين فترة وأخرى، لكن أيًّا منهما لم يصعد منفردًا أو مع أي شخص آخر إلى هذا المكان منذ اختلفا قبل أشهر.

عندما وقفا جنبًا إلى جنب يطلان على المدينة، مدت يدها تشير باتجاه بيتها، قالت: «هناك بيتي». نظرت إليه، نظر إليها، ضحكا معًا، وهو ما كسر بقايا الجمود بينهما. شعر حسني وهو يُطلّ على مدينة دمشق بتناقض موقفه من هذه المدينة التي تمتد أمامه، شعر أنه يحبها كثيرًا لدرجة أنه لا يستطيع مغادرتها لفترة طويلة. ومن جهة أخرى شعر أنه يكرهها، لأنها تضغط على صدره بقوة، يشعر بها مدينة خانقة، تسرق أنفاسه. يكره المباني القذرة، وأبنية الاسمنت المتراكمة في كل مكان دون أيّ شكل جمالي، تراكم للبشاعة في كل أحياء المدينة البائسة والراقية. لم يكن يعرف هل هو يحب المدينة أم يكرهها. وهو يطل على المدينة التي تختلط مشاعره تجاهها، تحرك شيء في داخله، رغبة في البوح سيطرت عليه، هناك شيء ما يُطبق على صدره، يُشعره بالتعاسة، شيء لا يعرف ما هو، وهو غير قادر على الخروج من هذه الحالة، احتاج إلى البوح ليعرف لماذا

تجتاحه هذه المشاعر. استغرب من الحالة التي وصل إليها، لم يكن يتوقع أن يحصل له في الحياة التي عاشها ما حصل، ما الذي جرى ويجري؟! في كل مرة تأتيه هذه الحالة ويطرح السؤال ذاته، يحاول أن يُقنع نفسه بأنه صاغ لنفسه حياة متوازنة، ولكن هذا الوهم الذي كان يصدقه في بعض الأوقات، يتهاوى في أوقات أخرى. فحياته مدمرة، وقد تم تدميرها قبل سنوات طويلة، وما اعتبره توازنه، هو نفسه سبب دماره. إنه السجن الذي حمله وسامًا على صدره وأعطاه التوازن من خلال تقدير الآخرين لتجربته القاسية، لكن في الزنازين والأقبية تم تدميره. لقد دفع ثمنًا غاليًا، عشر سنوات في السجن، ليس بالثمن القليل، عشر سنوات من الألم والدمار لأنه حلم في أن يغير بلده نحو الأفضل. لا يعرف لماذا تأتيه ذكرى السجن في هذه اللحظة. عرف هالة منذ ثلاث سنوات، تجنب دائمًا الحديث عن السجن معها ومع غيرها، سألته عدة مرات عن تجربة السجن، رفض الرد على أسئلتها بعناد، تجنبها وتهرب منها.

في ذلك اليوم دق السجن رأسه كمطرقة، لقد تجنب التفكير به والحديث عنه منذ خروجه منه قبل خمسة عشر عامًا، لم يتحدث عن السجن سوى مع زوجته هيام، وباقتضاب، بعدها قرّر ألّا يتكلم عنه من جديد. كلما تحدث عن السجن شعر بألم شديد واقشعرّ

بدَنُه، لقد دمر السجن شيئًا ما في داخله وهو غير قادر على تحديده، كان يشعر بألم فظيع كلما تحدث عنه، أبلغ زوجته وأهله وأصدقاءه وأقاربه والمحيطين به، أنه لا يرغب بالحديث عن تلك التجربة، احترموا خياره. عندما عرض عليه صديقه إعارته رواية الكاتب الأمريكي اللاتيني ماريو بارغاس يوسا «حفلة التيس»، سأله عن موضوعها، قال له إنها عن الديكتاتورية والسجن، اعتذر وقال «شكرًا، لا أرغب في القراءة عن السجن». وعندما ألحّ صديقه، قال: «لا أحتاج لقراءتها، السجن والديكتاتورية، حفرا على جسدي وفي روحي ما يكفي». تجنب كل ما يُذكره بالسجن، لعله ينسى تلك التجربة. في بعض الأوقات خلال الخمسة عشر عامًا المنصرمة بعد خروجه من السجن، شعر أنه نسي تجربة السجن القاسية والمريرة، كان سعيدًا بذلك. في أوقات من أيام السنة هناك ما يجبره على تذكر السجن، خاصة وقت اعتقاله، فقد اعتُقل في أحب أوقات السنة إليه، اعتقل في الشتاء، في مثل هذا الوقت من السنة الذي يقف فيه هو وهالة وينظران إلى مدينة دمشق. قبل خمسة وعشرين عامًا، داهمت دورية المخابرات البيت الذي تَخفّى فيه بعد اعتقال مجموعته في الحزب. منذ ذلك الشتاء القاسي وطوال تجربة السجن كره الشتاء وهو أحبّ الفصول إليه، كره الفصول الأخرى، فليس هناك فصل

يمكن حبه في السجن. نخر البرد عظامه في فرع المخابرات الذي اعتقله، وزاد من هذا النخر التعذيبُ الدامي الذي تعرَّض له، لقد كرِه فصل الشتاء في ذلك العام، بقي يشعر بالبرد ينخر عظامه حتى بعد خروجه من السجن، الذكرى وحدها كانت تجعله يرتجف، بقي سنوات حتى تعافَى من هذا الشعور. قال يخاطب هالة وهو ينظر إلى مباني المدينة: «أتعرفين أني خلال عشر سنوات من عَيشي في هذا البلد لم أرَه؟ نُقلْت في شوارعه معصوب العينين». نظرت إليه مستغربة، لم تفهم كلماته، عندما التفت إليها، شاهد الاستغراب في عينيها، وهي شاهدت الحزن في عينيه. «لقد قضيت هذه السنوات من عمري في التنقل بين أقبية فروع المخابرات والسجون». حينها عرفتْ أنه يتحدث عن تجربته مع السجن، لطالما طلبت منه أن يحدثها عن السجن، كان يتشنج ويرفض بشدة، وها هو يتحدث وحده وبلا طلب منه.

ذكرى السجن أشعرته بالبرد ينخر عظامه، ارتجف، طلب منها أن يعودا إلى السيارة، لم تعارض. عندما أصبح داخل السيارة، قذف رأسه إلى الخلف وأرخى رأسه على مسند الرأس في السيارة وزاد ارتجافه، أدار محرك السيارة، وشَغَّلَ مُكيّفها حتى يشعر بالدفء، قال: «منذ خروجي من السجن تجنبت الكلام عن تلك

التجربـة المـدمرة. اعتقـدت أني بـذلك أتجـاوز التجربـة وقسـوتها وأشفى منها. عندما تم اعتقالي، لم يخطر لي، أني سأدفع ذلك الثمن الغالي لأني حلمت. لـم أعـرف أن ثمـن الأحـلام سيكون غاليًا إلـى هذه الدرجة. كنت طالبًا في كلية الحقوق، أرى الفرق المذهل بين ما أدرسـه مـن حقـوق وضـمانات قانونيـة للبشـر وحيـاتهم ومـا أراه في الواقع من انتهاكات، كنت على قناعة أن ما ندرسه ليس لهذه البلاد. حلمتُ أن يُشـبه الواقـع الكتـب التـي أدرسـها والكتـب التـي أقرأهـا، حلمـت بالعدالـة، حلمـت بالحريـة. لأني حـالـم وقعـت في الحـب، كانت هيام هي ابنة الحلم، صورته، تشبه أحلامي ببراءتها وعفويتها وحريتها، تلك الطالبة في كلية الصيدلة، المبتسمة والعابثة دومًا، فأر الروايات وكارهة كتب السياسة والأيديولوجيا.

كنـت في غايـة الحمـاس عنـدما عرفـت أن هنـاك مجتمعًـا مطلـق العدالة يمكن تحقيقه على الأرض، فكان عليّ أن ألـتهم كتـب ذلـك الحلم. عرفت الماركسية كحُلم للمظلومين والفقـراء والمقهـورين، وعندما عرفتها، حاولت نزعها عن كل الشوائب العالقة بها، عبر هذا النمـوذج أو ذاك، أختصرها بالعدالـة والحريـة. ولتحقيـق ذلـك كـان عليّ الانتقـال إلـى شـيء عملـي، البحـث عـن مجموعـة حالمـة مـن الشباب، فكـان ذلـك اللقـاء مـع وليـد الـذي عرّفنـي علـى أصـدقائه،

ودعـاني للانضـمام إلـى الحـزب. سـحرني العمـل السـريّ، نشـرات سريّة، صحف سرّية، تعـاميم سـريّة، علاقـات سـريّة، وأحـلام تكـبر يومًا بعد يوم. لم أعد أرى أمـامي سـوى الحلـم، لـم أشـعر بـالخوف من السـجن، رغـم معرفتـي أني مُعـرَّض لـه في أي لحظـة. كنـت علـى قناعة أن الحتمية التاريخية أقوى مني ومن السـجون ومـن السـجان، وأنها تحميني من الخوف ومن السـجن، طالمـا أنّ المسـتقبل لنـا لـن نخاف الزنازين المؤقتة، التي لن تزيدنا إلا إصرارًا. أيقنت أننا نصـنع التـاريخ والمسـتقبل، إذا لـم يكـن اليـوم، ففـي المسـتقبل القريـب والقريب جدًا. سيطرت غشاوة الحلم عليّ، أعمَتْ عينيّ، عصبة من الثوريين تستطيع اقتلاع الظلم وفتح أبواب التاريخ والمستقبل، ومـا تجربـة الثـورة الروسـية، أو تجربـة جيفـارا وكاسـترو في كوبـا، سـوى أمثلـة علـى صـناعة المسـتقبل والتـاريخ معًـا، كمـا جـرى في الصـين وفيتنام وغيرهـا وسـواها، المسـتقبل لنـا، لـيس هنـاك شـك في ذلـك. بعض التحليل العميق، وبعض المحترفين الثوريين، والتفاف شـعبي قادم لا محالة والتاريخ سيخضع لإرادتنا. أنا لا أقـول ذلـك سـاخرًا، كنت مقتنعًا حتى العظم بكل كلمة قلتها، انتظرت حصادَ نَتاج عملنـا التاريخي بين لحظة وأخرى. في ذلك الوقت وللآتي لا أملـك الكثـير من الوقت، لأن عنـدي مَهمّـات تاريخيـة في متابعـة صـناعة التـاريخ،

وفي توزيع مطبوعات الحزب الثورية التي تنخر جسد النظام البائد، وتصنع المستقبل، كان عليّ أن أقوم بكل المهمات دفعة واحدة.

تزوّجت من هيام رغم معارضة أهلها، تركتُ الدراسة الجامعية، قلتُ لا تتلاءم هذه الدراسة مع انشغالاتي، فهي تُعيقني عن صناعة التاريخ، وأنا لن أسمح لشيء أن يمنعني من صناعة التاريخ الذي ينتظرنا. حتى عند اعتقالي، كنت على قناعة أني سأخرج من السجن بأسرع مما يتوقع الذين زَجّوا بي فيه، فهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة في السلطة التي تعاني من مأزق يؤشر على الحالة الثورية المنتظرة، وتململُ الناس في الشارع مؤشر ثانٍ على الحالة الثورية، إنها مسألة وقت وينفجر الوضع وتتمّ الإطاحة بالسلطة ويتحقق الحلم.

عندما أتذكر هذه القناعات اليوم أبتسم بسخرية من أحلام الشباب وسذاجتها، لكني وقتها كنت مقتنعًا بها قناعة مطلقة، وعلى استعداد أن أدفع أي ثمن لتتحقق هذه الأحلام. اليوم، عندما أنظر إلى الخلف، أتساءل هل كان الحلم يستحق كل الثمن الذي دفعته؟! هل كان السجن عشر سنوات ثمنًا مناسبًا لأحلام ساذجة؟! هل يستحق تدمير الأحلام كل هذه القسوة؟! و.. ألم يكن لنا الحق في الحلم أصلًا؟! غيرها وغيرها من الأسئلة التي فجّرها السجن.

عندما اعتُقلت كان وهج الحلم ما زال يعمي عيني. أعادني السجن إلى أرض الواقع، اكتشفت الطبيعي، اكتشفت أننا مجموعة من طينة البشر ولسنا من طينة الملائكة، ومَنْ كنا ننظر إليه على أنه ملاك، عرفنا أنه بشر ولا يتوانى عن القيام بالصغائر، وهناك من أدهشَنا بملائكيته. عرفتُ وقتَها أن في الحياة مفارقات ومفاجآت مذهلة. عندما يُجبَر المرءُ على العيش مع آخرين وهم متلاصقون، يعرفهم أكثر من أنفسهم، يعرف اختلاجات أجسادهم وحتى رائحتهم الكريهة وعدد الاهتراءات في ملابسهم. وبسبب الفراغ الممتد إلى ما لا نهاية، يراقب كل التفاصيل الصغيرة، لأن الحياة في السجن هي حياة التفاصيل الصغيرة.

كنا نعتقد أن السجن سيكون مدرسة في الثورية وشَدّ العزائم، ولن يستطيع الجلاد أن يكسر عزيمتنا، فنحن ننتمي إلى المستقبل وهو ينتمي إلى الماضي، والذي ينتمي إلى الماضي سيزول قريبًا. ومنذ الساعات الأولى لوصولي إلى فرع المخابرات الذي اعتقلني، عرفت أن السجن الحقيقي يختلف تمامًا عن صورته الذهنية التي رسمتُها له. قبل دخولي السجن كنتُ أعتقد أنه لن يؤثر عليّ، وبعد خروجي منه، اعتقدت أنني إذا لم أتحدث عنه سأنسى تلك التجربة المريرة. لم أكن على حق لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية.

يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحًا لو أن السجن اقتطع فترة بسيطة من حياتي، أشهرًا قليلة مثلًا، ولكن حتى في تلك الحالة سيبقى وشم السجن علامة على روحي. عندما دخلت السجن قرّرت أن أصمد، وصمدت في الفترة الأولى، لكن السجن بعد سنوات دمر صمودي، وفي سنوات لاحقة دمّر روحي. صحيح أن مظهري بقي متماسكًا، لكن شيئًا داخلي انهار وأخذتْ روحي تتآكل. دخلت السجن معتقدًا أني أملك فائضًا من الوقت أستطيع معه أنْ استغني عنه من أجل حلمي وحلم المظلومين. لكن السجان لم يجعلني أدفع السنوات التي اعتقدتُ أنها فائضة في حياتي فحسب، بل جعلني أدفع زهرة شبابي في السجن اللعين. تجاوزتْ فترة اعتقالي أقصى تقديراتي، عند ذلك بدأت الخسارة ليس من عدد سنوات عمري الأساسية، وليس تلك التي اعتبرتُها فائضة فحسب، بل، كلما طال السجن أخذ يحفر في روحي وبدأت رحلة الدمار أيضًا، لم يعد تأثيره كميًّا، بل تحول هذا التأثير إلى تأثير نوعي، الشخص الذي يقضي عشر سنوات في السجن، يخرج شخصا مختلفًا عن ذلك الشخص الذي دخله. اعتقدت أن السجان يستطيع سجن الجسد ولكنه لا يستطيع سجن الروح، التي تبقى حرة رغم سجون الجلاد. صحيح أنه لا يستطيع سجن الروح، لكنه استطاع تدميرها بزمن

الاعتقال الطويل. نجح السجان في سرقة روحي. أشعر أن هناك هوة في حياتي، هوة عميقة من عشر سنوات دفن فيها السجان روحي، هوة واسعة ابتلعت الأحلام كما ابتلعت العمر، لا أحب تذكُّرَها. شكَّل السجن جزءًا أساسيًا من ذاكرتي، أين أهرب منها؟ ليس في العمر عشر سنوات كثيرة، فكيف إذا كانت السنوات التي خسرتها هي سنوات الشباب؟!

دخلت السجن وعمري ثلاثة وعشرون عامًا، خرجت منه وعندي ثلاثة وثلاثون عامًا. صرت لا أشبه نفسي، حتى العالم الذي كان قائمًا قبل أن أدخل السجن، لم أجده بعد أن خرجت. هرمت قبل الوقت، شعرت أن عمري تجاوز المائة عام، وأني قضيت في السجن دهرًا كاملًا، ليس فقط لأني خرجت ووجدت ابني قد بلغ عشر سنوات إلا قليلًا، وأن أبي قد مات وأنا في السجن، وان أمي باتت هرمة بما يكفي، وأن هيام تغيرت ملامحها أيضًا، وهناك شيء من براءتها قد اختفى، وأنا غزا الشيب رأسي. العالم الذي تركته خلفي لم يعد هو العالم نفسه، والدول التي كنا نريد أن نبني دولتنا على شاكلتها زالت عن الوجود لأنها افتقدت للحرية، سقطت أنظمتها تحت قوة الصرخات المطالبة بالحرية. لذلك عندما خرجت من السجن لم أكن قد خسرت عمري فحسب، بل خسرت

حلمي أيضًا. أصبحتُ رجلًا غريبًا عن العالم وعن أهلي وعن هيام وحتى عن نفسي، رجلًا مدمَّرًا بلا أمل، بلا حلم، بلا مهنة، وبلا شهادة جامعية. شعرت نفسي رجلًا سقط في هوة العدم التي لا خروج منها. جاء الكثيرون للتهنئة بالسلامة، البعض أعرفهم، والبعض نسيتهم، والبعض لم اعرفهم يومًا. سمعتُ الكثير من المديح والتضامن والشفقة، أما أنا فكنت غريبًا عن البطولة والمديح وعن الكلمات التي تُقال، السجين الذي يقضي فترة طويلة في السجن يحتاج إلى إعادة تأهيل ليتعرّف على العالم من جديد، وليعرف أنه لا يتشكل من الزنازين فقط، وحتى يعرف أن هناك أدراجًا وأبنية وأرصفة واتجاهات وسماء وجبالًا وأشجارًا ومروجًا خضراء وبشرًا وأطفالًا... ليس فقط زنازين وأرقام ومهاجع وأسِرّة للنوم وسجانين يصرخون طوال الوقت.

كنت أحتاج إلى فترة نقاهة لأعرف أنه ما زال هناك نساء في العالم، ولم يختفينَ خلال فترة اعتقالنا، وأننا نستطيع أن نراهنّ مباشرة وليس من خلال شبك الزيارة، أخوات وزوجات وأمهات معتقلين آخرين. لقد أفقدني السجن إنسانيتي وانتهك حياتي. أخطر ما في السجن هو انتهاكه لحياة السجين، انتهاك لخصوصيته، هناك دائمًا شخص ما مفروض عليك، سجناء آخرون يقيمون معك طوال

الوقت. وعلى المُنتهَك أن يحاول كسر هذا الانتهاك. لمواجهة الانتهاك كان علينا أن نُقلّص مساحات زنازيننا حتى نشعر أننا بشر، غطى كل واحد منا حيّزه الخاص بالبطانيات التي يملكها، أغلقتُ السرير العسكري على نفسي من كل الجهات، وحجبت نفسي عن الآخرين، لا أريد أن أراهم ولا أريد أن يراني أحد، ليس لأني أعاني من مشكلة معهم، بل لأني أشعر بالانتهاك وبانكشاف حياتي أمامهم. أكثر من ذلك، أصبحتُ لا أرى أي واحد من نزلاء السجن إلا بموعد مسبق، ودون موعد لن استقبله، رغم أن الجميع يقبع منذ سنوات في زنزانة واحدة، لم يدم الوضع طويلًا، بعد فترة لم يعد هناك أي معنى للاحتجاب، فتمّ إنزال الستائر التي تحجبنا عن الآخرين. إذا كانت الحياة خارج السجن تحتاج إلى الاحتيال عليها، ففي السجن يحتاج المعتقل إلى عشرات أشكال الاحتيال على الحياة وعلى نفسه، حتى يواصل حياته في زنزانة صغيرة مع آخرين طوال سنوات.

بعد كل هذه السنوات ما زال السجن يرزح على صدري، في كثير من الأحيان أشعر أني ما زلت مضغوطًا بين جسدَين في زنزانة محشورًا فيها مع عدد لا يحصى من المعتقلين تفيض عن قدرة الزنزانة على الاستيعاب، السجناء واقفون طوال الوقت، وعند

موعد النوم، لا تعود تتسع للواقفين. علينا أن ننام على سيف جسدنا دون أن نملك ترف الانقلاب على سيف جسدنا الثاني، وعلى الوضع ذاته علينا البقاء طوال الوقت. كان عذابًا حقيقيًا، في الشتاء تمنح الأجساد المتلاصقة الدفء لبعضها. في الصيف يتحول تلاصُق الأجساد إلى شيء لا يطاق، شيء مرعب، مقزز. الحرارة اللاهبة تفعل فعلها، رائحة عرق الأجساد تعبق بالأنف، واحدنا لا يطيق نفسه، فكيف يطيق الأجساد الملاصقة له من الأمام ومن الخلف، أجساد دبقة بملابس قذرة، البقّ يستبيح أجسادنا طوال الليل، من دون أن نملك القدرة على الحكِّ، لأننا محشورون بين بعضنا البعض، بعض المعتقلين لبسوا الملابس ذاتها لسنوات، روائح الموت تخيم على المكان طوال الوقت، هناك من قضى في أقبية المخابرات لأن صحتهم لم تتحمل الأوضاع المرعبة هناك. عذاب حقيقي طوال الوقت، الوقوف عذاب، النوم عذاب، دخول الحمام عذاب، تناول الطعام عذاب، التفكير عذاب، الخوف من المجهول عذاب. أشباه بشر تنظر إلى بعضها البعض بتوجس، لم نكن نعرف إلى متى سنبقى نعيش هذا الوضع المُزري.

عندما كانوا يأخذون معتقلًا، لا نعرف إذا كانوا سيعيدونه أم لا، وعندما لا يعيدونه، لا نعرف هل أُطلق سراحه، أم نُقل إلى فرع

مخابرات آخر، أم نُقل إلى سجن وارتاح من عذاب أقبية الفروع، أم قُتل؟ كل هذه الاحتمالات واردة، وهناك في تلك الأقبية الرديئة والمرعبة، البعض مات من دون تعذيب، الأقبية بحد ذاتها عذاب لا يُحتمل. لقد كسرتني أقبية فروع المخابرات، قبل أن أصل إلى السجن، عامان وثلاثة أشهر من الموت البطيء قضيتها في تلك الأقبية، عذاب يومي على مدار الساعة، شعرت أن أي مكان أنتقل إليه حتى لو كان الجحيم أرحمُ من تلك الأقبية. لا علاقة لنا مع العالم الخارجي سوى المعتقلين الجُدد الذين يحملون الأخبار الجديدة، لا يستطيعون الكلام إلا بعد خروجهم من الصدمة التي يصابون بها جرّاء دخولهم دهليز الجحيم الذي أوصلهم عندنا، وهناك من بقي يعاني من الصدمة طوال الوقت ولم يستطع الكلام.

عندما سمعت السجان ينادي اسمي من بين أسماء أخرى للمرة الأخيرة في ذلك القبو اللعين، خفتُ، أهي جولة جديدة من التعذيب، أم فرع مخابرات جديد، ومسيرة عذاب مُضنٍ جديدة. لم نعرف إلى أين يأخذوننا؟! قبل أن يضعوا عصابة على أعيننا عرفنا أنهم سينقلوننا إلى مكان آخر، لكن إلى أين؟ لم يقل لنا أحد أي شيء عن المكان الذي سنذهب إليه، غير مسموح للسجانين التحدث مع المعتقلين. طالت الرحلة، وعندما تجاوزت المدة

الزمنية المحددة لإمكانية قطع مسافة مدينة دمشق. قال أحد المعتقلين في الميكروباص الذي يقلنا بكلام قاطع: «نحن ذاهبون إلى سجن تدمر». عندما سمعت كلماته وقع قلبي من مكانه وخيم الصمت والترقب على الجميع.

كانت سمعة سجن تدمر أسوأ من أقبية المخابرات. كان استنتاجه صحيحًا، لقد سار الميكروباص مسافة طويلة بما يتجاوز مدينة دمشق بكثير، ازدادت حرارة الميكروباص ما جعل استنتاج المعتقل أننا ذاهبون إلى سجن تدمر استنتاجًا منطقيًا. خمسة عشر معتقلًا لا يعرفون أين يذهبون، والاستنتاج الذي رفضوه جميعهم كان حقيقة لا يمكن إنكارها. عندما أعلن السائق عن الوصول بعد أربع ساعات، كان الجميع على يقين أننا وصلنا سجن تدمر العسكري، دون أن يقول لنا أحد ذلك. سلّمَنا سجانون إلى سجانين، تلقانا الرعب من حفل الاستقبال بكيبلات الكهرباء. رؤوس منخفضة طوال الوقت، نأخذ الطعام تحت ضرب الكيبلات دون أن نرفع رؤوسنا، ممنوع النظر إلى فتحة السقف الذي يراقبنا السجان منه، ليعاقبنا بعد ذلك، ممنوع أن نرى وجوه السجانين، النظر إلى الأرض طوال الوقت، التعذيب لا يتوقف طوال الوقت. الموت يخيم على السجن الصحراوي الذي دفع الآلاف من

المعتقلين حياتهم فيه رخيصة واستجابة لدموية السجان المفوض بقتل هؤلاء البشر المعادين. يخيم الرعب على المكان، نتحسسه حتى في الهواء الذي نتنفسه.

عامان آخران من الرعب عشتهما في ذلك السجن الرهيب، الذي اكتشفت أنه أسوأ من الفروع الأمنية، الإنسان أرخص سلعة في ذلك المكان المنعزل، سلعة لا أحد يريدها، قتلُه يساوي قتل فأر أو أقل. عندما زارتني والدتي في ذلك السجن الصحراوي تلك الزيارة التي كلفت أهلي ثروة، انكسرتُ، لم أستطع النظر إلى عينيها طويلًا، كوتْني نظرتها، ليس لأن عينيها تلومُني، على العكس، لأن الحب الذي شاهدته في عينيها في تلك اللحظات، لم أشاهده من قبل، لُمت نفسي، لم يكن هذا ما أكافئهم به، أمي امرأة حساسة، ليست في وارد كل هذه الإهانات التي تعرضت لها حتى تصل إليّ. تمنيت لو أنني مِتُّ، فرحت لأنني رأيتها، وتمزقت لأني عَرّضتها إلى هذه التجربة المرعبة. عندما أخبرتني أن هيام قد أنجبت طفلي وهي تقيم معهم في المنزل أصبتُ بالذهول، لم أكن أعرف أن هيام حامل عندما اعتقلت. أخبرتني، أن عمره سنتان، أخرجت له صورة جميلة، لطفل فيه الكثير من ملامح هيام، طفل يشبهها، اقشعرَّ جسدي وسقط قلبي من مكانه، كنت أرتعد من المآل الذي وصلتْ إليه حياتي وحياة من أحب. يسير

العالم في الخارج على إيقاعه، وأنا جلبت العذاب لحياة آخرين أحبهم وتركتهم ورائي، لم أكن أتصور الصدمة التي عشتها في تلك اللحظات، كان حجمها وتأثيرها عليّ مروِّعًا.

في تلك اللحظات في السجن الصحراوي، عندما أخبرتني أمي من بين دموعها عن الحياة التي استمرت بعدي، انطحن قلبي تحت وقع كلماتها المحبة، تمنيت لو أن الأرض انشقّت وبلعتني قبل أن أشاهد نظرات الحب في عيني أمي من بين دموع الألم التي سببتها تلك الرحلة إلى ذلك المكان الذي يساوي الجحيم. كسرتني تلك الزيارة، كما كسرتني زيارة هيام بعد حوالي عامين، وبعد نقلي إلى سجن صيدنايا العسكري والسّماح بالزيارة، جاءت هيام مع أبي وأمي لزيارتي، كنت أتوقع الزيارة في أي وقت، لم أتوقع أن يكون تأثيرها فيّ مهولًا. عندما زارتني أمي في سجن تدمر الصحراوي، استطعت أن أتماسك، لم أستطع البكاء، حتى لا يكون تأثيره سيئًا عليها، مع أن رغبة البكاء اجتاحتني. عندما شاهدتُ هيام، بكيت، لأنني لم أعرف حجم الأذى الذي سببتُه لها إلا في تلك اللحظات، اختنقت كلماتي بالدموع، وما زاد من عذابي فرح هيام برؤيتي، بكل معنى كلمة فرح، فرحة لأننا التقينا، حتى لو بعد أربع سنوات ومن وراء الشبك.

إذا كانت زيارة أمي في سجن تدمر كسرتني، فإن زيارة هيام الأولى في سجن صيدنايا دمرتني تمامًا. بعدها انفتح السجن على الفراغ، سنوات مفتوحة لا أحد يعرف متى تنتهي، وينتهي هذا السجن، توقيف عُرفيٌّ لا أحد يعرف متى يقرّر الحاكم العرفي إنهاءه، لجان تأتي وتتحدث إلينا، ولجان تذهب، وكلما جاءت لجنة، تسود الإشاعات عن اقتراب الإفراج عنّا. تذهب اللجان، يمر الوقت ويموت الأمل والشائعة. كل مرة يتم الاشتراط على من يريد الخروج، أن يقطع علاقته بالعمل السياسي ويوقّع التعهد بعدم العودة إليه. يتغير الأشخاص الذين يرفعون أيديهم في كل مرة، حسب تقدير كل واحد منّا لجديّة السلطة في قضية الإفراج عنّا. عندما رفعنا أيدينا آخر مرة، وبعدها جاء الإفراج غير المتوقع، دفع الذين لم يرفعوا أيديهم ولم يسجلوا أسماءهم، ثمن ترددهم خمس سنوات إضافية من الاعتقال على الأقل.

لم ينتهِ السجن بالإفراج عني، فبعد عشر سنوات من الاعتقال أصبح هواء الحرية ثقيلًا على صدري، ولم أستطع أن أرمي ثقلَ سنوات السجن عن ظهري. عندما خرجت من السجن لم يكن العالم غريبًا عليّ فحسب، بل كنت غريبًا حتى عن نفسي أيضًا. تركت جزءًا مني في السجن، لم أخرج شخصًا كاملًا إلى الحياة الجديدة، خارج

السجن عرفت مقدار الدمار الذي حفره السجن في داخلي. خرجت من السجن، لكني لم أستطع إخراج السجن مني. تركت ورائي عشر سنوات من عمري في الزنازين، هي عمر كامل، انكسار. عدتُ غريبًا من رحلة الجحيم، لأتعرف على عالم ليس لي، ولم يكن لي، وأشك إن كنت عشت فيه قبل ذلك. أنا الغريب أدخل عالمًا أكثر غرابة، عالمًا أكاد أكون فقدت كل صله به. أجد طفلًا في العاشرة أمامي، إنه ابني كما تقول البيولوجيا، ولكن الحياة تقول إنه غريب عني، شاهدَني مرّتَين من وراء شبك السجن، لم أرغب أن يراني وراء القضبان، طلبت من هيام ألّا تأتي به إلى السجن مرة أخرى. ولد ابني في غيابي، خرجت من السجن لأجده أصبح في العاشرة، كبر بعيدًا عني، لا أعرف عن حياته ومزاجه أي شيء. شعرت بغربة شديدة، لم تتحرك مشاعر الأبوة عندي تجاهه، شعرت بنفسي معاقًا تجاه مشاعر الأبوة التي لم أعرفها، كنت غريبًا حتى عن ابني. سألت نفسي: أي حياة جديدة سأعيشها تلك التي تبدأ بعناق بارد مع ابني، كنت غريبًا بالنسبة إلى ابني، أكثر مما هو غريب عني، كان موقفًا مؤلمًا، عانقته عناق الغرباء البارد، بادلني عناقًا أبرد. فجأة، بعد سنوات طويلة، هيام تنام إلى جواري، امرأة غريبة تأتي من عالم لا أعرفه، أذكر أني عشت مع هذه المرأة من قبل، ولكن يبدو ذلك وكأنه في حياة سابقة وليس في هذه الحياة، هوة كبيرة

تفصلني عن ذلك الزمن البعيد الذي عشناه معًا. عرفنا بعضنا لأقل من عامين، وتزوجنا لشهرين، قبل أن أدخل إلى جحيم السجن وأغيب لعشر سنوات. سألت نفسي: هل أعرف هذه المرأة التي تنام إلى جواري، كنت أشك في ذلك، لأني أصلًا كنت أشك في أني أعرف نفسي. عرفتها لوقت قصير، غادرتها لسنوات طويلة، أنا تغيرت، هي تغيرت، العالم تغير، كل شيء تغير. هيام جمّدت حياتها هناك حيث عشنا معًا لوقت قصير، حياة سعيدة. تغير العالم وهي لم تتغير، لو أنها لم تحبس نفسها في تلك الفترة الجميلة، لما استطاعت أن تعيش حياتها في الانتظار، كما عاشتها في غيابي. انتظارها الطويل طوّقني بقيد لا أستطيع تجاوزه ولا الفكاكَ منه، عندما خرجت من السجن لم أعد ذلك الشخص الذي دخله، ليس فقط لأني خرجت رجلًا مدمَّرًا، بل لأن نظرتي إلى الحياة تغيرت، شعرت أني أقطع مع ذلك العالم الذي عشته قبل السجن. عدت من السجن إلى العالم ذاته الذي قطعت معه، غريبًا وبلا حول ولا قوة، أعتمد على العالم الذي أشعر أني لا أنتمي إليه، ولكني لا أملك عالمًا آخر. حتى أمي الوحيدة التي لم أشعر أني غريب عنها، لم تنتظر طويلًا حتى توفيت ولحقت بأبي. قتلني إحساس الغربة والوحدة، حاولت أن أخفي ما أشعر به، عدت للتعرف على هذا العالم من جديد. كل السنوات التالية التي قضيتها خارج السجن، لم

تجعل هذا الشعور يتراجع، بقي هذا الإحساس يرافقني إلى اليوم. أعدت اختراع حياتي، اعتقدت أني تجاوزت تجربة السجن، لكني اليوم أشعر أن السجن ما زال يقبع في داخلي ويأكلني، كل حياتي التي عشتها بعد السجن، حياة غريبة، حياتي وليست حياتي، حياة تقتلها الوحدة والغربة والخوف، رغم أني أملك عائلة والكثير من الأصدقاء».

أتت كلمات حسني من حزن عميق، حزن لم تعرف هالة أن البشر يمكن أن يعيشوه، كان صوته رتيبًا، يتهدج بين الحين والآخر، تخرج الكلمات من فمه بصعوبة، كأنها تخرج رغمًا عنه، كلمات حبيسة سنوات، كلمات ما كان ليقولها قبل عدة أشهر، ولم يكن ليقولها لشخص آخر غير هالة. في تلك اللحظات شعر أنه يرغب في أن يقول ما رفض طويلًا أن يتحدث عنه. لم يعرف لماذا لم يقل كلماته قبل هذا الوقت، ولم يعرف لماذا يقولها لهالة دون غيرها. فسّر الأمر لنفسه، بأنه لم يرغب في كسر صورة البطل التي رسمها له الآخرون، اعتبر لسنوات مسؤولية السجن تفرض عليه أن يظهر بمظهر المتماسك وأن يحافظ على الصورة التي يرغب الآخرون في رؤيته عليها، رغم أنه لم يدّعِ البطولة في أي وقت من الأوقات.

شعوره بالقرب من هالة، ولأنها ليست من محيطه القريب، سهَّل عليه أن يبوح بحقيقة ما يشعر به. استمعت هالة لكلمات

حسني بكل حواسها وتتبعت التغيرات في صوته، أحست بارتعاش جسده أكثر من مرة أثناء حديثه، سالت دموعها عدة مرات، دون أن تشهق بالبكاء حتى لا تقطع تدفق الكلام. قال كلماته دون أن يلتفت إليها أثناء حديثة، كان ينظر إلى الأمام، أو يغمض عينيه عندما تسيل الدموع منهما ويتهدج صوته. شاهدت دموعه، فبكت بصمت. حديث حسني جعلها تنسى كل أوجاعها وآلامها، ونسيت أنهما كانا قبل قليل متخاصمين، لم يعد شيء يشغلها، سوى دموع حسني التي كانت تحرقها أكثر من دموعها. شعرت في تلك اللحظات برغبة في احتضانه بقوة ووضع رأسه على صدرها، تمنت لو تستطيع أن تحمل عنه بعضًا من آلامه التي تراكمت وجعلته يشعر بالوحدة والغربة والخوف. شعرت أنها أقرب له من أي وقت مضى، كانت رغبتها بعناقه جامحة، رغبت في أن تفعل له أي شيء يخفف عنه الألم الذي تراكم على مدار سنوات السجن وسنوات ما بعد السجن، ألم لا يستحقه. لم تستطع معانقته، خافت وقاومت نفسها، تجرأت وربتت على يده عدة مرات محاولة تهدئته. أحست مشاعر جامحة تفجرت داخلها تجاهه، مشاعر من الحب والحنان والشفقة والرغبة في الاحتضان، صحيح أنها شعرت بمثل هذه المشاعر من قبل، لكنها في تلك اللحظة من البوح الحميم، وجدت نفسها أكثر

تعلقًا وأكثر حبًا لهذا الرجل الذي يتحدث لها عن قيوده التي لا يستطيع تجاوزها. في تلك اللحظة لم تعد تُفكر بمصير علاقتها مع حسني، تمنت أن تقول له: «أحبك». وتعانقه. امتنعت عن ذلك، لأنها اعتبرت من غير المناسب أن تبادر هي بمثل هذا الاعتراف، اكتفت بملامسة يده تضامنًا، رغم كل المشاعر التي تملأ قلبها، لم تتجرأ على مسك يده كاعتراف بالمشاعر الجامحة، شعرت أن اللقاء أزال ما قبله من خلاف دون التطرق إليه وجعلها في غاية القرب منه.

عندما هدأ حسني، التفت إليها، شاهد آثار الدموع في عينيها وبريقًا غريبًا يعرفه. أمسك يدها، قرّبها من شفتيه، قبّلها، رفع رأسه، نظر في عينيها اللتين تهربان من عينيه، قال: «آسف أني أزعجتك». قالت وهي تسحب يدها من يده: «أنا من عليها الاعتذار». قاطعها قائلًا: «ليس على أحد الاعتذار، اتركي كل شيء وراءك». هزت رأسها موافقة. سألها: «ننزل». لم تكن ترغب في تركه، لكنها أجابت: «ننزل». شعرت بسعادة غامرة في طريق العودة، أوجاع حسني جعلتها تنسى أوجاعها. عندما أنزلها أمام بيتها، قال لها قبل أن تنزل من السيارة: «أراك غدًا». هزت رأسها موافقة. قال: «اعتني بنفسك، أنا أخاف عليك كثيرًا». أربكتها كلماته وبريق عينيه،

خفضت رأسها لتهرب من نظراته، أخذت تُعدّل حِجابها كما تعدله كلما ارتبكت، نزلت من السيارة، ركضت بفرح تجاه مدخل البناء الذي يقع فيه بيتها.

لم يخطط حسني للقاء اليوم التالي، لكنه قرّر أن يخرجا من المدينة إذا وافقت هالة. لم ترفض، حاولت أن تعوضه عن خطئها بحقه، وافقت دون أن تسأل إلى أين؟ قرّر سلفًا أنه سيذهب باتجاه وادي بردى وبلودان، والمطعم الذي يعجب هالة أن يدخلا لتناول الغداء فيه. قاد سيارته باتجاه وادي بردى، أجواء الشتاء تفرض البرد على المدينة، رغم الشمس في السماء ورغم قلة المطر، كان شتاء باردًا بأمطار قليلة. عندما وصل إلى مفرق بحيرة زرزر، انعطف يسارًا في طريق ضيق، سألته: «أين يأخذنا هذا الطريق؟». قال: «إنه طريق بحيرة زرزر. دعينا نشاهد مستوى الماء فيها». شعر أن الانعطافة لم تعجبها سألها: «هل تريدين أن نعود؟». قالت بارتباك: «لا، لا، نذهب أينما تريد». لم تكن البحيرة الصغيرة بعيدة عن الطريق العام. أوقف حسني السيارة على شاطئ البحيرة التي انحسر ماؤها كثيرًا، الاحتقان يسكن وجه هالة، والمصالحة بينهما لم يكن مضى عليها سوى ساعات. فجأة أخذت تبكي بحرقة، لم يفهم حسني سبب البكاء. سألها: «لماذا هذا البكاء؟». لم تستطع أن تقول

له الحقيقة، ولم تكن قادرة، رغم صدق بكائها. لم تصدق ما حصل معها ولن تكون قادرة على التصديق، ولكنها في الوقت نفسه لن تكون قادرة على قول الحقيقة لحسني تحديدًا. ولم يكن حسني لحوحًا. قالت: «صديقي في أميركا الذي اتفقت معه على الزواج تركني». وعادت للغرق في البكاء من جديد. هناك من تركها، لكنه ليس في أميركا. لم يهتم حسني ما إذا كان ما تقوله صحيحًا أم كذِبًا؟ شعر أن عليه واجب إخراجها من حالتها والعمل على أن تنسى هذا الذي أسمته صديقًا. مسح دموعها بيديه، قال لها: «اتركي الموضوع وراءك، لا أحد يستحق هذه الدموع». أمسك يدها وقال لها: «هيا ننزل من السيارة». لم تعلق، أكملت مسح دموعها وهي تنزل. وقَفا على شاطئ البحيرة الصغيرة التي تحولت إلى بركة صغيرة بفعل الجفاف الذي حل على دمشق، لم يسقط سوى القليل من المطر الذي لا يرفع منسوب البحيرة، رغم أن الوقت أواخر شهر كانون الثاني، هناك برد، وليس هناك أمطار.

في دمشق كان الشهر محيرًا، فهو انتمى إلى الصيف بشمسه وارتفاع درجات حرارته، وانتمى إلى الشتاء بقوة في أيام أخرى ببرده القارص، ساد البرد الجافّ في ذلك اليوم. وقفا على الحافة حتى كاد ماء البحيرة يبلل أحذيتهما، راقب حسني وهالة سطح ماء البحيرة

الذي تحركه رياح الشتاء الخفيفة. جالا بنظرهما في الناس القلائل المتحلقين حول البحيرة حيث يستطيعون مشاهدة بعضهم البعض لأنهم تقريبًا يتواجدون في دائرة لا تتجاوز الأربعين مترًا، وفي ذروة امتلاء البحيرة يصل حجمها إلى مئات الأمتار. انتبهت هالة لسرب صغير من البطّ حطَّ على سطح البحيرة، أصابها اصطدام سرب البط بالماء بالقشعريرة وكأنها هي التي اصطدمت بالماء البارد.

ودون أن تنتبه وجدت نفسها تلتصق بحسني الذي يقف إلى جوارها، نظر إليها بعيون الحب، بادلته النظرة بعيون ذابلة. أخذها على حين غرة، انحنى تجاهها، وضع يديه خلفها، أمسك بها بقوة، ضمّها إلى صدره وانتصب، ارتقت هي إلى الأعلى، لامس وجهه بطنها، رفع رأسه ينظر للأعلى ليشاهد وجهها بين غيوم الشتاء القليلة في السماء الزرقاء، أحكم ذراعيه حولها وأخذ يدور بها، صرخت وهي تضحك: «لا..لا.. أنزلني..». ضحكا بأقصى ما يستطيعان، كان يدور... ويدور وهو يمسك بها بقوة، وهي تشعر بجسدها خفيفًا بين ذراعيه، ضحكا ضحكًا هستيريًا، شعَرا أنهما يغادران المكان ويحلّقان في سماء أخرى أمام ذهول زائري البحيرة قليلي العدد الذين يقفون حولهم. حلّقا في فصل الشتاء الذي يُحبانه، هي تحبه لأنه يُشعرها بالدفء على عكس برده، وهو يحبه

لأنه يشعر بحبات مطره تغسله من الأعماق. كانت لحظة سعيدة في حياتهما، لحظة كسرت سياق العلاقة الذي تواطآ عليه بينهما. على شاطئ بحيرة زرزر تحطّمت كل القيود التي فرضاها على نفسيهما.

لم يبقيا طويلًا عند شاطئ البحيرة، ركبا السيارة وتابعا طريقهما إلى بلدة مضايا، تسوّقا بعض البضائع المهربة، وأكملا طريقهما إلى بلدة بلودان الجبلية حيث وصلا مساء. تعشّيا في مطعم الأطلال، لم تعترض على طلبه العرق كما كانت تفعل في السابق، لكنها قالت له: «لا تشرب كثيرًا، لأنك ستقود السيارة ونحن راجعون، وأنا كما تعرف أخاف من الطريق الجبلي نهارًا، فكيف في الليل؟». قال لها: «لا عليك». كل شيء تواطأ معهما في ذلك اليوم، كل شيء أسعدهما، حتى هواتفهما المحمولة لم ترنّ. خرجا من دمشق ظهرًا، والساعة تقترب من الحادية عشرة ليلًا، أكثر من عشر ساعات معًا، كأنها لحظة. عندما انتبهت إلى الساعة قالت: «لقد تأخرت، ليس لي في العادة أن أتأخر بعد العاشرة، وعادة ما تتصل هدى في مثل هذا الوقت لتطمئن عليّ». عرف كل تفاصيلها سابقًا، قال: «أعرف، ولكنه ليس مثل أي يوم.. على كل حال إذا أردت الذهاب، سنذهب». قالت: «فلنذهب». طلب الحساب ودفعه، وغادرا المكان.

ركبا السيارة، أدار المحرك، وانطلق. نَقَّلَ مؤشر المذياع بين محطات إذاعات الأغاني على موجات الإف إم التي تكاثرت في السنوات الأخيرة، وكلما أحب أغنية يوقف المؤشر على الإذاعة التي تبثها، وكلما أعجبتها أغنية، تقول له: «اتركها... اتركها». أضواء السيارة تشق الظلام الدامس أمامهما في أقسام الطريق غير المضاءة، لم يكن يقود بسرعة، لأنه أراد أن يبقى معها أطول فترة ممكنه في هذا اليوم الاستثنائي. بسط راحته أمامها، وضعت يدها في يده، قاد السيارة ويدها في يده، كان إحساسهما جميلًا وغريبًا، مشاعر من كل نوع تغمرهما، خافَت هالة من سعادتها في تلك اللحظات، التي عرفت خلالها أنها قادرة على السعادة. يده التي تحضن يدها تمنحها الإحساس بالأمان والراحة والسعادة، مشاعر لم تشعر بها مجتمعة من قبل. لم تنتبه إلى الطريق، أسندت رأسها إلى المسند الرأسي لمقعد السيارة وأغمضت عينيها، شعرت بارتياح لأنه يجلس بجانبها، تتحسَّسه بيدها التي تنام في يده. وعندما لا تكتفي بذلك، تفتح عينيها لتتأكد أنه إلى جوارها في السيارة.

يقود حسني السيارة ويسترق النظر إلى وجهها المرتاح والسعيد وهي تغمض عينيها مسترخية، انتبه إلى الطريق أكثر من العادة لأنه يخاف عليها، كانت الساعات الأخيرة التي قضاها معها، ساعات

سعيدة، سرقها من روتينه اليومي، المحاكم الصباحية والمكتب المسائي، والموكّلين اللحوحين وكثيري الأسئلة والتطلُّب، المضجرين والكاذبين. لم يرغب في التفكير في الموضوع، لأنه أراد أن يفعل ما يريد فعله، دون أن يفكر في الصحيح والخاطئ، أن يفكر بما يجوز وبما لا يجوز. كان سعيدًا وهو يرمي همومه وراءه. استرق النظر مرة أخرى إلى الوجه السعيد لهالة إلى جواره، حجابُها نغَّص عليه سعادته.

عندما وصلت السيارة إلى مفرق قمة هابيل، حيث يوجد على يمين الطريق سبيلُ ماء قبل المنعطف الذي يعيد السيارة إلى أوتوستراد بيروت، طريق العودة إلى دمشق، أوقف حسني السيارة على بُعد عدة أمتار من سبيل الماء على يمين الطريق. ترك يدها. وضع ناقل السرعة على الوضع فارغ. رفع الكابح اليدوي. أشعل الضوء الرباعي. فك حزام الأمان. التفت إليها. وضع يده على رأسها. فتحت عينيها المغمضتين، وجدت عينيه تنظران إليها بالحب والشهوة، بيده التي على رأسها أزاح الحجاب إلى الخلف، انزلق إلى الوراء حتى وصل إلى رقبتها، فك ربطة شعرها، فانسدل على كتفيها، نزلت غرتها الجميلة على جبينها، أزاحها بأصابعه. لم يمهلها لتقول أي كلمات، قبض على شفتيها بشفتيه وأخذ

يلتهمهما. كانت مندهشة ومخدرة تسبح في عالم آخر، لم تعرف ما يحصل معها ولم تتوقعه، مشلولة وفاقدة النطق، حتى أنها لم تكن تعرف ما الذي يجب عليها القيام به، ولم تكن قادرة على الرفض ولم تفكر به. تسبب شَعر ذقنه المحلوقة لها بوخزات لذيذة. عندما اقتحم لسانُه فمَها كأفعى، لم تكن تعرف أن لهذه الأفعى كل هذا القدرة على جعل جسدها يرتعش كل هذا الارتعاش، وعندما مرّر لسانه على وتر رقبتها شعرت بأنفاسه تُحرقها، أصابت القشعريرة الساحرة جسدها كله، هي موجودة في السيارة ومرتعشة وغير موجودة، لا تعرف ما الذي يحدث، حلم جميل تسبح به، يحرّر جسدها من كل ثقل شعرت به سابقًا، مستسلمة ومستمتعة، لا تقوى حتى على الكلام، تفكيرها مشلول ومعطل، لكنها تشعر بجمالِ ما يحدث، تشعر بمُتَعٍ لم تتخيلها من قبل وتكتشف أي متع يصنعها جسدها العطشان لكل لمسة وقبلة ومداعبة. قبّل خديها، وعندما رضع شحمة أذنها، شعرت بشلّالٍ من السوائل يغرق ما بين فخذيها، وعندما جال بلسانه على رقبتها ضربت قشعريرة البرد جسدها كاملًا، أحست شعر جسدها منتصبًا وحبوب القشعريرة تنتشر عليه كاملًا، رغم أن مكيّف السيارة يعمل جيدًا. وفي الوقت الذي كان لسانه يجول على رقبتها، فك أزرار قميصها، رفع بروتيلها

الـداخلي وحمّالـة صـدرها، ققفـز ثـدياها مهتـزَّين في الهـواء الطلـق، خرجا من سـجن طالـت إقامتهما فيه، شعرت بهما يهتـزان اهتـزازًا لذيذًا، ولأول مـرة تشـعر أن ثـدييها حُـرّان لـيس مـن قيـد الحمـالات فحسب، بل من قيد أفكارها أيضًا. عنـدما نـزل بفمـه على حلمتيهـا، سمعت دقات قلبها، وعلـت آهـات المتعـة التـي تصـدرها، لـم تكـن قادرة على الاستمرار في النظر إلى ما يفعل، جسدها يرتعش بقـوة في كل مكان، اجتاح حسـني جسـد هالـة كمتـوحش يلتقـي جسـد امـرأة لأول مرة، لياليَ طويلة فكّر فيهـا كيـف سـيلعب بهـذا الجسـد، تمنّـى ذلك، واعتقد في كثير مـن الأحيـان أن هـذا سـيكون مسـتحيلًا. الآن، الجسـد أمامـه وصـاحبته مشـلولة لا تعـرف في أي أرض هـي، عـرف حسني أنها أول مرة يقترب رجل من هذا الجسد البكر، وهو مـا زاده إثارة. لـم يتوقع لا هو ولا هي، أن يحصـل بينهمـا هـذا الجنـون علـى الطريق العام. سقطت مُغْمًى من المتعة قبل أن ينتهي، لـم يكـن ذلـك مهمًا، كان مفتونًا كأنه لـم يمارس الجنس من قبل، مفتونًـا بهالـة التـي فقدت كل طاقة جسـدها وغـرق في عـرق أعطـى جسـدها رائحـة لـن ينساها أبدًا. نظر إليها إلى جواره مُغْمًى عليها، جسـدها ينـتفض بـين الحـين والآخـر، لقـد اسـتنزفت كـل طاقتهـا في متعـة أوصـلتها ذرى عالية. هالة غائبة عـن الـوعي وحسـني مسـحور، سـيبقى ذلـك اليـوم

عالقًا في ذاكرتهما إلى الأبد. ارتعش من المتعة، وأدرك لأول مرة أن المتعة قد تتحقق أكثر من كاملة من دون قذف، لم يكن مستاء لأنه لم ينتهِ، على العكس شعر أنه سعيد جدًا، فقد وصل إلى أقصى حدود المتعة دون أن يصل إلى الإنزال، وصل إلى ذروة المتعة دون قذف، كانت تجربة جديدة عليه. رغب في تفريغ متعته، لكنه شعر أن ذلك لم يكن ضروريًا. نظر إلى هالة المنهارة على كرسي السيارة المجاور، حاول أنْ يرتب ملابسها قدرَ الإمكان من دون إزعاجها، لم ينجح كثيرًا في ذلك. التفت إلى المقعد الخلفي، تناول معطفها، غطاها به. قاد سيارته باتجاه مدينة دمشق. قبل الوصول إلى دمشق بقليل، لبست هالة معطفها بصعوبة، لم يتبادلا أي كلام في طريق العودة. أنزلها أمام منزلها، نزلت متثاقلة، لم تنظر إليه ولم تُلقِ عليه سلام الوداع، شعرت أن بيتها بعيد جدًا، وهي منهكة غير قادرة على السير، وصلت إلى شقّتها بصعوبة بالغة، فتحت الباب، دخلت وأغلقته وراءها، ألقت حقيبتها على الطاولة في الصالة، نزعت حجابها ورمته على الأريكة وهي تسير باتجاه غرفة النوم، نزعت معطفها وألقته على الكرسي جانب سريرها، رفعت غطاء السرير، ألقت نفسها في السرير بكامل ثيابها، غطت نفسها، وغرقت في نوم عميق.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي، لم تدرك هل ما جرى معها كان حلمًا أم حقيقة؟! لم تكن مصدقة ما جرى، وكان أكبر من أحلامها، عندما اصطدمت يدها بثديها، شعرت بالألم، عرفت أن ما جرى كان حقيقة وليس حلمًا، وعندما رفعت ثيابها وشاهدت علامات أسنانه على جسدها، تأكدت أنها الحقيقة، لأن الأحلام لا تعض الأجساد ولا تترك آثارها. كانت مصدومة تمامًا، تذكرت تفاصيل الليلة الماضية، خجلت من نفسها، خجلت من صرخات المتعة التي أطلقتها بأقوى ما استطاعت، خجلت لأنها لم توقف حسني عن التقدم واستباحة جسدها الذي لم يستبحْهُ أحد من قبل، خجلت من رغبتها التي وصلت إلى ذروة لم تعرفها بنفسها، خجلت من إمساك رأس حسني وضغط فمه على ثديها. شعرت أن تلك المرأة التي قامت بكل ذلك امرأة أخرى وليست هي، خافت من نفسها ومن انفلات رغبتها الحبيسة بهذه الطريقة السافرة. لم تتوقع أن تستجيب لمداعبات حسني بهذه الطريقة، ولم تتوقع أصلًا أن تستسلم لمداعباته، وجدت نفسها تتمرغ في متع الرغبة وكأنها امرأة أخرى تخجل أن تراها، فكيف إذا كانت هي مكانها. صدمتها استجابتها لرغبتها بهذه السهولة، لم تجعل المتعة تغادر جسدها، كان فعل المتعة مستمرًا في جسدها.

عندما دخلت الحمام لتغتسل، استعادت تفاصيل الليلة الماضية على جسدها، شفتا حسني تقبضان على شفتيها، صرخاتها، أصابعه على مكانها العزيز، انتفض جسدها مرة أخرى من المتعة. استمرت غارقة في الحالة التي هي عليها منذ الليلة الماضية، كانت تنوس بين الصدمة والمتعة، متعبة وقلقة من القادم. أحست أن حياتها لن تعود كما كانت قبل تلك الليلة. انفتح باب الرغبة والمتعة واسعًا على مصراعيه، لم تعرف هذه التجربة من قبل، تجربة مختلفة عن تلك المرة التي التقى فيها جسدها بجسد جارتها سعاد، تلك التجربة أسعدتها في وقتها، ولكنها أشعرتها بالقرف بعد ذلك، ولم تعدْ إليها مرة أخرى، ولا حاولت سعاد أن تفعل ذلك معها من جديد. مع حسني شعرت أن الموضوع مختلف، اكتشفت ذاتها، اكتشفت مداخل المتعة في جسدها، اكتشفت الأنفاس الحارة على جسدها تلهبه، وخز شعر الذقن الذي يشعلها، كل ذلك جعلها تشعر أنها امرأة أخرى، وأنها لن تعود كما كانت في السابق. لم تفكر في قطع العلاقة مع حسني حتى تتجنب الوصول إلى ما لا ترغب في الوصول إليه. كانت تخاف أن تفقد بكارتها، بعد تلك الليلة باتت متأكدة أنها ستقدم له بكارتها عن طيب خاطر في أول انفراد به، فأصبحت تخاف هذا الانفراد، وأخذت قرارًا بتجنبه. في الوقت

نفسه وجدت نفسها عالقة في اندفاع رغباتها، التي لم تستطع السيطرة عليها، كانت المرة الأولى التي تشعر بجسدها يعبِّر عن رغباته ويتحرر وتتفجر طاقته حتى يصل إلى الصراخ المدوي، عدم توقعها لما جرى، جعل تعبير جسدها أسرع من قدرتها على كبحه بحججها العقلية.

بعد أن عرف جسدها طعم المتعة لم تعد تستطيع السيطرة عليه، قرّرت أن لا تقابله، لكنها في اليوم التالي، عندما اتصل بها، قال: «أريد أن أراك».، وافقت فورًا. وبدأت تتخيل شكل اللقاء، وكيف سيعبث بجسدها، اشتاقت إلى هذا العبث رغم أنه لم يمضِ سوى ساعات على جنون جسدها معه. كانت تعرف هذه المرة ما الذي ينتظرها. أقفل مكتبه قبل وقته، قاد سيارته، اتصل بها من هاتفه المحمول قبل لحظات من وصوله أمام البناية التي تسكن فيها، عندما وصل كانت تنتظر أمام البناية، ركبت إلى جواره، نظر إليها، هربت بعينيها، ظهر عليها الارتباك، عندما قال لها: «أحبك». ارتعش جسدها وزاد ارتباكها. كانت أول مرة تسمع منه هذه الكلمة، لم تستطع أن تعيد الكلمة، قالت له وهي تعدل من حجابها: «أنا أيضًا». قاد السيارة على طريق بيروت. انعطف عند بلدة ميسلون، أوقف السيارة في طريق جانبي، أطفأ أضواء السيارة، أبقى

المحرك يعمل، عندما التفت إليها، كانت تهرب من نظراته، أمسك رأسها، نزع حجابها، لم تقاوم ولم تحتج، أمسك رأسها وقرّبه من رأسه، اقشعر جسدها، وارتفع صوت آهاتها مع ملامساته وممارساته الفظيعة. شعرت به وهو يقذف ماءه في يدها، وكانت أول مرة ترى رجلًا تأتيه رغبته، وأول مرة تشم الرائحة النفاذة لماء الرغبة العالق على يدها. كل شيء كان يثيرها، وعندما هدأ حسني قليلًا، عاد لينقضّ عليها، بلغت إثارتها ذروتها، فصرخت صرخة مدوية، وسقطت مغشيًا عليها.

اندهشت هالة من نفسها ومن نبع الرغبة الذي يتدفق مزلزلًا، ولم تتوقع أنها تملك كل هذا الشبق داخلها، رغبتها ثائرة وتضغط عليها طوال الوقت. وخلال أيام وجدت نفسها تنجرف إلى تجربة أخرى زادت اندهاشها بالشبق الذي انفجر داخلها فجأة. بدأت التجربة عندما انعطف حديث هاتفي مع حسني إلى العلاقات الجنسية. سألته عن تفاصيل علاقته الجنسية مع زوجته، كان فضولها كبيرًا لمعرفة أي علاقة جسدية بينهما، وتمنت أن تكون علاقة سيئة. تحفَّظ حسني في الحديث عن علاقته الجنسية مع هيام، لكنه خرج عن تحفظه تحت إلحاح هالة وغنجها، وقبل أن يدخل في التفاصيل شعر أنها مستثارة. أحبّ أن يجرب معها لونًا جديدًا من

الإثـارة، فـانعطف بالحـديث عـن الجـنس الصـوتي، وعـرض عليهـا تجريبـه، فوافقـت. أخـذت الكلمـات القادمـة عـبر الأسـلاك، تثيـر شهوتها، تلك الكلمات التي كانت تعتبرها محرجة ومهينة، أخـذت منحى آخر. وجدت نفسها مستمتعة بالكلمات الفاحشة، هزتها بقـوة وعقدت لسانها، لـم تكن قادرة على قول أي شـيء، كانـت مصـدومة بنفسها، واستمتاعها بهذا النوع مـن الكـلام. أثارتهـا تسـميته تفاصيل جسدها، أثارتها كلماته وزلزلت جسدها، أخذتها الكلمات إلى عالم آخر، استسلمت لـه كأنهـا مسـحورة، كلماتـه لهـا كانـت أمرًا لا يـرد، نفَّذت كل ما قاله، حتى صرخت مـن الألـم. التزمـت بـأوامره حرفيًا كأنهـا عَبْدَتُـه، عنـدما قـال لهـا: «أقرصـي حلمتـك». قرصـتها بقـوة، وعندما قال لها: «أكثر.. أكثر...». زادت قرصها حتى صـرخت مـن الألم. وعنـدما قـال لهـا احرثـي نفسـك، فعلـت ذلـك بالطريقـة التـي تحـب أن يحرثهـا حسـني بهـا، فعلـت ذلـك بكـل قـوة وكأنـه فوقهـا يحرثها كمـا تشتهي. كانـت صـدمتها بنفسـها أكـبر عنـدما استمتعت وهـي تـتلفظ بـالكلام الفـاحش وتسـمي أشـياءها وأشـياءه العزيـزة بأسـمائها، ارتجـف جسـدها مـن وقـع كلماتـه الفاحشـة علـى أذنهـا، وارتجفت من وقع كلماتها الفاحشة أيضًا، شعرت بجمال وإثارة من نوع آخر هذه المرة، كان الكلام الفاحش حتى قبل سـاعات يشـعرها

بالقرف والخجل، والآن تقوله بكل استمتاع، أي شيء يجعل وقع الكلام يختلف إلى هذا الحد؟! لم تكن قادرة على التفكير ولم تكن قادرة على الإجابة، كانت مصدومة ومسحورة لاكتشافها الوحش الجنسي الذي يرقد داخلها واستيقظ فجأة ولا يريد أن يهدأ. هذا الوحش الذي انتفض داخلها، جعلها تشعر أن بكارتها عبء عليها، لم تفكر يومًا أن أحدًا غير زوجها القادم يمكن أن يستبيح جسدها، ولا أحد غيره سيفض بكارتها، لكنها في تلك اللحظات المجنونة، رغبت أن يفضَّ حسني بكارتها.

خافت هالة من رغبتها الجنسية العارمة التي استيقظت داخلها، وعرفت أن منح حسني بكارتها، مسألة وقت، وبات هذا الوقت قريبًا، وقريبًا جدًا. أصبح عليها أن تبتعد عنه إذا كانت تريد للجنون الجنسي الذي استيقظ في داخلها أن يهدأ. لم تكن قادرة على ذلك، لقد عرفت عالمًا سحريًا لم تعرفه من قبل، عالمًا هي غير قادرة على سحب نفسها منه، عالمًا منحها متعة لم تشعر بها من قبل، متعة جعلتها تُحلق بين السحاب، جعلتها تتعرف على جسدها، هذا الجسد الذي لم تعرفه من قبل كما باتت تعرفه اليوم. ازداد خوفها من نفسها، كان عليها أن تفعل شيئًا، لم تعد قادرة على كبح نفسها، ولم تكن قادرة على قطع الطريق إلى نهايته. متعتها نكّدت عليها

حياتها، تمنت لو لم تكتشفها، كانت تمارسها، لكنها لم تكن قادرة على تبريرها لنفسها، في لحظات الالتحام لم تكن تفكر سوى في نفسها ومتعتها وحبها لحسني، وعندما تنتهي اللحظة وتذهب إلى بيتها، تشعر بالذنب والخجل من نفسها، ومن الدرك السفليّ الذي وصلت إليه، شعرت بعذاب رهيب، عذاب يوازي بوزنه قدرة جنون الرغبة الجنسية التي استيقظت داخلها، كل واحد يشدها باتجاه. عندما تتحرك رغبتها يستيقظ جسدها ويطالبها بالمتعة، وعندما تهدأ الرغبة يستيقظ عذاب الضمير الذي تشعر بوخزاته في داخلها، ما يدفعها إلى البكاء المرّ والطويل وحدها لأوقات طويلة، ولم تكن تستطيع أن تنقل لأحد معاناتها الجنونية، وحتى لو وجدت من يسمعها، فهي ليست قادرة على شرح هذا التناقض الفاضح الذي تعيشه، بين تحليقها مع رغباتها المتفجرة وبين عذابات الضمير التي تجتاحها بعد ذلك. تمنت أن يحل حسني مشكلة تناقضها، تمنت أن يعرض عليها الزواج، حتى ولو زواجًا في السرّ، ستوافق فورًا، فقد كبر عذابها بقدر ما كبر الوحش داخلها. تجاهل حسني تلميحاتها، وهي لم تكن قادرة على عرض نفسها عليه، قدَّرت أنها لو فعلت ذلك سيرفضها، فلم تحاول أن تقول ما تمنته.

كان الطريق إلى حسني مغلقًا، اعتقدت هالة أن الحل جاءها عندما عرضت عليها ابنة عمها في القاهرة، التواصل عبر الانترنت مع شخص من أصدقاء زوجها يبحث عن عروس. لأنها تعجبه، تمنى أن يجد واحدة سورية مثلها، عرضت الموضوع على هالة التي ترددت في البداية، وبعد فترة أعجبتها الفكرة، ليس لأنها تريد ذلك، بل لأنها ستثير غيرة حسني. لم تكن الاتصالات قد بدأت بينها وبين عزت في مصر، حتى ألّفتْ قصة أخبرت حسني بها، أنها تعرَّفت على شاب مصري، زار دمشق منذ فترة قريبة، يريد الزواج بها، وهي تفكر في الموضوع، ويتحدثان على الانترنت معًا بين الحين والآخر. حسني لم يعلق على ما قالت هالة، تعامل كأنه يسمع خبراً عاديًا، ويعرف أنها تكذب. لم تشعر أن الخبر استفزه، أو أثار غيرته. شعرت بالغيظ الشديد لأن قصتها المفتعلة، لم تفعل ما توقعته منها، غضبت من حسني وعرفت أنه لا مستقبل لعلاقتهما، وأن عليها أن تحول ما قالته إلى حقائق، طالما كان الطريق مع حسني مغلقًا. شعرت أنه يريد إبقاء العلاقة عند الحد الذي وصلت إليه، وأنه بذلك يتعامل معها كعاهرة، وجدت نفسها مستفزة، وأصبحت كلما التقت حسني تتقصد الحديث عن عزت، وهو لم يكن يمانع، أبدى رأيه كأن الأمر لا يعنيه، ما زاد في غيظها. عندما

فكرت بهدوء وجدت حياتها في دمشق تتحطم. تعرف أنها تحب حسني، لكن الحب وحده لا يكفي، وهو لا يرغب في دفع أي ثمن مقابل استمرار علاقتهما، ويريد أن يُبقي العلاقة تراوح مكانها. شعرت بنفسها تغرق في علاقة لا هي قادرة على الاستمرار فيها ولا هي قادرة على مغادرتها. وجدت في عزت مخرجًا من الوضع الذي تعيشه، تعاملت مع عزت بجدية، وعندما شاهد صورتها عند ابنة عمها أصبح مستعجلًا ولحوحًا، وأصبحت هالة مستعجلة لأنها لم تعد قادرة على تحمل الوضع. خلال فترة قصيرة قرّرت الموافقة، فقد بات عليها أن تهرب من هذه العلاقة التي تدمرها.

جاءها قبول لمّ الشمل الذي قدمته لها أختها فداء في الولايات المتحدة في ذروة تناقضات علاقتها مع حسني، لم تكن قادرة على الذهاب إلى الولايات المتحدة والهروب إلى هناك وبقاء العلاقة مع حسني على حالها، وبعد ظهور عزت أصبح أمامها خياران للهرب من حسني، الذهاب إلى الولايات المتحدة، أو الزواج من عزت. لو لم يوقظ حسني رغبتها التي كانت نائمة، لاختارت الذهاب إلى الولايات المتحدة دون تردد، الرغبة التي استفاقت في جسدها تريد أن ترتوي، لذلك حافظت على العلاقة مع حسني رغم كل غيظها منه والعذابات التي تسببها لها العلاقة. وبسبب هذه

العذابات قرّرت الاستمرار في محاولة الزواج مع عزت، تمنت أن يعرض عليها حسني الزواج بأي طريقة قبل أن تقدم على ما قرّرته. عندما أخبرته أنها قرّرت الموافقة على الزواج من عزت، كانت تنتظر جوابه النهائي، تجهم ولاذ بالصمت. لم تكن قد أخبرت عزت بالموافقة، بعد مشاهدتها ردّة فعله، حسمت أمرها بالذهاب في هذا الخيار إلى نهايته. في تلك اللحظة شعرت أن حسني تخلى عنها، وأنه غير قادر على التقدم خطوة أخرى إلى الأمام. في الوقت نفسه عرف حسني أنه خسر علاقته مع هالة، كان يعرف ما تريد، لم يكن يستطيع الإقدام على تلك الخطوة، فكّر بالخطوة طويلًا، وكل مرة فكّر في الموضوع شعر بالخوف، وشعر أنه أجبن من أن يُقدم على هذه الخطوة.

كلما خطر له الموضوع، قفزت صورة هيام وراء شبك السجن إلى ذاكرته، عذبته صورة هيام منذ تحول علاقته مع هالة. عندما يتذكرها وهو مع هالة، يشعر بالضيق، يعذبه إحساس الخيانة تجاهها. أحب هالة، لكنه لم يكن قادرًا على الذهاب بعيدًا، لم يكن قادرًا على الانفصال عن هيام، ليس من أجل الأولاد فحسب، بل من أجلها بالذات، فقد طوقته بالحب الذي لم يستطع أن يدير حياته بعيدًا عنه بعد كل ما قدمته له. كان يعرف موقفه المتناقض منها،

يشعر أنها غريبة عنه، في الوقت الذي يرى فيها الملاك الذي احتمل ما لا يمكن احتماله دون شكوى. شكل كل حياتها، حتى عندما كان غائبًا في سنوات السجن، هو يعرف ذلك تمامًا. رغب أحيانًا في الانفصال عنها، حتى قبل أن يتعرّف على هالة، شعر أن هذا فعل خيانة منحطّ. عندما قالت له هالة إنها ستتزوج من عزت، شعر بعالمه ينهار. لم يكن قادرًا على وقف هذه الخسارة، اكتشف في تلك اللحظة أن هيام تحتل كل الصورة، وجد نفسه عاجزًا عن اتخاذ موقف يدمر العلاقة بينهما، ووجد نفسه متعلقًا بها للكثير من الأسباب، وغير قادر على الذهاب إلى حدِّ التخلي عنها والزواج من غيرها، ولا حتى من الزواج من واحدة أخرى إلى جانبها، رغم أنه لا يقبل ولا يحتمل فكرة الزوجتين. العلاقة تنهار أمامه وهو عاجز عن الإقدام على أي فعل، وجد نفسه مشلولًا تمامًا.

عرفت هالة من ردة فعل حسني أنها وصلت معه إلى نهاية العلاقة، فهو تعجبه الحياة المزدوجة، حياة الزوجة والعشيقة، لكنها لا تعجبها، عرفت أن علاقتهما وصلت إلى طريق مسدود. رغم أنها وجدت مع حسني الحب الذي انتظرته طوال حياتها، عرفت منذ البداية أن علاقتها به ليس لها مستقبل. تعرف أنه لن يتخلى عن زوجته، لم يكذب عليها ولم يعِدها بشيء، وهي قاومت مشاعرها

بقدر ما استطاعت، حتى لا يتحول حبها لحسني إلى حب معلن، قال القدَر كلمته بالضد من رغبتها، ولم تعد العودة إلى الماضي ممكنة. بات عليها الهروب من جديد، فمدينة دمشق التي أحبتها، مصرة أن تكون غير عادلة معها، في سؤال القلب، في حبها، الذي انتظرته طويلًا. لم يعد البقاء في المدينة ممكنًا، كان عليها أن تسلخ نفسها منها، لأنها لن تحتمل هذا العذاب طويلًا. لن تستطيع أن تبقى عالقة مع حسني في حب مستحيل، ولم تعد قادرة على مقاومة استسلامها الكامل له. قدَّرت أنه مهما طالت سريّة هذه العلاقة، لا بد أن تنكشف وتتحول إلى فضيحة أخرى، ليست قادرة على احتمالها، صحيح أنها تحبه، لكنها تعرف أن الحب وحده لا يحل المشكلات. شكّل عزت طريق الهروب بالنسبة لها، لم تنتظر طويلًا، أصبحت محمومة تريد الخلاص من هذا الوضع الشاذ. أخبرت عزت أنها توافق على الزواج به. كانت تعرف أن عزت الذي شاهدت صورته، ليس رجلًا جميلًا، هو مقبول الشكل، يعيش بين القاهرة وفرانكفورت، تزوج من ألمانية وله منها ولد، انفصل عنها منذ خمسة أعوام ويريد أن يتزوج عربية ومحجبة. أثناء اتصالاتها معه عبَّر عزت عن لطف ودماثة استثنائيين، قال لها، إنه أحبها منذ شاهد صورتها عند ابنة عمها. أعجبها لطفه، أعجبها أكثر أنه مستعد

أن يفعل لها ما تشاء، رسمت له صورة تعجبها حتى تستطيع أن تُكمل هروبها وتكمل حياتها. لم تسأله أسئلة عميقة، لم تناقش معه أي تفاصيل تستطيع أن تفهم منها شخصيته، أعجبها أو اعتقدت ذلك، لم تكن تفكر بشيء سوى الهروب. أخبرت إخوتها بأن هناك رجلًا سيأتي من مصر لخطبتها والزواج سريعًا لأنه لا يملك الوقت. حاول إخوتها إقناعها بالتريث حتى يستطيعوا السؤال عن الرجل بشكل أو بآخر، أصرّت على خيارها، رتبت كل شيء في أقل من شهر، وكان زواجها.

غرقت خلال فترة إعدادها للزواج في التفاصيل، حتى أنها نسيت حسني أو تناسته، ولأنها اعتبرت نفسها مرتبطة برجل آخر، لم تتصل به، ولم يفعل هو ذلك. سارت الأمور على ما يرام، اقتصرت حفلة العرس على حلقة أقاربها الضيقة، لم يأت مع عزت من مصر سوى أخته. على قلة المدعوين كانت الحفلة جميلة، شعرت بنفسها عروسًا، رقصت كما رغبت أن ترقص في عرسها، كانت متألقة في أجمل حالاتها، احتفلت بنفسها، لم ترغب أن تنتهي الحفلة، كانت تريدها أن تستمر إلى الأبد.

كما كل شيء انتهت الحفلة لتجد نفسها وحيدة مع عزت في غرفة الفندق. فجأة، تبددت كل السعادة التي شعرت بها منذ قليل.

عندما اقترب عزت منها ارتعدت، وعندما عانقها شعرت بالنفور. طلبت منه أن يُطفئ الضوء، فهي لا ترغب أن يشعر بانفعالاتها، نفّذ رغبتها، عاد ليُجلسها على حافة السرير ويجلس إلى جوارها. الذي نسيته في الأسابيع الأخيرة وهي تُحضّر لزواجها، حضر بكل قوة ليحتل غرفة الفندق، لم ترَ في الغرفة سوى حسني، وكلما زاد حضوره أمامها قوة، ازداد قرفها من عزت، لم تعد قادرة على احتمال هذا الرجل الذي أمامها، لكنها لم تقل أي كلمة. انتظرت طوال عمرها اللحظة التي يأتي فيها الرجل الذي يفض بكارتها، اعتبرتها لحظة تستحق كل الاحتفال السابق لها من العرس وتحضيراته، فهي تحصل مرة واحدة في العمر، مرة لا تتكرر. تصورت دائمًا أنها أجمل لحظة في حياتها، وعلاقتها الجنسية الناقصة مع حسني أكدت لها ذلك. عندما أتت اللحظة شعرت أن بينها وبين الرجل الذي تزوجته حواجز عالية هي غير قادرة على اجتيازها. لم تكن قادرة على فعل أي شيء، تركت نفسها للرجل الغريب يستبيح جسدها، اعتقدت أن عقد الزواج سيكسر الغربة بينهما، في تلك اللحظة اكتشفت أن غربتها ازدادت، وفي كل مكان وضع يده عليه شعرت بشيء يكويها، وعند كل قبلة قبّلها لها شعرت بالقرف واجتاحتها رغبة بالتقيؤ. وعندما اخترقها، شعرت

بالإهانة والانتهاك من الرجل الذي يمتطيها بتوحش، رجل غريب، أتى من بعيد واحتل مكانًا لم ترغب أن يكون فيه على الإطلاق. كان إحساسها تجاه ما يجري في غرفة الفندق غريبًا، الجنس الذي جعلها تصعد إلى السماء وحلّقت بفعله في عالم آخر، أشعرها تلك الليلة بالنفور والقذارة، شعرت أنها غير قادرة على تحمل قذارة جسدها الذي بات غريبًا عنها بعد اقتراب عزت منه. بصعوبة أمسكت رغبتها بالتقيؤ، عندما انتهى عزت، أزاحته عنها، أدارت وجهها وأجهشت بالبكاء.

منذ دخلت الغرفة، لم تفارقها صورة حسني، شعرت أن عزت يذبحها، وليس له الحق في الاقتراب منها، حاولت إبعاد صورة حسني عنها، لكنها فشلت، ألحّت صورته عليها بطريقة غريبة لم تحدث معها سابقًا، وكلما ألحّت الصورة أكثر، ازداد قرفها من عزت، وهو ما حوّل ليلة دخلتها إلى كارثة. كانت ليلة من أسوأ أنواع العقاب بالنسبة لها، عقاب لم تعرفه في حياتها. اعتقدت أن عقد الزواج سيجعلها أقرب إلى عزت وأبعد عن حسني، بعد أن جربت، وأصبحت زوجة عزت، اكتشفت العكس، لم يجعلها عقد الزواج أقرب إلى عزت، ولم يجعلها أبعدَ عن حسني. عرفت في

تلـك اللحظـات أن زواجهـا مـن عـزت قـد فشـل، لكنهـا قـرّرت الاستمرار فيه.

اعتقـدت هالـة أن عـزت لـم ينتبـه لـرفض جسـدها لـه في ليلتهمـا الأولى، لم يرغب عزت في إفساد ليلته، فتجاهل ما شعر به، وحـاول تفسـيره بتجربـة المـرة الأولـى لهالـة. في اليـوم التـالي ودعـت هالـة المصدومة إخوتها وسافرت مع عـزت إلـى القـاهرة وهـي سـارحة، هالة السعيدة في مساء اليوم السابق في حفل عرسها، بدت امرأة شقيّة ومتعبة ولا تشبه تلـك المـرأة التـي تألقـت مسـاء اليـوم السـابق. انتبـه عزت لملامح هالة القلقة والمتعبة، اعتقد أن ذلك بسبب ذهابها إلـى مكان جديد لا تعرفه والعيش بين أناس لا تعرفهم سابقًا. حدثها عن طيبة أهله وطيبة المصريين وخفّة دمهم، وأنها لـن تكـون غريبـة، فـلا أحـد في مصـر يشـعر بالغربـة، لأن المصـريين يعتـبرون أنفسـهم أهـل جميـع الموجـودين في بلـدهم التـي يعتبرونهـا أم الـدنيا. سـمعت كلماته، ردت بإشارات من رأسها علامة الموافقة، أو بكلمة واحدة. كانت مصدومة مـن نفسـها، مـا الـذي فعلتـه بنفسـها؟ لا تصـدق أنهـا تزوجـت بهـذه الطريقـة، وبهـذا الوقـت القصـير، ومـن هـذا الرجـل. شعرت أنها في كابوس طويـل مـزعج، وأن مـا حصـل معهـا في الأيـام الأخيرة، قامت به امرأة أخرى في داخلها وليست هي، كانـت تلتفـت

إلى عزت طوال الوقت لتتأكد من أنه إلى جوارها ولتتأكد من أنه هو، شعرت أنه في غاية البشاعة، بشرته سمراء داكنة لا تصل إلى السواد، شفتاه الكبيرتان، أنفه الكبير، عيناه الجاحظتان بعض الشيء. شاهدته مسخًا، لم تعرف كيف وافقت على الزواج من هذا الرجل وبهذه الطريقة. لم يكن عزت شابًا جميلًا، كان شخصًا عاديًا، ليس بتلك البشاعة التي شاهدته عليها في تلك اللحظات وهي ذاهبة إلى القاهرة لتعيش معه كزوجة. تعرفت إلى أهله، أمه، إخوته الأربعة، أخواته الثلاث، استقبلوها مرحبين بها ومشدوهين بجمالها. عبرت عوالم غريبة عليها، شعرت كأنها تسير في حلم مزعج لا يريد أن ينتهي. عندما وجدت نفسها في الغرفة وحدها مع أخته الصغرى البالغة حوالي العشرين من عمرها التي تساعدها في ترتيب أشيائها، سألتها هالة: «أين أنا؟». قالت الفتاة: «أنت في بيتك». نظرت حولها وتفقدت الأشياء، خزانة الملابس، السرير، المرآة التي نظرت فيها ولم تعرف نفسها. المكان غريب، لم تشعر بالألفة، لم يكن بيتها، لم تختر أي شيء في هذا المكان، لم تشعر بأي شيء ينتمي إليها، شعرت أنها مجبرة على العيش في هذا المكان، وأنها مجبرة على الزواج من هذا الرجل. كأنها سألت لتتأكد أن ما يجري حقيقي أم أنها في كابوس. عرفت أنها تعيش

الواقع، وأن ما يجري حقيقي ولا لبس فيه، وأن عليها أن تتعامل مع هذا الواقع.

تهرّبت في اليومين التاليين من ممارسة الجنس مع عزت بحجة الجرح الذي لا زال يؤلمها، لكنها لم تستطع أن تتجنب قُبَله التي شعرت أنها تكويها. في الليل لم تستطع النوم إلى جواره، كلما التفتت إلى جهته، كانت تجفل، تغمض عينيها وتدير له ظهرها، ولا تلبث أن تخرج إلى الصالة وتبدأ في البكاء الصامت. وعندما لم تستطع الرفض حاولت تقبّله، وعندما اخترقها شعرت بألم شديد، كان فوقها يعلو ويهبط، عندما شعرت بالقرف ورغبة شديدة بالتقيؤ، حاولت أن تمسك نفسها، لكنها هذه المرة لم تستطع، طلبت منه أن ينهض عنها، نهض عنها، ركضت باتجاه الحمام وأفرغت كل ما في معدتها. في تلك اللحظة أدرك عزت أن المسألة ليست مسألة أول مرة، هناك مشكلة، لم يعرف ما هي، أخذته الظنون في اتجاهات مختلفة، لم يجبرها على الزواج منه، لقد قبِلته بمحض إرادتها، ولم يخفِ عنها شيئًا. راجع الليلة الأولى لهما، تذكر نقاط الدم القليلة التي سالت منها في تلك الليلة، لم يقتنع، شعر أنها خدعته وأنها لم تكن عذراء عندما تزوجا، لم يقل لها أي شيء. عرفت هالة أن ما أقدمت عليه كان مهينًا لعزت، لم تقم بذلك بمحض إرادتها، لكن

الإهانة حصلت. في المرة التالية استطاعت أن تمسك نفسها، شعر أن جسدها يرفضه، لم يكن ذلك ليخفى عليه. لم يهتم ولم يعد يأبه لرضاها، أصبح يغتصبها، كلما شعر أن جسدها يرفض أكثر، أصرّ هو على اقتحامه بطريقة أعنف. عندما طلبت منه التخفيف من عنفه، قال بلهجة متحدية: «كيف كان يمارس الجنس معك من فضّ بكارتك؟!». صعقها الكلام الذي سمعته، قالت له: «ما الذي تقوله؟». قال: «الذي سمعتيه، هل تريدين إقناعي أنك عذراء؟». لم تستطع التفوه بأي كلمة من هول الصدمة، شرعت في بكاء طويل، تركها وخرج، شعرت بنفسها وحيدة ومنتهكة ومتهمة بما صانته كل هذه السنين للرجل الذي تزوجته، تمنت لو أنها منحت بكارتها لأي عابر سبيل، بدل أن تحتفظ بها لرجل لا يستحقها. تصورت كل شيء، إلا أن يتهمها بما اتهمها به، لو قال لها هذا الكلام في دمشق لما غادرت معه إلى القاهرة، يمكن أن تقبل أي شيء إلا اتهامها بما نطق به، ما حرسته سنوات عمرها من أجل زوجها، أول شيء اتهمها به. زاد قرفها منه، فقد تحول إلى وحش ينتقم، يغتصبها ويُذكّرها كل يوم أنها لم تكن عذراء، رغم ذلك يُبقيها في منزله. أصبح شكاكًا، لم تعرف هل هو شكاك أصلًا، أم أصبح كذلك لأنه تزوجها؟! أدركت أنها تزوجت رجلًا لا تعرفه، وهذا الرجل يريد أن

ينتقم منها لجرم لم ترتكبه. عرفت من أخته، أنه كان يشك في زوجته الألمانية، ويقول إنه كشف خيانتها، لذلك أراد أن يتزوج من عربية ومحجبة، ساقها القدر في طريقه، وساقه في طريقها وهي يائسة. حلفت الأيمان أن لا أحد اقترب من عذريتها غيره، لكن أيمانها جعلته متأكدًا من اتهامه لها، والذي أخذ يكرره عدة مرات في يوم. لم تعد قادرة على الاحتمال، لم تكن تتوقع أن يناديها بـ«العاهرة». كان يتلذذ وهو يسألها: «مَن فض بكارتك؟». وهي تغرق في البكاء.

كانت وحيدة ومعزولة ومهانة وغريبة ومنتهكة، لم تعرف ماذا تفعل؟! لا يمكن أن تعود الى دمشق مطلقة خلال أيام، أي كلام سيقال عليها وعن هذا الزواج السريع؟! تخيلت الجميع في دمشق يقول الكلام الذي يقوله عزت عنها، سيسألها الجميع: «من الذي فضّ بكارتك؟». أرعبها السؤال. سألت عزت عن الوقت الذي ستذهب فيه إلى الولايات المتحدة، حتى لا تخسر لمّ الشمل الذي مُنح لها. رد عليها: «هل الذي فتحك في أميركا؟!». لم تعد تتجرأ على سؤاله مرة أخرى، وجدت نفسها تنكمش على نفسها. رجت والدته الأكثر نفوذًا عليه أن يجعلها تعود إلى دمشق لتصفي متعلقاتها هناك، كان يعرف أنها تريد أن تهرب منه، عندما قالت له والدته: «اتركها تذهب إلى دمشق، لا تستطيع أن تحبسها طوال

الوقت». ذهب إليها وسألها: «هل الذي فتحك موجود في دمشق؟». كلما قال لها مثل هذا الكلام، كانت تغرق في البكاء. عندما سمعته والدته يقول لها مثل هذا الكلام، قالت له: «حرام عليك، أغضب عليك إن لم تتركها تذهب». لم يستطع معارضة أمه بعد هذا الكلام. تركها تذهب إلى دمشق على مضض، أرادت الذهاب لتأخذ استراحة وتستوعب ما فعلته بنفسها. لم تفكر في الانفصال، رضيت عزت زوجًا لها، هي اختارته وتريد العودة إلى دمشق لأنها بحاجة ماسة إلى الاستراحة، رضيت بخيارها رغم صدمتها من تعامل عزت معها، لكن الأسابيع التي قضتها في القاهرة أرهقتها. وعدت والدة عزت بالعودة، وحلفت الأيمان له، بأنها ستعود بعد أيام، لم يصدقها، لكنه تركها تذهب، كان مقتنعًا أنها لن تعود. من أجل إقناعه بعودتها لم تأخذ أيًّا من أغراضها سوى الضروري من أجل غياب عدة أيام. لم تطلب منه أي شيء، وهو لم يعرض عليها شيئًا. لم يفهم لماذا تريد العودة إلى دمشق بهذه السرعة، الأسابيع التي قضاها معها، جعلته على يقين بأنها تعاني مشكلة معه. حزنها طوال الوقت، حبها البقاء وحيدة، حتى عندما تبتسم أو تضحك، يبقى الحزن واضحًا في عينيها، كل شيء يقول له إنها ترفضه، وحتى عندما تجبر نفسها على تقبله، تشعر بجسدها يرفضه. سأل نفسه:

«إذا كانت ترفضني بكل هذه القوة، لماذا وافقت على الزواج بي؟ لم يجبرها أحد على ذلك، لماذا اختارتني إذا؟».

راودته أفكار كثيرة، كلها ذهبت به إلى أفكار رديئة، شعر أنها استخدمته كطريق للهروب، هروب من شيء لم تتخلص منه بعد، وهذا ما استفزه. عندما سألها: «لماذا وافقت على الزواج مني؟». قالت له: «وافقت لأني اعتقدتُ أنك الرجل المناسب لي». ابتسم ابتسامة صفراء ساخرة، لم يقتنع بكلماتها، كظم غيظه وقال لنفسه: «لو كان هذا صحيحًا، لمَ رفضتني منذ الليلة الأولى». تركها تسافر وكل هواجسه تقول له، إنها ذاهبة من أجل رجل آخر. عندما وجدها شعر بالسعادة، لم يعرف كيف يكسبها، أخرجت كل الأشياء الجميلة فيه، لقد نالها. عندما نالها ولد الرجل الآخر في رأسه، غار من الرجل الذي ولد في رأسه، عندما عرف أنها ترفضه، عرف أن الرجل موجود في الواقع وليس في رأسه فقط، وهو ما جعله متوترًا طوال الوقت، هي تعيش معه بجسدها، لكن روحها في مكان آخر ومع رجل آخر، وهذا ما كان يدفعه إلى الجنون. تركها تذهب إلى دمشق على مضض، رغب في منعها، كان يعرف أنها تستطيع المغادرة في أي وقت، ولا يستطيع منعها، ويعرف أنه لا يستطيع أن يجبرها على العيش معه. تركها تغادر وهو يعرف أنها ستغادره نهائيًا.

لم ينتظر، منذ وصولها إلى دمشق راح يتصل بها كل نصف ساعة ليسألها ماذا تفعل. في اليوم التالي، اتصل على هاتفها الأرضي في منزل دمشق وعلى هاتفها المحمول لم ترد عليه. أخذته الظنون، تصورها في حضن رجل آخر، واعتبر تصوراته واقعًا، لم يحتمل فكرة أن تكون زوجته على ذمته وفي حضن رجل أخر. اتصل بكل إخوتها وأخواتها، لم يجدها عند أحد منهم. أصرّ على الاتصال المتواصل على هاتف المنزل وهاتفها المحمول طوال الوقت، عندما ردت عليه بعد حوالي ثلاث ساعات، كان في ذروة غضبه. ذهبت تصوراته بعيدًا، ولم يكن قادرًا على العيش يومًا آخر في الدمار الذي شعر به وخيالاته تذهب به بعيدًا. لم يمهلها، لم يسألها عن سبب عدم ردها، قال لها: «كنت مع حبيبك، أنا أعرف ذلك، وهذا الوضع لا يناسبني، أنت طالق، لا تعودي إلى هنا... لا تعودي إلى هنا... لا تعودي...». أغلق الهاتف قبل أن يسمع جوابها، شعر بالراحة بعد الكلمات التي قالها. شعرت هي بالدمار، لم تتوقع أن يفعل ذلك وهي بعيده، أقنعت نفسها أنها لحظة غضب وسرعان ما يهدأ كما حدث في مرات سابقة، اتصلت به بعد حوالي الساعة لم يرد عليها، بقيت طوال اليوم تحاول الاتصال به دون جدوى. عندما تأكدت أنه لن يرد عليها، اتصلت بأخته التي قالت إنها «لا تعرف

شيئًا»، رجتها وبكت وهي تسألها: «أرجوك، من أجل الخبز والملح الذي بيننا، ماذا يحدث مع عزت ولماذا فعل ذلك؟». أشفقت أخته عليها ولم تستطع أن تتركها على جهلها بما حصل، قالت لها بصوت متهدج: «عزت يقول إنك كذبت عليه، وأنت لست عذراء، أبلغ كل أهلي بذلك، ويقول إنك عدت إلى سوريا من أجل رجل آخر ولن تعودي إلى القاهرة». أغلقت الهاتف وهي تلطم خديها وتقول لنفسها: «لقد حولني إلى عاهرة».

عرفت أنه فعل ذلك ليُقوي موقفه، وحتى لا يضعف ويصالحها ويتراجع عن الطلاق، وليمنع أيًّا من أفراد عائلته من التدخل. صنع لها فضيحة عند أهله حتى يتخلص منها. لم تتمالك نفسها من هول الصدمة، حتى اتصلت أختها هدى التي قالت لها: «عزت اتصل بي من القاهرة، وقال كلام غريب، وقال مثله إلى إخوتك». سألتها هالة بتوتر شديد: «ماذا قال؟!». عرفت هدى من تهدج صوت هالة أي توتر أصابها، لم تستطع أن تخفي عنها ما قاله عزت لها ولإخوتها، وحتى تعرف ما الذي يدور حولها، رغم ذلك ترددت كثيرًا في أن تقول لها، في النهاية قالت لها: «عزت يدعي أنك لم تكوني عذراء». ردت وهي تصرخ وتبكي: «كاذب...كاذب... كاذب». انهارت في مكانها وسقطت سماعة الهاتف من يدها. قالت هدى على الجانب

الآخر: «ألو... ألو... الو...». لم ترد عليها، فعرفت أن شيئًا سيئًا حدث، ارتدت ملابسها بسرعة، ونزلت من بيتها، ركبت تكسي باتجاه بيت هالة. عندما وصلت هدى كانت قد نسيت أن تحضر مفتاح بيت هالة الذي وضعته عندها منذ سنوات لحالات الطوارئ ولم تستخدمه ولا مرة. قرعت الجرس، لم ترد هالة عليها، أخذت تدق الباب بقوة وتصرخ: «هالة افتحي... افتحي...». لم تجبها. خرجت سعاد من بيتها على صراخ هدى، سألت: «ماذا حصل؟». قالت هدى: «هالة في الداخل ولا ترد عليّ، أنا خائفة من أن تكون فعلت شيئًا بنفسها، أحتاج مَن يحطم الباب». قالت سعاد: «انتظري، لدي مفتاح». دخلت إلى بيتها وعادت سريعًا، فتحت الباب، دخلتا البيت، وجدتا هالة ممددة على الأرض إلى جانبها الهاتف وقد سقطت سماعته. حملتاها إلى السرير، طلبتا الطبيب، فحصها وكتب بعض الأدوية.

صدمت هالة بشدة بما حدث، هي التي أرادت أن تذهب بعيدًا، حتى ترتاح من متاعبها، وجدت نفسها تذهب بعيدًا، لتعود بمتاعب أكبر من تلك التي هربت منها. فهمت سعاد من كلمات هدى القليلة، أي مصيبة حلت بها، كانت تزورها كل بضع ساعات، وترى الدموع في عينيها، سواء كانت تبكي أم لا. لم تستطع أن تدير أي

حديث معها، إلا بعد أسبوع، كانتا وحدهما، وهدى عادت إلى عملها، بعد أسبوع إجازة أخذته من أجلها. كانت ترغب في الحديث عن رعب تجربتها في الأسابيع القليلة التي قضتها في القاهرة. قالت لسعاد بوَهَن وهي تجلس في سريرها: «رأيت ما حصل لي. هذه نهايتي، عزت حولني إلى عاهرة». قالت سعاد لتخفف عنها: «لا يهمك، هذا كلام تافه». قالت هالة: «هربت من البلد لأني راغبة في الراحة من متاعبي... انتظرت أن أصنع عالمًا جديدًا يساعدني على نسيان المرارة التي منحني إياها هذا البلد... لم أكن أتوقع أن الظلم سيلاحقني حتى في بلاد أخرى... لم أتوقع أن يتم اتهامي بما حافظت عليه طوال حياتي... هل هذه مكافأتي لأني حافظت على بكارتي؟ فضيحة ستبقى تلاحقني حتى موتي... لماذا نحافظ على بكارتنا... وأي معنى لهذا الغشاء التافه... هل يعقل أن يرتبط مصيرنا به... ماذا لو كنت فقدته منذ زمن بعيد... وذهبت إلى الطبيب وأجريت له عملية رتق... لماذا حياتنا تتوقف على تفاهة اسمها غشاء البكارة... وكل الأشياء الأكثر أهمية يتم القفز عنها، كرامتنا وإنسانيتنا... وماذا بعد... أن يحصل عليها رجل تافه... يحصل على هذه المتعة المقرفة زوجنا العزيز... هل ذلك يفتح لنا ذلك الطريق للخيانة... ما هذه الحياة التافهة المرتبطة بغشاء لا

معنى له... حافظت عليه وأصبحت عاهرة في بلدين على الأقل... لقد حولني عزت إلى عاهرة ليس عند أهله فحسب، بل عند أهلي أيضًا... حتى عندما يصدقونني... سيكون الشك موجودًا دومًا في قلوبهم بأن عزت يمكن أن يكون على حق... أرى الشك في عيونهم... لم يتطرق أي منهم إلى الموضوع... لكني رأيت الشك في عيونهم... تمنيت أن يصدق أحد منهم ذلك... وأتحول إلى جريمة شرف وينتهي الأمر... لأني غير قادرة على الانتحار... أتمنى أن أستطيع فعل ذلك... لكني أجبن من ذلك... أي رجل تافه في هذا العالم يستطيع تحويلي إلى عاهرة...».

غرقت في البكاء، نهضت سعاد من مكانها، جلست إلى جوارها على السرير وهي تقول لها: «لا حاجة لهذا الكلام، ارتاحي أنت، كل الرجال فيهم من الحقارة ما يكفي». أمسكتها من كتفيها، زاد بكاء هالة، ضمتها إلى صدرها وهي تقول لها: «لا شيء في هذه الدنيا يستحق دموعك». قالت هالة من بين دموعها: «لماذا أنا؟! لماذا أنا؟! لقد تعبت... لم أفعل شيئًا في حياتي يستحق هذا العقاب... طوال عمري حاولت إرضاء الجميع... لم يرضَ أحد عني... اليوم، بعد ستة وثلاثين عامًا من عمري أتحول إلى عاهرة بمفعول رجعي... عاهرة يا سعاد... تعرفين ماذا تعني كلمة

عاهرة؟!... أنا التي حافظت على نفسي طوال هذه السنوات... أجد نفسي في النهاية عاهرة... أشكر كل العاهرات اللواتي اختصرن الطريق... وفعلنَ ذلك في العلن... هل أستحق هذا المصير؟ أرجوك أجيبيني...». قالت سعاد: «أرجوك. لا تقولي هذا الكلام عن نفسك». غرقتا في البكاء، بكت سعاد على هالة وعلى نفسها، قالت من بين دموعها: «كل ما حولنا يحولنا إلى عاهرات. لكن الحقيقة أن كل ما حولنا هو عاهر، لأنه لا يريد أن يرانا أصلًا».

عرفت هالة أنها لن تستطيع إصلاح العلاقة مع عزت بعد الفضيحة التي تسبب بها في القاهرة ودمشق، شعرت أنها لم تعد تستطيع العيش في هذا المكان. طلبت من فداء أن تُسرّع بقدر ما تستطيع في معاملات لمّ الشمل، استجابت فداء بقدر ما تستطيع لطلبها، عندما عرفت أي معاناة تعيش فيها. عرفت هالة أنها عندما ذهبت بعيدًا إلى القاهرة هربًا من مشاكلها هنا، حملت هذه المشكلات معها إلى هناك، ولم تستطع أن تتركها في مطار دمشق عندما غادرت. وهي تريد هذه المرة الذهاب إلى الولايات المتحدة، ليس هربًا، لأنها باتت تعرف أنها ستحمل جراحها معها إلى نيويورك. هذه المرة عرفت أنها لم يبقَ لها شيء في هذه المدينة التي أحبتها، لكنها لم تمنحها سوى الفضيحة. انكسر شيء ما في

داخلها، شيء لا يمكن إصلاحه، تعرف أنها ستحمل الخراب معها إلى بلاد جديدة. اتصلت بحسني وأخبرته بكل ما جرى معها، اتصلت بعامر وأخبرته بما جرى معها، ولم تعرف لماذا اتصلت بهما ولماذا قالت لهما ما قالت، ولماذا توسع فضيحتها. أبلغت العديد من الصديقات بما جرى معها، كأنها تُشهّر بنفسها وتعاقبها على جرم ارتكبته. كرهت نفسها بشدة، وكرهت طيبتها، كرهت جسدها، كانت غريبة عن نفسها حتى عندما تنظر إلى نفسها في المرآة، لم تعرف تلك المرأة التي تشاهدها قبالتها. خلال الأيام التي قضتها في دمشق في انتظار انتهاء تلك المعاملة، شعرت نفسها ميتة. عندما طلب حسني أن يراها قبل سفرها، لم ترفض، تمنت أمنيتها الأخيرة، أن يقول لها ما تمنت أن تسمعه منه. إذا سمعت تلك الكلمات، ستلغي كل شيء وتعود لخوض المعركة مع كل العالم من جديد، وستمنحها الكلمات روحًا جديدة تستطيع أن تحارب العالم بفضلها بعد شعورها بالموت. لم يقل لها حسني ما أرادت، عندما اقترب منها ليُقبّلها في السيارة، لم تشعر بأي رغبة لفعل ذلك، شعرت بالحزن الشديد. نظرت إليه تأملته بعينيها الحزينتين، لأنها قد لا تراه مرة أخرى. رغبت في اللحظات الأخيرة أن تقول له: «تزوجني». لكنها تراجعت، فكّرت وهي تنظر إليه: أنها

حتى لو كانت ميتة، فليس عليها أن تكون رخيصة، بلعت الكلمة، وبلعت رغبتها بتقبيله، شعرت بقلبها ميتًا، لم يكن ذلك اللقاء سعيدًا، كان الوداع حزينًا وقاسيًا، لم تعرف بماذا فكّر حسني، عرفت أنه ليس سعيدًا بفراقها، لكنه لا يريد أن يفعل أي شيء لتبقى إلى جانبه.

أتعبتها الذكريات، نظرت من نافذة الطائرة في الفراغ الممتد أمامها إلى اللانهاية، فكّرت في مسار حياتها، لم تجد فيه الشيء الكثير، اختارت أن تعيش حياتها بناء على رأي الآخرين الذين تهمها كثيرًا نظرتهم لها. قضت حياتها تعمل جاهدة على جعل نظرة الآخرين لها ايجابية، خافت على صورتها في عيونهم، فحاولت أن تكون ما يريدون، اعتبرت تلك هي الحياة الطبيعية لها. عندما أرادت أن تعيش حياتها كما ترغب، لم تستطع أن تعيشها في العلن، أصبحت حياتها مزدوجة، واحدة أمام الآخرين، وواحدة لها وحدها. أحبت حياتها كما رغبت في عيشها، لكنها خافت منها، لم تكن قادرة على تحمل التناقض المؤلم الذي شعرت به، لم تغادر قناعاتها السابقة ولم تكن قادرة على استيعاب حياتها الجديدة. رسمت حياتها للآخرين كما تعودوا وتعودت عليها، وكانت في الواقع تعيش حياتها التي أدهشتها، لم تعرف أنها قادرة على عيشها. أشهُر قليلة قلبت حياتها رأسًا على عقب،

خربت هدوءها وروتينها، أشهر قليلة غيرت الكثير داخلها، غيرت نظرتها لنفسها. اكتشفت في داخلها ما لم تره خلال سنوات عمرها. ستة أشهر فقط دامت علاقة الحب المكشوفة مع حسني، شعرت بها تعادل عمرها كله. لم يكن ذلك بسبب اكتشافها الوحش الجنسي داخلها فحسب، بل اكتشافها لخضوعها المطلق لهذا الرجل أيضًا، أحبت ذلك الخضوع، لم يطلبه منها، قامت بذلك بمحض إرادتها، كانت تفعل كل ما يقوله لها وكأنه أمر تنفذه بحذافيره، لم تفهم لماذا هي مستلبة أمامه إلى هذه الدرجة، هل هو مفعول الحب؟ أم طغيان شخصيته عليها؟ أم خوفها من فقدانه بعد أن وجدته؟ لم تجد تفسيرًا لعلاقتها به، كانت تعرف أن هذه العلاقة محكومة بالاستحالة، وجدت نفسها مدفوعة لها بقوة هي غير قادرة على مقاومتها. أحبته دون أن تطلب منه أي شيء، لم تكن قادرة على طلب الشيء الوحيد الذي تريده منه، تريده أن يطلبه هو منها، حلمت بأنه يفعل ذلك، عندما صحت من حلمها، عرفت أن ذلك لن يحصل، لو طلبه منها بالأمس ولو كذبًا وهي تودعه لما ركبت هذه الطائرة اليوم، لكنه لم يقل لها تلك الكلمة، أحست بالإحباط، وها هي تذهب إلى المجهول لأنها لم تسمع تلك الكلمة. اعتبرت أنه وحده يستطيع حمايتها مما تخاف منه، وتلك الكلمة هي التي تُحصنها ضد العالم كله، كلمة تمنحها الأمان

الذي تحتاجه، لم يقلها لها، ولـم تستطع أن تطلبهـا. فكّـرت بالمستقبل المجهـول الـذي تحملهـا إليـه هـذه الطـائرة الذاهبـة إلى عـالـم جديـد لا تعرفه، لم تكن تحب التغيير لأنها أحبت حياتها في دمشق، لكنهـا مجـبرة علـى هـذا التغييـر، فهـي لـم تستطع تحمـل كـلام الآخـرين ولا حتـى نظراتهم.

عنـدما سـألها حسـني: «هـل تعتقـدين إذا ذهبـت إلـى أميركـا لـن تتكلم الناس عنك؟». لم تجب على سؤاله، لـم يكـن هـذا مـا تريـد سماعه منه، انتظرت أن يقـول لهـا: «سـأحميك مـن كـلام الآخـرين، تعالي لنتزوج، وليكن ما يكون». لم يقل تلك الكلمات، وعرفت أنه حتى لم يفكر بها. انتظرت ما تعـرف أنـه لـن يحصـل، لكنهـا انتظرتـه دون أمل حتى اللحظات الأخيرة، كانت متعبة ومدمرة وتحتـاج إلـى تلك الكلمات التي لم تسمعها، فكّرت مرة أخرى أن تطلبهـا، لكنهـا لم تكن تستطيع ذلـك، لأنهـا إذا لـم تـأتِ وحـدها تفقـد معناهـا، وإذا رفض طلبها، ستفقد ما تبقى من احترامها لنفسها، كانت متأكـدة مـن أنه سيرفضها، لـو كـان هنـاك احتمـال معقـول لأن يقبلهـا، لخـاطرت وطلبتها منه. ارتكبت حماقة بالابتعاد عنه، عندما قرّرت الهرب إلـى الزواج وعادت بفضيحة أسوأ من تلك التي عانتهـا بعـد علاقتهـا مـع عامر. تلك العلاقة استطاعت نفيها ولو كذبًا، ولكن زواجها المعلـن

لن تستطيع نفيه. عرفت من تجربتها أن فضول الناس قاتل، يسألون عن كل شيء ويستمرون بالسؤال حتى تتلف الأعصاب. تهرب من حسني مرة أخرى إلى المجهول، بعد أن هربت منه مرتين، كل مرة كانت نتيجتها أسوأ من الأخرى. هربت منه إلى حب عامر، الذي وجدت أنه لا يقل استحالة عن حبها لحسني. فكّرت في حبها لعامر، وسألت نفسها هل كانت تحبه حقًا؟ هل هربت من حب حسني إليه؟ سألت نفسها هذه الأسئلة كثيرًا منذ اللحظات الأولى لعلاقتها معه، لكنها اليوم يخطر لها سؤال لم يخطر لها من قبل: هل أحبت بعلاقتها بعامر أن تقلد حب فداء لإدوارد؟ شعرت أن هذا السؤال يفسر كثيرًا من علاقتها بعامر، كأن إعجابها بمسار حياة فداء وفّر الأرضية لهذه العلاقة، دون أن ينفي أن علاقتها مع عامر كانت هروبًا من علاقة غير معلنة مع حسني. هذا الهروب كان الطريق الأقصر للوصول إلى أحضان حسني، وأصبحت غير قادرة على الخروج منها، وإذا كان الهروب الأول من حسني إلى عامر مصيبة، فإن الهروب الثاني من حسني إلى الزواج بعزت كان كارثة، لذلك لن تستطيع الصمود، أصبحت أميركا هي الحل الوحيد.

لأول مرة شعرت أنها محظوظة، وأن هناك شيئًا في حياتها أتى في وقته. شعرت بذلك وهي تودعه في اليوم السابق لركوبها الطائرة،

عندما اقترب منها ليقبّلها مودعًا، أشاحت بوجهها، عادت للنظر إليه وجدت تعابير الغضب على وجهه، قالت له: «أرجوك حسني، انتظر قليلًا حتى أخلص من عزت، فأنا الآن امرأة متزوجة». كانت تعرف أنها ستهرب في اليوم التالي، وهذا ما جعلها قادرة على الرفض، كانت تعرف نفسها، إذا بقيت، فهي لن تستطيع الرفض، ولن تستطيع أن تقاوم، فالطريق بات مفتوحًا، وليس هناك ما تحافظ عليه من أجل زوج قادم. كانت تعرف أنها إذا بقيت في دمشق، ستكون علاقتهما كاملة، مباح فيها كل شيء، فهي انتزعت نفسها بصعوبة من علاقة غير كاملة، فماذا تفعل بعلاقة كاملة؟ عرفت أن علاقتهما ستكون جنونًا مطبقًا، فقرّرت أن تهرب من هذا الجنون قبل أن يبدأ، مع أنها كانت ترغب به تمامًا، لم تجرؤ على التجريب، لأنها إذا فعلت لن تستطيع الكف عن هذه العلاقة مهما كانت النتائج، الهروب قبل الدخول في التجربة هو الحل الوحيد. سألت نفسها: «أي حياة عشتها؟».

استعرضت حياتها، غرقت في التفاصيل المتعبة، نامت من إرهاق السفر وتعب الذكريات، نامت بعمق. استيقظت هالة فزعة عندما أيقظتها العجوز الصينية جارتها في الطائرة، لتضع الحزام لأن الطائرة تستعد للهبوط، وأشارت لها بيدها إلى أن الطائرة ستهبط.

عندما فتحت هالة عينيها شعرت بطعم التراب في فمها ورائحته تملأ أنفها. بلعت ريقها بصعوبة، تذكرت منامها الذي أيقظتها منه جارتها الصينية في الطائرة: كانت في صحراء واسعة بلا نهايات، عاصفة من الغبار تغطي الأفق والسماء وتلاحقها لتبتلعها، وهي تحاول الهرب بأقصى ما تستطيع من القوة والسرعة، ليس هناك أحدٌ تلجأ إليه، ليس هناك مكانٌ تحتمي به من عاصفة الغبار، وحدها تركض في الفراغ كالمجنونة. تدركها العاصفة، تستمر في الركض، يملأ الغبار عينيها وفمها، يدخل الغبار أنفها فتشعر بالاختناق.

نزلت من الطائرة وهي ما تزال تشعر بطعم التراب في فمها، وتشعر بالغبار يؤلمها مثل وخز الإبر في عينيها، كانت منزعجة وكأنها مرّت فعلًا منذ قليل في عاصفة غبار. عندما شاهدت فداء ركضت باتجاهها ورمت نفسها في حضنها وشرعت في بكاء مرّ. أبعدتها فداء عنها قليلًا لترى وجهها الباكي، نفضت هالة شعرها بهز رأسها باتجاه اليمين واليسار بقوة، بحركتها رسم شعرها دائرة في الهواء، هالة مغمضة العينين سألت فداء من بين دموعها: «هل تشمّين رائحة الغبار؟!».



قبل وقت قصير، كانت خائفة بشدة من فعل ذلك، لكنها قبل أن تُقلع الطائرة من أرض مطار دمشق تخلصت من حجابها ومن خوفها. فكّرت في الموضوع طويلًا: هل ستُقدم على نزع حجابها؟ كان من الصعب أن تقوم بهذه الخطوة في دمشق، بعد أكثر من عشر سنوات على وضعها الحجاب على رأسها. لقد ودَّعت إخوتها وأخواتها في صالة مطار دمشق، قبل أن تصعد إلى الطائرة. نظروا إليها بعيون الشفقة، كانت تعرف هذه النظرات وتكرهها. أرادت أن تقول لهم: "لا تنظروا إليّ هكذا، فأنا أكره هذه النظرة في عيونكم، وفي عيون غيركم". لم تستطع أن تقول ذلك في لحظات الوداع، فقد جاء الجميع من أجلها، متضامنين مع محنتها ومقدّرين أنها قد لا تعود مرة أخرى إلى دمشق. لم تكن نظرات الشفقة تتعلق بنزع الحجاب، فهم لا يعرفون أي شيء عن قرارها بهذا الشأن. يشفقون عليها لأسباب أخرى، تعرفها وتكره شفقتهم، تلسعها كلماتهم التي تحمل الشفقة. كان تأثير شفقة إخوتها وأخواتها عليها كبيرًا، رغم أنها شغلت نفسها طوال الوقت بحجابها، الذي لم يخطر على بال أهلها أنها يمكن أن تفكر في نزعه، وحتى لم يخطر على بالها، أن يومًا سيأتي وتنزعه. رغم لسع الكلمات، لم يشغل تفكيرها سوى كيف ومتى تنزع الحجاب في طريقها إلى الولايات المتحدة؟ لن تصل إلى هناك والحجاب على رأسها، هكذا قرّرت في اليوم السابق. ودَّعتهم وكان حجابها أكثر ما يقلقها في لحظات الوداع، لم ترَ صور وجوههم كما هي، شاهدتْهم صورًا غائمة لإخوة وأخوات تتذكر ملامحهم أكثر مما تراهم أمامها، هم موجودون وغير موجودين، الدموع بعينيها جعلت صورهم أكثر تشوهًا واضطرابًا. الحجاب يضغط عليها بقوة أكثر من أي شيء آخر، رغم المصائب التي عكّرت حياتها في الفترة الأخيرة.